وصف الدور الثلاثة

من تفسير ابن كثير

١ - الدنيا : دار الغرور

٢ - النار : دار الثبور

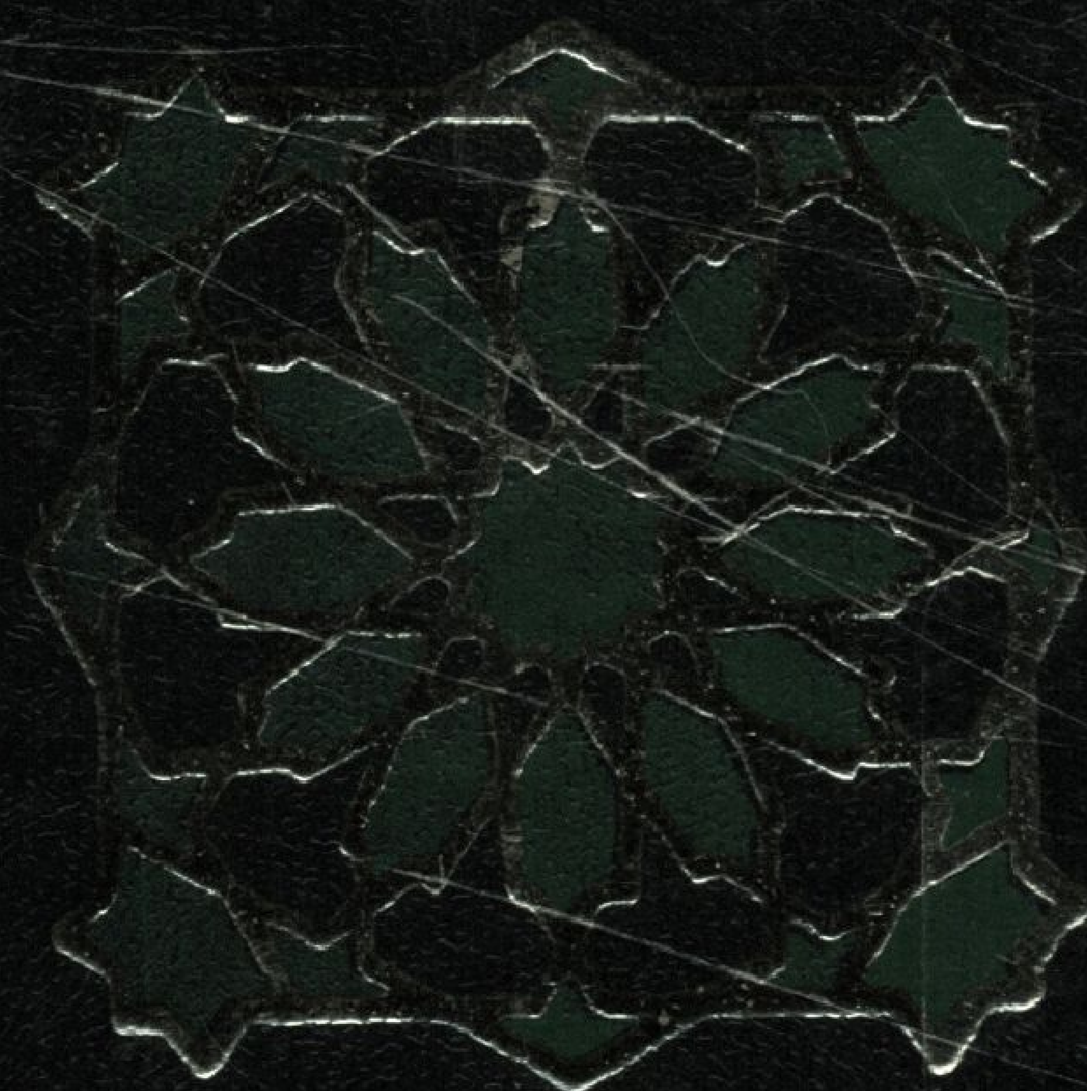
٣ - الجنة : دار السرور

جمع وترتيب

أبي ذر القلموني

(ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله)

هود / ٢٩



مكتبة الإيمان

المنصورة - أمام جامعة الأزهر - ت ٢٥٧٨٨٢

وصف الدور الثلاثة

من تفسير ابن كثير

١ ـ الدنيا : دار الغرور

٢ ـ النار : دار الثبور

٣ ـ الجنة : دار السرور

جمع وترتيب

أبي ذر القلموني

(وَيَا قَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ)

هود/٢٩

فضلاً : اقرأ الكتاب بالترتيب

مكتبة الإيمان

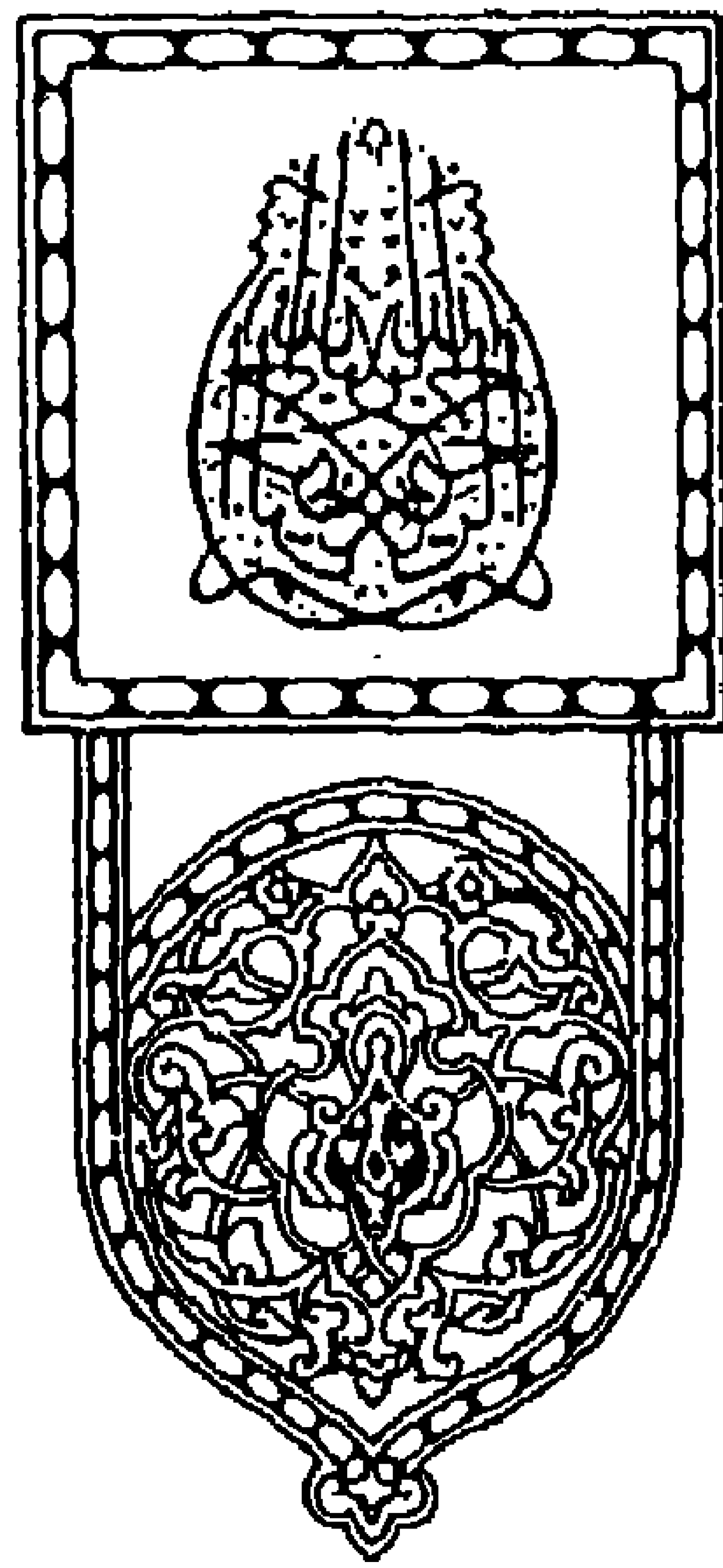
المنصورة ـ أمام جامعة الأزهر

ت : ٣٥٧٨٨٢

قال الله تعالى :

﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز
وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾

[آل عمران : ١٨٥]



من أراد أن يطبعه فليطبعه
دون إذن وليتق الله فيه

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ [النساء : ١] ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ۝ يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ [الأحزاب ٧٠ ، ٧١] .

أما بعد .. فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ﴿ سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ ﴿ ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ﴾ ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾

﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ، ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾ ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ ﴿ ربنا لا تجعلنا من القوم الظالمين ﴾ ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً ﴾ ﴿ ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ﴾ ﴿ ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴾ ﴿ ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ ﴿ ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات . ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير ﴾ .

يارب : أدعوك وأنا العبد الذليل ، وأنت الرب العزيز ، يارب : أسألك من فضلك ورحمتك لى ولكل المسلمين ، فإنه لا يملكها إلا أنت . اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينا ما علمت الحياة خيراً لنا ، وتوفنا ما علمت الوفاة خيراً لنا ، اللهم ونسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، ونسألك كلمة الإخلاص فى الرضا والغضب ، ونسألك القصد فى الفقر والغنى ، ونسألك نعيماً لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، ونسألك الرضا بالقضاء ، ونسألك برد العيش بعد الموت ،

ونسألك النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين . اللهم اغفر لنا وارحمنا وعافنا وارزقنا .

(اللهم اجعل حبك أحب الأشياء إلينا ، وخشيتك أخوف الأشياء عندنا ، واقطع عنا حاجة الدنيا بالشوق إلى لقائك ، فإذا أقررت أعين أهل الدنيا من دنياهم فاقرر أعيننا من عبادتك) .

(اللهم إنا نسألك الخير كله عاجله وآجله ، ما علمنا منه وما لم نعلم ، ونعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمنا منه وما لم نعلم . اللهم إنا نسألك من خير ما سألك منه عبدك ونبيك محمد ﷺ ، ونعوذ بك من شر ما استعاذ بك منه عبدك ونبيك محمد ﷺ . اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل . ونعوذ بك من النار وما قرب إليه من قول أو عمل . ونسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لنا خيراً) . آمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه :

قال الله تعالى : ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ (الأنعام : ١٢٥)

قال ابن كثير رحمه الله وجعل الجنة مثواه : يقول تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾ أي ييسره له وينشطه ويسهله لذلك ، فهذه علامات على الخير ، كقوله تعالى : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم** ﴾ وقال ابن عباس معناه يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به وهو ظاهر . سئل رسول الله ﷺ : أي المؤمنين أكيس ؟ قال : « أكثرهم ذكراً للموت وأكثرهم لما بعده استعداداً » ، وسئل عن هذه الآية : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾ قالوا : كيف يشرح صدره يارسول الله ؟ قال : « نور

يقذف فيه فينشرح له وينفسح » ، قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال : « الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت »[١] . وعن عبد الله بن مسعود قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ قالوا : يارسول الله ما هذا الشرح ؟ قال : « نور يقذف به في القلب » ، قالوا يارسول الله فهل لذلك من أمارة تعرف ؟ : « نعم » ، قالوا : وما هي قال : « الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل الموت »[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ حرجاً بفتح الحاء والراء ، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى ، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان ولا ينفذ فيه ، وقد سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج عن الحرجة ؟ فقال : هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء ، فقال عمر رضى الله عنه : كذلك قلب المنافقين لا يصل إليه شيء من الخير . وقال ابن عباس : يجعل الله عليه الإسلام ضيقاً والإسلام واسع ، وذلك حين يقول : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ يقول : ما جعل عليكم فى الإسلام من ضيق . وقال مجاهد والسدي : ﴿ ضيقاً حرجاً ﴾ شاكاً ، وقال عطاء الخراساني : ﴿ ضيقاً حرجاً ﴾ أي ليس للخير فيه منفذ ، وقال ابن المبارك : ﴿ ضيقاً حرجاً ﴾ بلا إله إلا الله حتى لا تستطيع أن تدخل قلبه ، ﴿ كأنما يصَّعَّد في السماء ﴾ من شدة ذلك عليه . وقال سعيد بن جبير : ﴿ يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ لا يجد فيه مسلكاً إلا صعد . وقال عطاء الخراساني : ﴿ كأنما يصعد فى السماء ﴾ يقول : فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله في قلبه ، وقال الأوزاعى : كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقاً أن يكون مسلماً . وقال ابن جرير : وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقة عن وصول الإيمان إليه يقول : فمثله في امتناعه عن

(١) رواه عبد الرازق ، وابن جرير بنحوه وأخرجه ابن أبى حاتم كما فى الرواية الأخرى .

(٢) رواه ابن أبى حاتم ، قال ابن كثير : ولهذا الحديث طرق مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً .

قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه ، لأنه ليس في وسعه وطاقته ، وقال في قوله : ﴿ **كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون** ﴾ .

يقول : كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقاً حرجاً ، كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله فيغويه ويصده عن سبيل الله ، وقال ابن عباس : ﴿ **الرجس** ﴾ الشيطان ، وقال مجاهد : ﴿ **الرجس** ﴾ كل ما لا خير فيه .

﴿ **وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَد فَصَّلْنَا ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ، لَهُم دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِم وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ (١٢٦ : ١٢٧)

لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادين عنها ، نبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق ، فقال تعالى : ﴿ **وهذا صراط ربك مستقيماً** ﴾ إي هذا الدين الذي شرعناه لك يامحمد بما أوحينا إليك هذا القرآن هو صراط الله المستقيم ، كما تقدم في الحديث في نعت القرآن : « **هو صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين وهو الذكر الحكيم** » [(١)] ، ﴿ **قد فصلنا الآيات** ﴾ أي وضحناها وبيناها وفسرناها ﴿ **لقوم يذكرون** ﴾ أي لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله ، ﴿ **لهم دار السلام** ﴾ وهي الجنة ﴿ **عند ربهم** ﴾ أي يوم القيامة ، وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم ، المقتفي أثر الأنبياء وطوائفهم فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام ، ﴿ **وهو وليهم** ﴾ إي حافظهم وناصرهم ومؤيدهم ، ﴿ **بما كانوا يعملون** ﴾ أي جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة بمنه وكرمه . انتهى من ابن كثير .

الدور الثلاثة :

جاء في مقدمة كتاب زاد المعاد لابن القيم رحمه الله ما مختصره :

..... فالله سبحانه وتعالى جعل الطيب بحذافيره في الجنة . وجعل الخبيث

(١) رواه أحمد والترمذي عن علي رضي الله عنه . وهو حديث طويل .

بحذافيره في النار فجعل الدور ثلاثة : داراً أخلصت للطيبين . وهي حرام على غير الطيبين . وقد جمعت كل طيب وهي الجنة . وداراً أخلصت للخبيث والخبائث ، ولا يدخلها إلا الخبيثون ، وهي النَّار ، وداراً امتزج فيها الطيبُ والخبيث . وخلط بينهما ، وهي هذه الدار ، ولهذا وقع الابتلاء والمحنة بسبب هذا الامتزاج والاختلاط ، وذلك بموجب الحكمة الإلهية ، فإذا كان يوم معاد الخليقة ، ميز الله الخبيث من الطيب . فجعل الطيب وأهله في دار على حدة لا يُخالِطهم غيرهم ، وجعل الخبيثَ وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم ، فعاد الأمر إلى دارين فقط : الجنَّة . وهي دار الطيبين ، والنار ، وهي دار الخبيثين ، وأنشأ الله تعالى من أعمال الفريقين ثوابَهم وعقابَهم ... والمقصود أن الله – سبحانه وتعالى – جعل للسعادة والشقاوة عنواناً يعرفان به فالسعيُد الطيب لا يليق به إلا طيب ، ولا يأتي إلا طيبًا ولا يصدر منه إلا طيب ، ولا يُلابِس إلا طيباً ، والشقي الخبيث لا يليق به إلا الخبيث ، ولا يأتي إلا خُبثاً ، ولا يصدر منه إلا الخبيثُ ، فالخبيث يتفجر من قلبه الخبثُ على لسانه وجوارحه ، والطَّيب يتفجر من قلبه الطَّيب على لسانه وجوارحه ، وقد يكون في الشخص مادتان ، فأيهما غلب عليه كان من أهلها ، فإن أراد الله به خيراً طهره من المادة الخبيثة قبل الموافاة ، فيُوافيه يوم القيامة مطهراً .. فلا يحتاج إلى تطهيره بالنار ، فيطهره منها بما يوفقه له من التوبة النصوح ، والحسنات الماحية ، والمصائب المكفرة ، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة ، ويمسك عن الآخر مواد التطهير ، فيلقاه يوم القيامة بمادة خبيثة ، ومادة طيبة ، وحكمته تعالى تأبى أن يجُاوره أحد في داره بخبائثه ، فيدخله النار طهره له وتصفية وسبكاً ، فإذا خلصت سبيكة إيمانه من الخبث صلح حينئذٍ لجواره ، ومساكنة الطيبين من عباده ، وإقامة هذا النوع من الناس في النار على حسب سرعة زوال تلك الخبائث منهم وبطئها ، فأسرعهم زوالاً وتطهيراً أسرعهم خروجاً ، وأبطؤهم خروجاً ، جزاءً وفاقاً ، وما ربُّك بظلام للعبيد .

ولما كان المشرك خبيث العنصر ، خبيث الذات ، لم تطهر النار خبثه بل لو خرج منها لعاد خبيثاً كما كان ، كالكلب إذا دخل البحر ثم خرج منه ، فلذلك حرم الله تعالى على المشرك الجنَّة .

ولما كان المؤمن الطيب المطيب مبّرءاً من الخبائث ، كانت النار حراماً عليه ، إذ ليس فيه ما يقتضى تطهيره بها ، فسبحان من بهرت حكمته العقول والألباب ، وشهدت فطرُ عباده وعقولهم بأنه أحكم الحاكمين ، وربُّ العالمين ، لا إله إلا هو) انتهى من زاد المعاد .

قل إن الفضل كله لله :

يرجع الفضل فى فكرة هذا الكتاب لله وحده ، ثم لما قرأته من المقدمة السالفة الذكر لابن القيم رحمه الله تعالى ، وفيها أن الله تعالى جعل (الدور ثلاثة) فلما قرأت هاتين الكلمتين دعوت الله أن ييسر لى كتاباً أجمع فيه الكلام عن هذه الدور الثلاثة (الدنيا والنار والجنة) حيث إن معظم الكتب التى قد أُلفت فى هذا الشأن – حسب ما أعلم – منها من أفرد الكلام عن الدنيا ، ومنها من أفرد الكلام عن النار ، ومنها من أفرد الكلام عن الجنة ، وكأن الله تعالى أراد بذلك إثابة الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى لا على أيدى العلماء فحسب – فإن كتاب تفسير القرآن العظيم لابن كثير لا تكاد تخلو منه مكتبة عالم تقريبا – ولكن الله تعالى أراد إثابته أيضا على أيدى عامة المسلمين ، والله وحده يعلم مدى حبى للعلماء العاملين ، خاصة الإمام ابن كثير رحمه الله ، والذى أحسبه ولا أزكى على الله أحداً – من الذين جعل الله لهم لسان صدق فى الآخرين ، أى ذكراً جميلاً بعد موته ويقتدى به فى الخير ، حتى إنه قد اشتهر بين العلماء أن (التفسير هو ابن كثير) ولقد بلغ من حبى لابن كثير رحمه الله أننى كنت أتوسل إلى الله تعالى بحبى له فى الله والله يعلم أنه ما طلعت شمس يوم إلا ودعوت الله لكل المسلمين ، حيهم وميتهم ، شاهدهم وغائبهم ، صغيرهم وكبيرهم ، ذكرهم وأنثاهم ، أدعو لصالحيهم بأن يحشرنى الله معهم ، ولمذنبيهم بأن يتوب الله علىَّ وعليهم ، ولعلمائهم بالعمل ، ولنسائهم بالستر والعفاف ، أدعو لى ولهم بقول « اللهم إنى أسألك من خير ما سألك منه عبدك ونبيك محمد ﷺ ، وأعوذ بك من شر ما استعاذ بك منه عبدك ونبيك محمد ﷺ) وإنى لأضع دائما أمامى هذه الحكمة البالغة ليحيى ابن معاذ الرازى : ليكن حظ المؤمن منك ثلاثة : إن لم تنفعه فلا تضره ، وإن لم تفرحه فلا تغمه ، وإن لم تمدحه فلا تذمه . فالدعاء بظهر الغيب ، وكف الأذى

عن المسلم ، وإلقاء السلام من أقوى ما يحبب المسلم إلى أخيه . قال مجاهد بلغنى أنه إذا تراءى المتحابان (أى فى الله) فضحك أحدهما إلى الآخر وتصافحا تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر ، فقيل له : إن هذا ليسير من العمل ، قال : تقولون يسير ، والله تعالى يقول : ﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم** ﴾ (الأنفال : ٦٣) . وإنه مما يقوى حب المسلم لأخيه عمله بقول الرسول ﷺ : « لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى هاهنا ، ويشير إلى صدره ثلاث مرات ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه » رواه مسلم . قال ابن رجب الحنبلى فى كتابه جامع العلوم والحكم : (لا تناجشوا : وهو ألا يزيد فى السلعة من لا يريد شراءها ، لا تدابروا : قال أبو عبيد : التدابر المصارمة والهجران مأخوذ من أن يولى الرجل صاحبه دبره ويعرض عنه بوجهه وهو التقاطع ... وقال رحمه الله : وقوله ﷺ : « وكونوا عباد الله إخوانا » هذا إشارة إلى أنهم إذا تركوا التحاسد والتناجش والتباغض والتدابر وبيع بعضهم على بعض كانوا إخواناً ، وفيه أمر باكتساب ما يصير به المسلمون إخواناً على الإطلاق ، وذلك يدخل فيه أداء حقوق المسلم على المسلم من رد السلام وتشميت العاطس وعيادة المريض وتشييع الجنازة وإجابة الدعوة والابتداء بالسلام عند اللقاء والنصح بالغيب ....) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما تحاب رجلان فى الله إلا كان أحبهما إلى الله عز وجل أشدهما حباً لصاحبه » رواه الطبرانى وأبو يعلى . ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾ (الزخرف : ٦٧) . قال ابن كثير رحمه الله تعالى : (أى كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب عداوة إلا ما كان لله عز وجل فإنه دائم بدوامه .... قال ابن عباس ومجاهد : صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين . وروى الحافظ ابن عساكر عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن رجلين تحابا فى الله أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب لجمع الله

تعالى بينهما يوم القيامة ، فيقول هذا الذى أحببته فىّ » انتهى ، وإن هذه الأخوة الصادقة لا تنشأ إلا من بيوت الله تعالى ، لا تنشأ إلا من صلاة الجماعة ، لا تنشأ إلا بالركوع من الراكعين ، تحب آخاك فى الله لا لمال ولا لجاه ولا لدفع ضر ولا لأى غرض آخر ، وكما قيل : ما كان لله دام واتصل وما كان لغيره انقطع وانفصل . قد يقول قائل : ما علاقة هذا الكلام بموضوع الكتاب ؟ كان ينبغى لك أن تكثير الكلام عن الدنيا وعن النار وعن الجنة ؟ إننى أقول لك أيها الأخ المسلم : إن هؤلاء الذين تحققت فيهم تلك الصفات هم الزهاد فى الدنيا حقيقة ، هؤلاء هم الذين يزحزحهم الله عن النار ، هؤلاء هم سكان الجنة ، إن هؤلاء هم الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، يقول الرسول ﷺ : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال إنى أخاف الله تعالى ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » رواه البخارى . إننى بهذا أدلك على طريق من أقصر الطرق الموصلة إلى الجنة ، يقول رسول الله ﷺ : « إن رجلا زار أخاً له فى الله ، فأرصد الله له ملكاً ، فقال أين تريد ؟ قال : أريد أن أزور أخى فلانا ، فقال : لحاجة لك عنده ؟ قال : لا ، قال : لقرابة بينك وبينه ؟ قال : لا ، قال : فبنعمة لك عنده ؟ قال : لا ، قال : فبم ؟ قال : أحبه فى الله ، قال : فإن الله أرسلنى إليك أخبرك بأنه يحبك لحبك إياه ، وقد أوجب لك الجنة » رواه مسلم . وأعود إلى بيت القصيد .... وكأن الله تعالى قد استجاب دعائى ، فقمت واستخرت الله تعالى على المرجع الذى ألتقط منه كتاب وصف الدور الثلاثة ، ووقع الاختيار بأمر الله تعالى على نخلة أكلت طيباً فأخرجت طيباً بأمر ربها ، وقع الاختيار بأمر الله تعالى على تفسير القرآن العظيم لابن كثير رحمه الله تعالى ، ولقد كان اختيارى لتفسير ابن كثير بفضل الله تعالى لعدة أوجه :

منها : أن الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى من أئمة علماء الحديث ، ومن المعلوم أن الحافظ عند علماء الحديث هو من حفظ مائة ألف حديث ، متنا وإسناداً ولو بطرق متعددة ووعى ما تحتاج إليه ، ومنها : أنه رحمه الله عندما

يتكلم عن الدنيا يتكلم عنها وعما يزهد فيها ، وعندما يتكلم عن النار ، يتكلم عنها وعما يقرب إليها من قول أو عمل ، وعندما يتكلم عن الجنة يتكلم عنها وعما يقرب إليها من قول أو عمل ، ويتكلم عن هذه الدور الثلاثة برقة قلب حافظ القرآن العامل به ، وقوة حجة عالم الحديث ، فجمع الله تعالى له بين رقة القلب ونضارة الوجه . ومنها : أنه رحمه الله قد اتبع فى تفسيره - كما هو مستنبط من مقدمة تفسيره العظيم - أفضل طرق التفسير وهى : تفسير القرآن بالقرآن ، فإذا لم يجد فى القرآن ففى السنة ، فإذا لم يجد فى السنة ففى قول الصحابى ، فإذا لم يجد فى القرآن ولا فى السنة ولا عن الصحابى رجع إلى أقوال التابعين رضى الله عنهم .

وإننى لم أتجه إلى كتاب تفسير ابن كثير مباشرة عند الاختصار ، بل اتجهت إلى كتاب مختصر تفسير ابن كثير للشيخ الجليل محمد على الصابونى[1] ، أثابه الله تعالى ، وذلك لما لمست فى هذا المختصر من السهولة واليسر ، خاصة وأن الكلام عن هذه الدور الثلاثة يحتاج إلى فهمه العامى قبل العالم .. وإن كان العالم أكثر الناس احتياجاً للعمل بعلمه .

طريقة الجمع والترتيب :

قمت بتقسيم هذا الكتاب إلى ثلاثة أبواب ، باب منها يتكلم عن الدنيا ، وباب آخر يتكلم عن النار ، وباب ثالث يتكلم عن الجنة ، وإنى أرجو الله تعالى أن تلتزم هذا الترتيب عند القراءة حتى تتم الفائدة ، وقد قمت بوضع عناوين للآيات بحيث يكون العنوان دالاً على أكبر معنى تدور حوله الآيات . ولقد قمت بالالتزام بترتيب سور القرآن ، اللهم إلا عند الكلام عن النار ، فقد رتبت بين يديها الكلام عن أهوال يوم القيامة[1] ، ومع ذلك راعيت هذا الترتيب عند الكلام عن هذه الأهوال . وقد كنت أحياناً أختصر من المختصر

---

(١) الذى يعنينى هنا من مختصر تفسير ابن كثير هو جانب الاختصار فقط ، أما جانب تحقيق الأحاديث فكأنى أنقل من تفسير ابن كثير (الأصل) .

(١) وأيضا فى مواضع أخرى نادرة .

دون أن يحدث ذلك خللاً فى المعنى أو نقصاً فى الشرح ، وإنى لم أتعرض لكل الآيات التى تدور حول هذه الدور الثلاثة مخافة الإطالة من جهة ، ومن جهة أخرى فإنى كنت إذا رأيت الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى قد تكلم عن آيتين متقاربتين فى المعنى فى موضعين من القرآن – اكتفيت بذكر أكثرهما تفسيراً . وقد كنت أحيانا أجد تفسير الآيات مرتبطا ارتباطا وثيقا بحيث لا يمكن فصل الآيات الخاصة بكل دار من هذه الدور الثلاثة على حده ، فكنت أتركها كما هى ، مع وضعها فى الدار التى يغلب عليها تفسير الآيات . هذا وإنى لم أضف شيئا قط إلى ما هو موجود فى التفسير (ولا ينبغى لى ذلك) – وهى نفس طريقة المختصر – إلا فى أحوال نادرة كنت آتى فيها بفائدة ، وأضعها بين هاتين العلامتين [ ]

احفظ الله يحفظك :

عَنْ أبى العَبَّاس عَبْد الله بْن عَبَّاس رَضىَ الله (تَعالى) عَنْهُما قال : « كُنْتَ خَلْفَ النَّبى ﷺ يَوْماً ، فقالَ لى : يا غُلامُ إنِّى أعْلمُكَ كلمات : احْفَظِ الله يحْفَظك ، احفَظ الله تجْدُهُ تُجاهَكَ ، إذا سأَلْتَ فاسأل الله ، وإذَا استَعَنْتَ فاستْعِن بِالله ، واعْلَمْ أنَّ الأمَّة لَوْ اجْتَمَعتْ على أنْ ينَفعُوكَ بشَىء ، لم يَنْفعوك إلا بشَىء قَدْ كَتَبُه الله (تَعالى) لَكَ ، وإنَ اجْتَمعَوا على أن يَضرُّوكَ بشَى ، لم يَضرُّوكَ إلا بَشْىء قَدْ كَتَبُه الله (تعالى) عَلَيْكَ : رُفِعَتِ الأقْلامُ وجَفتِ الصحف رَوَاهُ التِّرمذىُّ ، وقال : حَدِيث حَسَنُ صَحِيح . وفى رِواية غَيْرِ التِّرمِذِىّ « احفَظْ الله تَجدْهُ أمامَكَ ، تَعَرَّفْ إلى الله فى الرخاء يَعْرِفْكَ فى الشِّدةِ ، واعْلَمْ أنَّ ما أَخطَأَكَ لم يَكُنْ لِيصيبَكَ ، وما أصَابَكَ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَك ، واعْلَمْ أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْر ، وأنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ ، وأنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا » .

جاء فى كتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى ما مختصره :
– وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين ، حتى قال بعض العلماء : تدبرت هذا الحديث فأدهشنى وكدت أطيش فوا أسفا من

الجهل بهذا الحديث وقلة التفهم لمعناه . ثم قال ابن رجب رحمه الله :

(١) قول ﷺ : « احفظ الله » يعنى احفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه ، وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال وعند نواهيه بالاجتناب وعند حدوده فلا يتجاوز ما أمر به وأذن فيه إلى ما نهى عنه ، فمن فعل ذلك فهو من الحافظين لحدود الله الذين مدحهم الله فى كتابه ، وقال عزّ وجّل : ﴿ **هذا ما توعدون لكّل أواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب** ﴾ وفسر الحفيظ هنا بالحافظ لأوامر الله وبالحافظ لذنوبه ليتوب منها ، ومن أعظم ما يجب حفظه من أوامر الله الصلاة ، وقد أمر الله بالمحافظة عليها فقال : ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى** ﴾ ومدح المحافظين عليها بقوله : ﴿ **والذين هم على صلاتهم يحافظون** ﴾ . وقال النبى ﷺ من حافظ عليها كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة » : وفى حديث آخر : « من حافظ عليهن كّن له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة » وكذلك الطهارة فإنها مفتاح الصلاة ، قال النبى ﷺ : « لا يحافظ على الوضوء إلا المؤمن » . ومما يؤمر بحفظه الأيمان ، قال الله عز وجل : ﴿ **واحفظوا أيمانكم** ﴾ فإن الإيمان يقع الناس فيها كثيراً ويهمل كثير منهم ما يجب بها فلا يحفظه ولا يلتزمه . ومن ذلك حفظ الرأس والبطن كما فى حديث ابن مسعود المرفوع « الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ، وتحفظ البطن وما حوى » خرجه الإمام أحمد والترمذى . وحفظ البطن وما حوى يتضمن حفظ القلب عن الإصرار على ما حرم الله . قال الله عّز وجلّ : ﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه** ﴾ وقد جمع الله ذلك كله فى قوله : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾ ويتضمن أيضاً حفظ البطن من إدخال الحرام إليه من المآكل والمشارب ، ومن حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من حفظ ما بين لحييه وما بين رجليه دخل الجنة » خرجه الحاكم .

وقال تعالى : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين** ﴾ وقال أبو إدريس الخولانى : **أوّل** ما وصى الله به آدم عند إهباطه إلى الأرض حفظ فرجه ، وقال : لا تضعه إلا فى

بحلال ، وقول ﷺ : (يحفظك) يعنى أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه حفظه الله ، فإن الجزاء من جنس العمل كما قال تعالى : ﴿ **وأوفوا بعهدى : أوف بعهدكم** ﴾ وقال : ﴿ **اذكرونى أذكركم** ﴾ وقال : ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم** ﴾ وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان : أحدهما : حفظه له فى مصالح دنياه كحفظه فى بدنه وولده وأهله وماله ، قال الله عز وجل : ﴿ **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** ﴾ قال ابن عباس : هم الملائكة يحفظونه بأمر الله ، فإذا جاء القدر خلوا عنه . وقال على رضى الله عنه : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه ، وإن الأجل جنة حصينة . وقال مجاهد : ما من عبد إلا له ملك يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام ، فما من شىء يأتيه إلا قال له : وراءك إلا شيئاً أذن الله فيه فيصيبه . وخرج الإمام أحمد وأبو داود والنسائى من حديث ابن عمر قال : « لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسى وحين يصبح : اللهّم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة ، اللهّم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى ، واحفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » . ومن حفظ الله فى صباه وقوته حفظه الله فى حال كبره وضعف قوته ، ومتعه بسمعه وبصره وحوله وقوته وعقله . وكان بعض العلماء قد جاوز المائة سنة وهو ممتع بقوته وعقله ، فوثب يوماً وثبة شديدة فعوتب فى ذلك فقال : هذه جوارح حفظناها عن المعاصى فى الصغر فحفظها الله علينا فى الكبر ، وعكس هذا أن بعض السلف رأى شيخاً يسأل الناس فقال : إن هذا ضعيف ضيع الله فى صغره فضيعه الله فى كبره . وقد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته فى ذريته كما قيل فى قوله تعالى : ﴿ **وكان أبوهما صالحاً** ﴾ الآية ، أنهما حفظا بصلاح أبيهما ، قال سعيد بن المسيب : لابنه : لأزيدن فى صلاتى من أجلك رجاء أن أحفظ فيك ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **وكان أبوهما صالحاً** ﴾ . وقال عمر بن عبد العزيز : ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله فى عقبه وعقب عقبه . وقال ابن المنكدر : إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده والدويرات التى حوله فما يزالون

فى حفظ من الله وستر . ومتى كان العبد مشتغلا بطاعة الله فإن الله يحفظه فى تلك الحال .

فمن حفظ الله حفظه الله من كل أذى . قال بعض السلف : من اتقى الله فقد حفظ نفسه ، ومن ضيع تقواه فقد ضيع نفسه والله غنى عنه .

وعكس هذا أن من ضيع الله ضيعه الله ، فضاع بين خلقه حتى يدخل عليه الضرر والأذى ممن كان يرجو نفعه من أهله وغيرهم ، كما قال بعض السلف : إنى لأعصى الله فأعرف ذلك فى خلق خادمى ودابتى . **النوع الثانى من الحفظ** وهو أشرف النوعين : حفظ الله للعبد فى دينه وإيمانه فيحفظه فى حياته من الشبهات المضلة ومن الشهوات المحرمة ، ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفاه على الإيمان قال بعض السلف : إذا حضر الرجل الموتُ يقال للملك : شم رأسه ، قال : أجد فى رأسه القرآن ، قال : شَم قلبه ، قال : أجد فى قلبه الصيام ، قال : شم قدميه ، قال : أجد فى قدميه القيام ، قال : حفظ نفسه فحفظه الله . وفى الصحيحين عن البراء بن عازب عن النبى ﷺ : « أنه أمره أن يقول عند منامه : إن قبضت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ، وفى حديث عمر : « أن النبى ﷺ علمه أن يقول : اللهم احفظنى بالإسلام قائماً ، واحفظنى بالإسلام قاعداً ، واحفظنى بالإسلام راقداً ، ولا تطمع فىَّ عدواً ولا حاسداً ، خرجه ابن حبان فى صحيحه ، وكان النبّى ﷺ يودع من أراد سفراً فيقول : « أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك » . وقال ﷺ : « إن الله إذا استودع شيئاً حفظه » .

خرجه النسائى وغيره . وفى الجملة : فإن الله عَز وجل يحفظ المؤمن الحافظ لحدود دينه ، ويحول بينه وبين ما يفسد عليه دينه بأنواع من الحفظ ، وقد لا يشعر العبد ببعضها وقد يكون كارهاً لها كما قال فى حق يوسف عليه السلام « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين » قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **إن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾ قال : يحول بين المؤمن وبين المعصية التى تجره إلى النار . وقال الحسن : وذكر أهر المعاصى : هانوا عليه

فعصوه ولو عزوا عليه لعصهم . وقال ابن مسعود : إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى ييسر له ، فينظر الله إليه فيقول للملائكة : أصرفوه عنه فإنه إن يسرته له أدخلته النار ، فيصرفه الله عنه ، فيظل يتطير بقوله سبنى فلان وأهاننى فلان وما هو إلا فضل الله عز وجل . وخرجه الطبرانى من حديث أنس عن النبى ﷺ : « يقول الله عز وجّل : إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ، وإن بسط عليه أفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الصحة ، ولو أسقمته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من يطلب باباً من العباده فأكفه عنه لكيلا يدخله العجب ، إنى أدبر أمر عبادى بعلمى بما فى قلوبهم إنى عليم خبير » .

(٣) وقوله ﷺ : « احفظ الله تجده تجاهك » وفى رواية . أمامك » . معناه : أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه وجد الله معه فى كل أحواله حيث توجه يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويسدده ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ قال قتادة : من يتق الله يكن معه ، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التى لا تغلب والحارس الذى لا ينام والهادى الذى لا يضل ، بل كتب بعض السلف إلى أخ له : أما بعد ، فإن كان الله معك فمن تخاف ؟ وإن كان عليك فمن ترجو ؟ وهذه المعية الخاصة هى المذكورة فى قوله تعالى لموسى وهارون : ﴿ **لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى** ﴾ وقول موسى : ﴿ **كلا إن معى ربى سيهدين** ﴾ . وفى قول النبى ﷺ لأبى بكر وهما فى الغار : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ — لا تحزن إن الله معنا — » فهذه المعية الخاصة تقتضى النصر والتأييد والحفظ والإعانة ، بخلاف المعية العامة المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا** ﴾ وقوله : ﴿ **ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول** ﴾ فإن هذه المعية تقتضى علمه واطلاعه ومراقبته لأعمالهم ، فهى مقتضية لتخويف العباد منه ، والمعية الأولى تقتضى

حفظه وحياطته ونصره ، فمن حفظ الله وراعى حقوقه وجده أمامهم وتجاهه على كل حال فاستأنس به واستغنى عن خلقه .

(٤) وقوله ﷺ : « تعرف إلى الله فى الرّخاء يعرفك فى الشدة » : يعنى أن العبد إذا اتقى الله وحفظ حدوده وراعى حقوقه فى حال رخائه فقد تعرف بذلك إلى الله وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة ، فعرفه ربه فى الشدة ورعى له تعرفه إليه فى الرّخاء فنجاه من الشدائد بهذه المعرفة ، وهذه معرفة خاصة تقتضى قرب العبد من ربه ومحبته له وإجابته لدعائه . فمعرفة العبد لربه نوعان : أحدهما المعرفة العامة ، وهى معرفة الإقرار به والتصديق والإيمان وهى عامة للمؤمنين . والثانى معرفة خاصة تقتضى ميل القلب إلى الله بالكلية والانقطاع إليه والأنس به والطمأنينة بذكره والحياء منه والهيبة له ، وهذه المعرفة الخاصة هى التى يدور حولها العارفون ، كما قال بعضهم : مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها ، قيل له وما هو ؟ قال : معرفة الله عز وجل . وقال أحمد بين عاصم الأنطاكى : أحب أن لا أموت حتى أعرف مولاى ، وليس معرفته الإقرار به ، ولكن المعرفة إذا عرفته استحييت منه ، ومعرفة الله أيضا لعبده نوعان : معرفة عامة ، وهى علمه تعالى بعباده واطلاعه على ما أسروه وما أعلنوه ، كما قال : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه** ﴾ وقال : ﴿ **هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم** ﴾ . والثانى معرفة خاصة وهى تقتضى محبته لعبده وتقريبه إليه وإجابة دعائه وإنجائه من الشدائد وهى المشار إليها بقوله ﷺ فيما يحكى عن ربه : « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » . وفى رواية « ولئن دعانى لأجيبنه » .

(٥) وقوله ﷺ : « إذا سألت فأسال الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » هذا منتزع من قوله تعالى : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ فإن السؤال هو دعاؤه والرغبة إليه ، والدعاء هو العبادة كما روى عن النبى ﷺ من حديث النعمان بن

بشير ، وتلا قوله تعالى : ﴿ **وقال ربكم ادعونى استجب لكم** ﴾ خرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

فتضمن هذا الكلام أن يسأل الله عز وجل ولا يسأل غيره ، وأن يستعان بالله دون غيره . وأما السؤال فقد أمر الله بسؤاله فقال : ﴿ **وأسألوا الله من فضله** ﴾ وفى الترمذى عن ابن مسعود مرفوعاً : « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل » . وفيه أيضاً عن أبى هريرة مرفوعاً : « من لا يسأل الله يغضب عليه » . وفى حديث آخر : « يسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع » . وفى النهى عن مسألة المخلوقين أحاديث كثيرة صحيحة ، وقد بايع النبى ﷺ جماعة من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً : منهم أبو بكر الصديق وأبو ذر وثوبان ، وكان أحدهم يسقط السوط أو خطام ناقته فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه » وخرج ابن أبى الدنيا من حديث أبى عبيدة بن عبد الله ابن مسعود « أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله إن بنى فلان أغاروا علىّ فذهبوا بابنى وإبلى ، فقال له النبى ﷺ : إن آل محمد كذا وكذا أهل بيت ما لهم مد من طعام أو صاع ، فاسأل الله عز وجل ، فرجع إلى امرأته وقالت : ما قال لك ؟ فأخبرها ، فقالت : نعم ما رد عليك فما لبث أن رد الله عليه ابنه وإبله أوفر ما كانت ، فأتى النبى ﷺ فأخبره ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه . وأمر الناس بمسألة الله عز وجل والرغبة إليه ، وقرأ : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ » وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ : « أن الله عز وجل يقول : هل من داع فأستجيب له دعاءه ؟ هل من سائل فأعطيه سؤاله ؟ هل من مستغفر فاغفر له ؟ » . وخرج المحاملى وغيره من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « قال الله تعالى : من ذا الذى دعانى فلم أجبه ؟ وسألنى فلم أعطه ؟ واستغفرنى فلم أغفر له وأنا أرحم الراحمين ؟ » .

سؤال غير الله ذل لغير الله :

واعلم أن سؤال الله عز وجل دون خلقه هو المتعين ، لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار ، وفيه الاعتراف بقدرة

المسئول على رفع هذا الضر ونيل المطلوب وجلب المنافع ودرء المضار ، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده لأنه حقيقة العبادة . وكان الإمام أحمد يدعو ويقول : اللهم كما صنت وجهى عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك ولا يقدر على كشف الضر وجلب النفع سواك ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله** ﴾ وقال : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده** ﴾ والله سبحانه يحب أن يسأل ويرغب إليه فى الحوائج ويلح فى سؤاله ودعائه ويغضب على من لا يسأله ، ويستدعى من عباده سؤاله وهو قادر على إعطاء خلقه كلهم سؤلهم من غير أن ينقص من ملكه شيء ، والمخلوق بخلاف ذلك يكره أن يسأل ، ويحب أن لا يسأل لعجزه وفقره وحاجته . ولهذا قال وهب بن منبه لرجل كان يأتى الملوك : ويحك تأتى من يغلق عنك بابه ويظهر له فقره ويوارى عنك غناه وتدع من يفتح لك بابه نصف الليل ونصف النهار ويظهر لك غناه ويقول ادعنى أستجب لك ؟

الاستعانة بالله عز وجل دون غيره :

وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق ، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره ، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل ، فمن أعانه الله فهو المعان ومن خذله فهو المخذول ، وهذا تحقيق معنى قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإن المعنى لا تحول للعبد من حال إلى حال ولا قوة له على ذلك إلا بالله ، وهذه كلمة عظيمة وهى كنز من كنوز الجنة ، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله فى فعل المأمورات وترك المحظورات والصبر على المقدورات كلها فى الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة ، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل ، فمن حقق الاستعانة عليه فى ذلك كله أعانه . وفى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ قال : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز » ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولا » كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز : لا تستعن بغير الله فيكلك الله إليه .

(٦) قوله ﷺ : «**جف القلم بما هو كائن**» وفى رواية أخرى : «**رفعت الأقلام وجفت الصحف**» هو كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها والفراغ منها من أمد بعيد ، فإن الكتاب إذا فرغ من كتابته ورفعت الأقلام عنه وطال عهده فقد رفعت عنه الأقلام وجفت الأقلام التى كتب بها من مدادها وجفت الصحف التى كتب فيها بالمداد المكتوب به فيها ، وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها ، وقد دل الكتاب والسنن الصحيحة الكثيرة على مثل هذا المعنى ، قال الله تعالى : ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير** ﴾ — وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال : « إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة » .

(٧) قوله ﷺ :«**فلو أن الخلق جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشىء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه . وإن أرادوا أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه**» هذه رواية الإمام أحمد ورواية الترمذى بهذا المعنى أيضا. والمراد أنما يصيب العبد فى دنياه مما يضره أو ينفعه فكله مقدر عليه ولا يصيب العبد إلا ما كتب له من مقادير ذلك فى الكتاب السابق ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعاً . وقد دل القرآن على مثل هذا فى قوله عز وجل : ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا** ﴾ .

واعلم أن مدار جميع هذه الوصية على هذا الأصل وما ذكر قبله وبعده فهو متفرع عليه وراجع إليه ، فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد ألبته علم حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع المعطى المانع . فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل وإفراده بالطاعة وحفظ حدوده ، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار ، ولهذا ذم الله من يعبد من لا ينفع ولا يضر ولا يغنى عن عباده شيئاً ، فمن يعلم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يعطى ولا يمنع غير الله أوجب له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرع والدعاء وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعاً ، وأن يتقى سخطه ولو كان فيه سخط الخلق

جميعاً ، وإفراده بالاستعانة به والسؤال له وإخلاص الدعاء له فى حال الشدة وحال الرخاء ، خلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عند الشدائد ونسيانه فى الرخاء ودعاء من يرجون نفعه من دونه ، قال الله عز وجل : ﴿ **قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون** ﴾ .

(٨) قوله ﷺ : «**واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً**» يعنى أن ما أصاب العبد من المصائب المؤلمة المكتوبة عليه إذا صبر عليها كان له فى الصبر خير كثير وفى رواية عمر مولى عفره وغيره عن ابن عباس زيادة أخرى قبل هذا الكلام وهى : « فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً » فهاتان درجتان للمؤمن بالقضاء والقدر فى المصائب : أحدهما : أن يرضى بذلك وهى درجة عالية رفيعة جداً ، قال الله عز وجل : ﴿ **ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه** ﴾ . قال علقمة : هى المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى . وخرج الترمذى من حديث أنس عن النبى ﷺ قال : « إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط ، وكان النبى ﷺ يقول فى دعائه : « أسألك الرضا بعد القضاء » . ومما يدعو المؤمن إلى الرضا بالقضاء تحقيق إيمانه بمعنى قول النبى ﷺ : « لا يقضىَ الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر وكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر وكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن » .

وسئل بعض التابعين عن حاله فى مرضه ، فقال : أحبه إليه أحب إلىَّ ، وسئل سرى : هل يجد المحب ألم البلاء ؟ فقال : لا . وقال بعضهم :

عذابه فيك عذب وبعده فيك قرب
وأنت عندى كروحى بل أنت منها أحب
حسبى من الحب أنى لما تحب أحب

والدرجة الثانية : أن يصبر على البلاء وهذه لمن لم يستطع الرضا بالقضاء ، فالرضا فضل مندوب إليه مستحب ، والصبر واجب على المؤمن حتم ، وفى الصبر خير كثير ، فإن الله أمر به ووعد عليه جزيل الأجر . قال الله عز وجل : ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ وقال : ﴿**وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾ . قال الحسن : الرضا عزيز ولكن الصبر معول المؤمن . والفرق بين الرضا والصبر أن الصبر كف النفس وحبسها عن السخط مع وجود الألم وتمنى زوال ذلك وكف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع ، والرضا انشراح الصدر وسعته بالقضاء وترك تمنى زوال الألم وإن وجد الإحساس بألم ، لكن الرضا يخففه ما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة وإذا قوى الرضا فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية كما سبق .

(٩) وقوله ﷺ : «**واعلم أن النصر مع الصبر**» هذا موافق لقول الله عز وجل : ﴿ **قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ وقوله : ﴿ **فإن يكن منكم مائة صابرة يَغْلِبُوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ وقال عمر لأشياخ من بنى عبس : بم قاتلتم الناس ؟ قالوا : بالصبر ، لم نلق قوماً إلا صبرنا لهم كما صبروا لنا . وقال بعض السلف : كلنا يكره الموت وألم الجراح ولكن نتفاضل بالصبر . وقال ابن بطال : الشجاعة صبر ساعة ، وهذا فى جهاد العدو الظاهر وهو جهاد الكفار ، وكذلك جهاد العدو الباطن وهو جهاد النفس والهوى ، فإن جهادهما من أعظم الجهاد كما قال النبى ﷺ : « المجاهد من جاهد نفسه فى الله » . وقال عبد الله بن عمر لمن سأله عن الجهاد : ابدأ بنفسك فجاهدها وابدأ بنفسك فاغزها ، فقوله ﷺ : « إن النصر مع الصبر » يشمل النصر فى الجهادين : جهاد العدو الظاهر وجهاد العدو الباطن ، فمن صبر فيهما نصر وظفر بعدوه ، ومن لم يصبر فيهما وجزع قهر وصار أسيراً لعدوه أو قتيلا له .

(١٠) وقوله ﷺ : «**وأن الفرج مع الكرب**» وهذا يشهد له قوله عز وجل : ﴿ **وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته** ﴾ والمعنى أنه

سبحانه يعجب من قنوط عباده عند احتباس القطر عنهم وقنوطهم ويأسهم من الرحمة وقد اقترب وقت فرجه ورحمته لعباده بإنزال الغيث عليهم وتغييره لحالهم وهم لا يشعرون ، وكم قص سبحانه من قصص تفريج كربات أنبيائه عند تناهى الكرب : كإنجاء نوح ومن معه فى الفلك ، وإنجاء إبراهيم من النار وفدائه لولده الذى أمر بذبحه ، وإنجاء موسى وقومه من اليم وإغراق عدوهم ، وقصة أيوب ويونس ، وقصص محمد ﷺ مع أعدائه وإنجائه منهم ، كقصته فى الغار ويوم بدر ويوم الأحزاب وغير ذلك .

(١١) وقوله ﷺ : «**وأن مع العسر يسرا**» هو منتزع من قوله تعالى : ﴿ **سيجعل الله بعد عسر يسراً** ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ **فإن مع العسر يسراً** ﴾ وخرج البزار فى مسنده وابن أبى حاتم واللفظ له من حديث أنس عن النبى ﷺ قال : « لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه ، فأنزل الله عز وجل : « فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا » ، ومن لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب واليسر بالعسر أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى وحصل للعبد اليأس من كشفه من جهة المخلوقين وتعلق قلبه بالله وحده ، وهذا هو حقيقة التوكل على الله ، وهو من أعظم الأسباب التى تطلب بها الحوائج فإن الله يكفى من توكل عليه ، كما قال تعالى : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ قال الفضيل: « والله لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئا لأعطاك مولاك كل ما تريده وأيضا فإن المؤمن إذا استبطأ الفرج وأيس منه بعد كثرة دعائه وتضرعه ولم يظهر عليه أثر الإجابة فرجع إلى نفسه باللائمة وقال لها إنما أتيت من قبلك ولو كان فيك خير لأجبت، وهذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات، فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه واعترافه له بأنه أهل لما نزل من البلاء وأنه ليس أهلا لإجابة الدعاء فلذلك تسرع إليه حينئذ إجابة الدعاء وتفريج الكرب، فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجله ».. انتهى من كتاب جامع العلوم والحكم.

يارب عدت إلى رحابك تائبا :

• ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى فى تفسيره : قال محمد بن إسحاق لما نزلت ... والشعراء يتبعهم الغاوون » جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء ، فتلا النبى ﷺ : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » قال أنتم : « وذكروا الله كثيراً » قال أنتم : «وانتصروا من بعد ما ظلموا » قال أنتم) رواه ابن أبى حاتم ... وها أنا أقدم لك بعض أبيات من الشعر قد قرأتها – لأحد الشعراء :

بك أستجير ومن يجير سواكا ... فأجر ضعيفا يحتمى بحماكا
إنى ضعيف أستعين على قوى ... ذنبى ومعصيتى ببعض قواكا
أذنبت يارب وآذتنى ذنو ... ب مالها من غافر إلا كا
دنياى غرتنى وعفوك غرنى ... ما حيلتى فى هذه أو ذاكا
لو أن قلبى شك لم يك مؤمنا ... بكريم عفوك ما غوى وعصاكا
رباه ها أنا ذا خلصت من الهوى ... واستقبل القلب الخلى هواكا
وتركت أنسى بالحياة ولهوها ... ولقيت كل الأنس فى نجواكا
ونسيت حبى واعتزلت أحبتى ... ونسيت نفسى خوف أن أنساكا
ذقت الهوى مراً ولم أذق الهوى ... يارب حلواً قبل أن أهواكا
أنا كنت يارب أسير غشاوة ... رانت على قلبى فضل سناكا
واليوم يارب مسحت غشاوتى ... وبدأت بالقلب البصير أراكا
ياغافر الذنب العظيم وقابلاً ... للتوب إقبل تائبا ناجاكا
أترده وترد صادق توبتى ... حاشاكا ترفض تائبا حاشاكا
يارب جئتك نادما أبكى على ... ما قدمته يداى لا أتباكا
يارب عدت إلى رحابك تائبا ... مستسلما مستمسكا بعراكا
مالى وما للأغنياء وأنت يا ... رب الغنى ولا يجد غناكا
مالى وما للأقوياء وأنت يا ... ربى ورب الناس ما أقواكا
مالى وما للملوك وأنت من ... خلق الملوك وقسم الأملاكا

إنى أويت لكل مأوى فى الحياة   فما رأيت أعز من مأواكا
وتلمست نفسى السبيل إلى النجاة   فلم تجد منجى سوى منجاكا
وبحثت عن سر السعادة جاهداً   فوجدت هذا السر فى تقواكا
أدعوك ياربى لتغفر حوبتى   وتعيننـــى وتمدنى بهداكا
فاقبل دعائى واستجب لرجاوتى   ما خاب يوما من دعا ورجاك؟
قل للطبيب تخطفته يد الردى   يا شافى الأمراض من أرداكا؟
قل للمريض نجا وعوفى بعدما   عجزت فنون الطب من عافاكا؟
قل للصحيح يموت لا من علة   من بالمنايا يا صحيح دهاكا؟
قل للبصير وكان يحذر حفرة   فهوى بها من الذى أهواكا؟
بل سائل الأعمى خطا بين الز   حام بلا اصطدام من يقود خطاكا

قل للجنين يعيش معزولا بلا   راع ومرعى من ذا الذى يرعاكا؟
قل للوليد بكا وأجهش بالبكا   ء لدى الولادة ما الذى أبكاكا؟
وإذا ترى الثعبان ينــفث سمه   فاسأله من ذا بالسموم حشاكا؟
واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو   تحيــا وهــذا السم يملأ فاكا؟
واسأل بطون النحل كيــف   تقاطرت شهدا وقل للشهد من حلاكا؟
بل سائل اللبن المصفى كان   بين فرث ودم ما الذى صفاكا؟
[« أ إله مع الله »] ؟

الهدف من وراء هذا الكتاب :

أن يتقبله الله تعالى صدقة جارية ، لكل مسلم فى قلبه مثقال حبه خردل من إيمان ، سائلاً به الله عز وجل أن يزهدنا فى دار الغرور ، وأن ينجينا من دار الثبور ، وأن يدخلنا الجنة دار السرور فى مقعد صدق عند مليك مقتدر إنه « نعم المولى ونعم النصير » وفى النهاية أقول : إن الكمال لله وحده ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، وإنه لو كانت الذنوب تعمى البصر ما استطعت أن تنظر فى كلامى ، وإننى لا أطمع إلا فى رحمته سبحانه ، التى لا يملكها إلا هو ، وإنى أطلب منك

الدعاء بظهر الغيب ، خصوصاً أن يجعلنى الله وإياك وسائر المسلمين من عتقائه من النار ، وياحظ من زحزح عن النار وأدخل الجنة ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الـدنيــــا

اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا

(١) ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ :

قال الله تعالى : **﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَاءَاتِنَا فِى الدُّنْيا وَمَا لَهُ فِى ٱلأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِى ٱلأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُواْ واللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * ﴾** (البقرة : ٢٠٠ – ٢٠٢)

●●● ثم إنه أرشد عن دعائه بعد كثرة ذكره فإنه مظنة الإجابة ، وذم من لا يسأله إلا فى أمر دنياه وهو معرض عن أخراه فقال : **﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق ﴾** أى من نصيب ولاحظ ، وتضمن هذا الذم التنفير عن التشبة بمن هو كذلك ، قال ابن عباس : كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف « أى فى الحج » فيقولون : اللهم اجعله عام غيث ، وعام خصب ، وعام ولاد حسن ، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً ، فأنزل الله فيهم : **﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ﴾** ولهذا مدح من يسأله الدنيا والآخره ، فقال : **﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾** ، فجمعت هذه الدعوى كل خير فى الدنيا وصرفت كل شر ، فإن الحسنة فى الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوى من عافيه ، ودار رحبة ، وزوجة حسنة ، ورزق واسع ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ومركب هين ، وثناء جميل ، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين ولا منافاة بينها ، فإنها كلها مندرجة فى الحسنة فى الدنيا .

وأما الحسنة فى الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة ، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر فى العرصات ، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة ، وأما النجاة من النار فهو يقتضى تيسير أسبابه فى الدنيا من اجتناب المحارم والآثام ، وترك الشبهات والحرام ، وقال القاسم عبد الرحمن : من أعطى قلباً شاكراً ، ولسانا ذاكراً ، وجسداً صابراً فقد أوتى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، ووقى عذاب النار ، ولهذا وردت السنة بالترغيب فى هذا الدعاء . فقال البخارى عن أنس بن مالك : كان النبى ﷺ يقول : « **اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** » ، وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها ، وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه ، وعن أنس أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفرخ فقال له رسول الله ﷺ : « هل تدعو الله بشىء أو تسأله إياه ؟ قال : نعم ، كنت أقول اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا ، فقال رسول الله ﷺ سبحان الله لا تطيقه أو لا تستطيعه ، فهلا قلت : ﴿ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** ﴾ ، قال : فدعا الله فشفاه . انفرد بإخراجه مسلم .

(٢) تزيين الحياة الدنيا للكافرين :

قال الله تعالى : ﴿ **زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنيا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ **(البقرة : ٢١٢)**

ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين ، الذين رضوا بها واطمأنوا إليها ، وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التى أمروا بها ، مما يرضى الله عنهم ، وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها ، وأنفقوا ما حصل لهم منها فى طاعة ربهم ، وبذلوه ابتغاء وجه الله ، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والحظ الأوفر يوم معادهم ، فكانوا فوق أولئك فى محشرهم ومنشرهم ومسيرهم ومأواهم ، فاستقروا فى الدرجات فى أعلى عليين ، وخلد أولئك فى الدركات فى أسفل سافلين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ أى يرزق

من يشاء من خلقه ، ويعطيه عطاءً كثيرا جزيلاً ، بلا حصر ولا تعداد فى الدنيا والآخرة ، كما جاء فى الحديث : « **ابن آدم أنفق أُنفق عليك** » ، **وقال النبى** ﷺ : « **أنفق بلالاً ولا تخش من ذى العرش إقلالا** » ، **وقال تعالى** : ﴿ **وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه** ﴾ . وفى الصحيح : « أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفاً » ، وفى الصحيح : « يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، وما لبست فأبليت ، وما تصدقت فأمضيت ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » ، وفى مسند الإمام أحمد : عن النبى ﷺ أنه قال : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » .

(٣) الشهــوات :

قال الله تعالى : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلفِضَّـةِ وَالخَيلِ ٱلمُسَـوَّمَةِ وَٱلأَنعَامِ وَالحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ ٱلدُّنيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسنُ ٱلمَئَابِ * قُلْ أَؤُنَبِئُكُم بِخَيرٍ مِن ذَلِكُم لِلَّذِينَ ٱتَّقَواْ عِندَ رَبِّهِم جَنَّاتٌ تَجرِى مِن تَحتِهَا الأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضوَانٌ مِنَ اللهِ وَٱللهُ بَصِيرٌ بِٱلعِبَادِ *** ﴾ (ال عمران ١٤ :١٥)

يخبر تعالى عما زين للناس فى هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين ، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد ، كما ثبت فى الصحيح أنه ﷺ قال : (ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء) . فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد ، فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه ، كما وردت الأحاديث بالترغيب فى التزويج والاستكثار منه ، وأن خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء ، وقوله ﷺ : «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة ، إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها

وماله »[1] . وقوله فى الحديث الآخر : « حبب إلىَّ النساء والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل فى هذا ، وتارة يكون لتكثير النساء وتكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له ، فهذا محمود ممدوح كما ثبت فى الحديث : « تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » . وحب المال كذلك ، تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء فهذا مذموم ، وتارة يكون للنفقة فى القربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات فهذا شرعاً ، وقد اختلف المفسرون فى مقدار القنطار على أقوال ، وحاصلها ، أنه المال الجزيل كما قال الضحاك وغيره .

وحب الخيل على ثلاثة أقسام : تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا إليها غزوا عليها ، فهؤلاء يثابون . وتارة تربطوا فخرا ونواء[2] لأهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر . وتارة للتعفف واقتناء نسلها ولم ينس حق الله فى رقابها فهذه لصاحبها ستر .

وأما المسوّمة : فعن ابن عباس رضى الله عنهما المسمومة الراعية ، والمطهمة الحسان ، وقال مكحول : المسومة الغرة والتحجيل ، وقيل غير ذلك . وقوله تعالى : ﴿ **والأنعام** ﴾ يعنى الإبل والبقر والغنم ، ﴿ **والحرث** ﴾ يعنى الأرض المتخذة للغراس والزراعة : وقال الإمام أحمد عن سويد بن هبيرة عن النبى ﷺ قال : « خير مال امرىء له مهرة مأمورة ، أو سكة مأبورة » المأمورة الكثيرة النسل ، والسكة النخل المصطف ، والمأبورة الملقحة .

ثم قال تعالى : ﴿ **ذلك متاع الحياة الدنيا** ﴾ أى إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ، ﴿ **والله عنده حسن المآب** ﴾ أى حسن المرجع والثواب ،

(١) أخرجه النسائى وروى بعضه مسلم فى صحيحه .
(٢) مفاخرة ومعارضة .

قال عمر بن الخطاب: لما نزلت ﴿ زين للناس حب الشهوات ﴾ قلت : الآن يارب حين زينتها لنا ، فنزلت : ﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ﴾ أى قل يامحمد للناس أؤخبركم بخير مما زين للناس فى هذه الحياة الدنيا ، من زهرتها ونعيمها الذى هو زائل لا محالة ؟ ثم أخبر عن ذلك فقال : ﴿ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ أى تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ خالدين فيها ﴾ أى ماكثين فيها أبدا لا يبغون عنها حولا ، ﴿ وأزواج مطهرة ﴾ أى من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس وغير ذلك مما يعترى نساء الدنيا .

﴿ ورضوان من الله ﴾ أى يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبداً ، ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى التى فى براءة : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ أى أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم ، ثم قال تعالى : ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ أى يعطى كلا بحسب ما يستحقه من العطاء .

(٤) الدنيا والموت :

قالَ الله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفسٍ ذَآئِقَةُ ٱلمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّونَ أُجُورَكُم يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ فَمَن زُحزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدخِلَ ٱلجَنَّةَ فَقَد فَازَ وَمَا ٱلحَيَاةُ ٱلدُّنيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلغُرُورِ ﴾ (آل عمران : ١٨٥)

يخبر تعالى أخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت كقوله تعالى : ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ ، فهو تعالى وحده الحى الذى لا يموت ، والجن والإنس يموتون ، وكذلك الملائكة وحملة العرش وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء فيكون آخراً كما كان أولاً ، وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت ، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التى قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية ، أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها ، كثيرها وقليلها ، كبيرها

وصغيرها ، لا يظلم أحدا مثقال ذرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وإنما توفون أجوركم يوم القيامة** ﴾ .

وقوله : ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾ أى من جنب النار ونجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز ، وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرءوا إن شئتم : ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾ رواه ابن أبى حاتم وأصله فى الصحيحين .

وقوله تعالى : ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ تصغير لشأن الدنيا ، وتحقير لأمرها ، وإنها دنيئة فانية قليلة زائلة كما قال تعالى : ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى** ﴾ ، وقال : ﴿ **وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى** ﴾ ، وفى الحديث : « والله ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم ترجع إليه » . وقال قتادة . هى متاع متروكة أوشكت - والله الذى لا إله إلا هو - أن تضمحل عن أهلها ، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ولا قوة إلا بالله .

(٥) نعيم الكفار زائل :

قال الله تعالى : ﴿ **لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ** ﴾ (آل عمران : ١٩٨) .

يقول الله تعالى : لا تنظر إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور ، فعما قليل يزول هذا كله عنهم ، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة ، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجاً ، وجميع ما هم فيه ﴿ **متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد** ﴾ ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **متاع**

فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ أى قليلاً ، وقال تعالى : ﴿ أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ ؟ وهكذا لما ذكر حال الكفار فى الدنيا وذكر أن مآلهم إلى النار قال بعده : ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار ﴾ . عن عبد الله بن عمر قال : إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء ، كما أن لوالديك عليك حق . وعن أبى الدرداء أنه كان يقول : ما من مؤمن إلا والموت خير له ، وما من كافر إلا والموت خير له ، ومن لم يصدقنى فإن الله يقول : ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ ، ويقول : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴾ (أخرجه ابن جرير) .

(٦) متاع الدنيا قليل :

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ ٱلدُّنيَا قَلِيلٌ وَٱلأَخِرَةُ خَيرٌ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظلَمُونَ فَتِيلاً * أَينَمَا تَكُونُوا يُدرِككُّمُ المَوتُ وَلَو كُنتُم فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ (النساء : ٧٧ - ٨٨)

قال الله تعالى :

﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ﴾ أى آخرة المتقى خير من دنياه ﴿ ولا تظلمون فتيلاً ﴾ أى من أعمالكم ، بل توفونها أتم الجزاء ، وهذه تسلية لهم عن الدنيا وترغيب لهم فى الآخرة وتحريض لهم على الجهاد ، وقال ابن أبى حاتم عن هشام قال : قرأ الحسن ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ قال : رحم الله عبدا صحبها على حسب ذلك وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى فى منامه بعض ما يحب ، ثم انتبه . وقال ابن معين : كان أبو مطهر ينشد :

ولا خير فى الدنيا لمن لم يكن له   من الله فى دار المقـــام نصيب
فإن تعجب الدنيا رجـالاً فإنها   متاع قليل والزوال قريـــب

وقوله تعالى : ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة** ﴾ أى أنتم صائرون إلى الموت لا محالة ولا ينجو منه أحد منكم كما قال تعالى : ﴿ **كل من عليها فان** ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد** ﴾ ، المقصود أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة ، ولا ينجيه من ذلك شيء سواء جاهد أو لم يجاهد فإن له أجلا محتوما ، ومقاماً مقسوماً ، كما قال (خالد بن الوليد) حين جاء الموت على فراشه : لقد شهدت كذا وكذا موقفاً ، وما من عضو من أعضائى إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية ، وها أنا أموت على فراشى ، فلا نامت أعين الجبناء . وقوله : ﴿ **ولو كنتم فى بروج مشيدة** ﴾ أى حصينة منيعة عالية رفيعة ، أى لا يغنى حذر وتحصن الموت كما قال زهير بن أبى سلمى :

ومن هاب أسباب المنايـا ينلنـه   ولـو رام أسبـاب السماء بسُـلَم

ثم قيل : المُشَيَّدة هى المَشيدة كما قال (وقصر مشيد) وقيل : بل بينهما فرق وهو أن المشّيدة بالتشديد هى المطولة ، وبالتخفيف هى المزينة بالشيد وهو الجص .

(٧) عند الله ثواب الدنيا والآخرة :

قال الله تعالى : ﴿ **مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنيَا فَعِندَ اللهِ ثَوَابُ ٱلدُّنيَا وَٱلأَخِرَةِ وَكَانَ ٱللهُ سَمِيعًا بَصِيراً** ﴾ (النساء : ١٣٤)

بصيراً : أى يامن ليس له همة إلا الدنيا اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة ، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأقناك ، كما قال تعالى : ﴿ **فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه** ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد** ﴾ الآية . وقوله :

﴿ **فعند الله ثواب الدنيا والآخرة** ﴾ ظاهر فى حصول الخير فى الدنيا والآخرة ، أى بيده هذا وهذا ، فلا يقتصرون قاصر الهمة على السعى للدنيا فقط ، بل لتكون همته سامية إلى نيل المطالب العالية فى الدنيا والآخرة ، فإن مرجع ذلك كله إلى الذى بيده الضر والنفع ، وهو الله الذى لا إله إلا هو ، الذى قد قسم السعادة والشقاوة بين الناس فى الدنيا والآخرة ، وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذا ، وممن يستحق هذا ، ولهذا قال : ﴿ **وكان الله سميعا بصيراً** ﴾ .

(٨) الكفار رضوا بالدنيا ولم يؤمنوا بالله :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا بِٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *** ﴾ (يونس : ٧ — ٨)

يقول تعالى مخبرا عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون فى لقائه شيئا ، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها نفوسهم : ﴿ **إن الذين لا يرجون لقآءَنا ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا** ﴾ الآية ، قال الحسن : والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها ، وهم غافلون عن آيات الله الكونية ، فلا يتفكرون فيها ، والشرعية فلا يأتمرون بها بأن مأواهم يوم معادهم النار جزاء بما كانوا يكسبون فى دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام ، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر .

(٩) عقاب الكفار فى الدنيا :

قال الله تعالى : ﴿ **لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِنَ اللهِ مِن وَاقٍ** ﴾ (الرعد : ٧)

ذكر الله تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار ، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك : « لهم عذاب فى الحياة الدنيا » أى بأيدى المؤمنين قتلاً وأسراً ، ﴿ **ولعذاب الآخرة** ﴾ أى المدخر مع هذا الخزى فى الدنيا ﴿ **أشق** ﴾ أى من هذا بكثير كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين :

« إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه : فإن عذاب الدنيا له انقضاء ، وذاك دائم أبداً فى نار هى بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً . ووثاق لا يتصور كثافته وشدته ، كما قال تعالى : ﴿ **فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً** ﴾ .

(١٠) الحياة الطيبة :

قال الله تعالى : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَو أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجزِيَنَّهُم أَجرَهُم بِأَحسَنِ مَا كَانُواْ يَعمَلُونَ** ﴾ (النحل : ١٠)

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً ، وهو العمل المتابع لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، من ذكر أو أنثى من بنى آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، بأن يحييه الله حياة طيبة فى الدنيا ، وأن يجزيه بأحسن ما عمله فى الدار الآخرة ، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أى جهة كانت ، وقد روى عن ابن عباس : أنها هى السعادة وقال الحسن ومجاهد وقتادة : لا يطيب لأحد حياة إلا فى الجنة ، وقال الضحاك : هى الرزق الحلال والعبادة فى الدنيا . والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه » . وفى رواية : « قد أفلح من هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به »[١] . وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا همام عن يحيى عن قتادة عن أنس بن مالك قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً »[٢] .

---

(١) أخرجه أحمد والترمذى والنسائى .

(٢) أخرجه أحمد ومسلم فى صحيحه .

(١١) ليس كل من يطلب الدنيا تحصل له :

قال الله تعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلعَاجِلَةَ عَجَّلنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصلَـٰهَا مَذمُوماً مَّدحُوراً * وَمَن أَرَادَ الأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعيَهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ كَانَ سَعيُهُم مَّشكُورًا ﴾ (الإسراء : ١٨ - ١٩)

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعم يحصل له ، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء ، وهذه مقيدة لإطلاق ماسواها من الآيات ، فإنه قال : ﴿ عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم ﴾ أى فى الدار الآخرة ﴿ يصلاها ﴾ أى يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ، ﴿ مذموماً ﴾ أى فى حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه ، إذ اختار الفانى على الباقى ، ﴿ مدحورا ﴾ مبعدا مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً . وفى الحديث : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من عقل له »[1] ، وقوله : ﴿ ومن أراد الآخرة ﴾ .

وما فيها من النعيم والسرور ﴿ وسعى لها سعيها ﴾ أى طلب ذلك من طريقه ، وهو متابعة الرسول ﷺ : « وهو مؤمن » أى قلبه مؤمن ، أى مصدق بالثواب والجزاء ﴿ فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾ .

(١٢) المال والبنون زينة الحياة الدنيا :

قال الله تعالى : ﴿ وَٱضرِب لَهُم مَّثَلَ الحَيَاةِ ٱلدُّنيَا كَمَآءٍ أَنزَلنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱختَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلأَرضِ فَأَصبَحَ هَشِيماً تَذرُوهُ ٱلرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ مُّقتَدِرًا * ٱلمَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ ٱلدُّنيَا وَٱلبَاقِيَاتُ ٱلصَّـٰلِحَاتُ خَيرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهف : ٤٥ - ٤٦)

---

(١) أخرجه أحمد عن عائشه مرفوعاً .

يقول تعالى : ﴿ واضرب ﴾ يامحمد للناس ﴿ مثل الحياة الدنيا ﴾ فى زوالها وفنائها وانقضائها ، ﴿ كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ﴾ أى ما فيها من الحب ، فشب وحسن ، وعلاه الزهر والنور ، والنضرة ، ثم بعد هذا كله ﴿ أصبح هشيما ﴾ يابسا ﴿ تذروه الرياح ﴾ أى تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال ، ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدرا ﴾ أى هو قادر على هذه الحال وهذه الحال ، وكثيرا ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما قال تعالى فى سورة يونس : ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ﴾ الآية ، وقال فى سورة الحديد : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ﴾ الآية ، وفى الحديث الصحيح : « الدنيا خضره حلوه » وقوله : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ كقوله : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾ ، أى الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم ولهذا قال : ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ .

قال ابن عباس وسعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف : الباقيات الصالحات : الصلوات الخمس وقال ابن عباس : ﴿ الباقيات الصالحات ﴾ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان ابن عفان عن ﴿ الباقيات الصالحات ﴾ ما هى ؟ قال : هى لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » . وروى عن سعيد بن المسيب قال : الباقيات الصالحات « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله » وقال محمد بن عجلان عن عمارة قال : سألنى سعيد بن المسيب عن الباقيات الصالحات . فقلت : الصلاة والصيام ، فقال : لم تصب ، فقلت : الزكاة والحج ، فقال : لم تصب ، ولكنهن الكلمات الخمس : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله

ﷺ : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هن الباقيات الصالحات »[1] .

وفى الحديث : « أما إنه سيكون بعدي أمراء يكذبون ويظلمون فمن صدقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه ، ألا وإن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، من الباقيات الصالحات[2] ، وقال ابن عباس : قوله (والباقيات الصالحات) قال : هي ذكر الله ، قول : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله والحمد لله ، وتبارك الله . ولا حول ولا قوة إلا بالله ، واستغفر الله ، وصلى الله على رسول الله ، والصلاة والصيام والحج والصدقة والعتق والجهاد والصلة وجميع أعمال الحسنات ، وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها فى الجنة ما دامت السماوات والأرض ، وعنه : هي الكلام الطيب : وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هي الأعمال الصالحة كلها ، واختاره ابن جرير رحمه الله .

(١٣) المعيشة الضنك لمن أعرض عن طاعة الله :

قال الله تعالى : ﴿ **قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ** ﴾ (طه : ١٢٤ - ١٢٦)

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس اهبطوا منها جميعاً : أى من الجنة كلكم ﴿ **بعضكم لبعض عدو** ﴾ آدم وذريته ، وإبليس وذريته ، وقوله : ﴿ **فإما**

---

(١) أخرجه ابن جرير عن أبى هريرة .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند .

يأتينكم منى هدى ﴾ قال أبو العالية : الأنبياء والرسل والبيان ، ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** ﴾ قال ابن عباس : لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ﴿ **ومن أعرض عن ذكرى** ﴾ أى خالف أمرى وما أنزلته على رسولى، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه ، ﴿ **فإن له معيشة ضنكا** ﴾ أى ضنكا فى الدنيا فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق حرج لضلاله وإن تنعم ظاهره ، ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو فى قلق وحيرة وشك . فلا يزال فى ريبة يتردد ، فهذا من ضنك المعيشة . قال ابن عباس : ﴿ **فإن له معيشة ضنكا** ﴾ قال : الشقاء وعنه . إن قوما ضلالاً أعرضوا عن الحق ، وكانوا فى سعة من الدنيا متكبرين ، فكانت معيشتهم ضنكا ، فإذا كان العبد يكذب بالله ويسىء الظن به والثقة به اشتدت عليه معيشته فذلك الضنك ، وقال الضحاك : هو العمل السىء والرزق الخبيث ، وروى سفيان بن عيينة ، عن أبى سعيد فى قوله ﴿ **معيشة ضنكا** ﴾ قال : يضيق عليه فى قبره حتى تختلف أضلاعه فيه .

وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويفسح له فى قبرة سبعون ذراعاً . وينور له قبرة كالقمر ليلة البدر ، أتدرون فيما أنزلت هذه الآية : ﴿ **فإن له معيشة ضنكا** ﴾ ؟ أتدرون ما المعيشة الضنك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « عذاب الكافر فى قبره ، والذى نفسى بيده إنه ليسلط عليه تسع وتسعون تنيناً ، أتدرون ما التنين ؟ تسعة وتسعون حية ، لكل حية سبعة رؤوس ينفخون فى جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم يبعثون »[1] . وروى البزار ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ فى قول الله عز وجل : ﴿ **فإن له معيشة ضنكاً** ﴾ قال : « المعيشة الضنك الذى قال الله أنه يسلط عليه تسع وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة » . قوله ﴿ **ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ وقال مجاهد والسدى : لا حجة له ، وقال عكرمة : عمى عليه كل شىء إلا جهنم . ويحتمل أن يكون المراد أنه يبعث

---

(١) الحديث رواه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة مرفوعاً وفى رفعه نظر . قال ابن كثير : رفع منكر جداً .

أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً كما قال تعالى : ﴿ **ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكماً وصماً مأواهم جهنم** ﴾ الآية ، ولهذا يقول : ﴿ **رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا** ﴾ أى فى الدنيا ﴿ **قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ أى لما أعرضت عن آيات الله وتناسيتها وأعرضت عنها ، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك ، ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل ، فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه . فليس داخلا فى هذا الوعيد الخاص ، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى ، عن سعد بن عيادة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقى الله يوم يلقاه وهو أجذم »[1] .

(١٤) لا تنظر إلى هو من فوقك من العباد فى أمور الدنيا :

قال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَاةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾

(طه : ١٣١ - ١٣٢)

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم ، فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة لنختبرهم بذلك وقليل من عبادى الشكور ، وقال مجاهد : ﴿ **أزواجا منهم** ﴾ : يعنى الأغنياء : فقد آتاك خيراً مما آتاهم . ولهذا قال : ﴿ **ورزق ربك خير وأبقى** ﴾ وفى الصحيح أن عمر بن الخطاب لما دخل علي رسول الله ﷺ فى تلك المَشْرُبة التى كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن ، فرآه متوسدا مضطجعاً على رمال حصير ، وليس فى البيت إلا صُبْرة من قَرَظ[2] واهية معلقة ، فابتدرت عينا عمر بالبكاء ،

---

(١) الحديث أخرجه أحمد عن سعد بن عباده .

(٢) صبرة : مجموعة قرظ : ورق السلم وهو شجر شائك يستعمل ورقه فى دبغ الجلود .

فقال له رسول الله ﷺ : « ما يبكيك ياعمر ؟ » فقال : يارسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت صفوة الله من خلقه ! فقال له : « أو فى شك أنت ياابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا » ، فكان ﷺ أزهد الناس مع القدرة عليها إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا فى عباد الله ، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد .

عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا » ، قالوا : وما زهرة الدنيا يارسول الله ؟ قال : « بركات الأرض »[1] وقال قتادة والسدى ﴿ **زهرة الحياة** ﴾ : **يعنى زينة الحياة الدنيا : وقال قتادة** ﴿ **لنفتنهم فيه** ﴾ لنبتليهم ، وقوله : ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها** ﴾ أى استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة واصبر أنت على فعلها ، كما قال تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ **لا نسألك رزقا نحن نرزقك** ﴾ ، وقال الثورى : لا نسألك رزقاً : أى لا نكلفك الطلب . وقال ابن أبى حاتم ، عن ثابت قال : كان النبى ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله يا أهلاه صلوا ، صلوا ، قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمرا فزعوا إلى الصلاة . وقال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى ياابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك »[2] . وعن زيد بن ثابت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كانت له ، ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره ، وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة » ، وقوله : ﴿ **والعاقبة للتقوى** ﴾ أى وحسن عاقبة فى الدنيا والآخرة وهى الجنة لمن اتقى الله ... » .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة مرفوعاً .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة .

(١٥) الحياة الدنيا لهو ولعب :

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت : ٦٤)

يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها وغاية ما فيها لهو ولعب ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان ﴾ الحياة الدائمة ، الحق الذى لا زوال له ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبد الآباد ، وقوله تعالى : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أى لآثروا ما يبقى على ما يفنى .

(١٦) خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك :

قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ (الشورى : ٢٧) .

قوله تعالى : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ﴾ أى لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغى والطغيان ، من بعضهم على بعض أشراً وبطراً ، وقال قتادة : وكان يقال خير العيش مالا يلهيك ولا يطغيك ، وذكر قتاده حديث : « إنما أخاف عليكم ما يخرج الله تعالى من زهرة الحياة الدنيا » ، وقوله عز وجل : ﴿ ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾ أى ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره ، مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك ، فيغنى من يستحق الغنى ، ويفقر من يستحق الفقر ، كما جاء فى الحديث المروى[1] : « إن من عبادى مالا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه » .

---

(١) المراد بالحديث المروى أى المحكى عن الله عز وجل وهو المشهور بالحديث القدسى .

(١٧) حكمة الله تعالى فى تفاوت أرزاق الخلق :

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف : ٣١ - ٣٥)

﴿ **وقالوا** ﴾ أى كالمعترضين على الذى أنزله تعالى وتقدس ، لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أى هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير فى أعينهم ؟ ﴿ **من القريتين** ﴾ يعنون مكة والطائف[١] ، وقد ذكر غير واحد من السلف أنهم أرادوا بذلك (الوليد بن المغيرة) و (وعروة بن مسعود الثقفى) ، وعن مجاهد : يعنون (عتبة بن ربيعة) بمكة و (ابن عبد ياليل) بالطائف ، وقال السدى : عنوا بذلك (الوليد بن المغيرة) و (وكنانة بن عمرو الثقفى) ، والظاهر أن مرادهم رجال كبير من أى البلدتين كان ، قال تعالى رداً عليهم فى هذا الاعتراض : ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك** ﴾ ؟ أى ليس الأمر مردوداً إليهم ، بل إلى الله عز وجل والله أعلم حيث يجعل رسالاته ، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبا ونفسا ، وأشرفهم بيتا ، وأطهرهم أصلاً ، ثم قال عز وجل مبيناً أنه قد فاوت بين خلقه ، فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم ، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة فقال : ﴿ **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا** ﴾ وقوله جلت عظمته : ﴿ **ليتخذ بعضهم بعضا سخريا** ﴾ أى ليسخر بعضهم بعضا فى الأعمال ، لاحتياج هذا وهذا إلى هذا ،

---

(١) قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة والسدى ومحمد القرظى وابن زيد .

ثم قال عز وجل : ﴿ **ورحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾ أى رحمة الله بخلقه ، خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا ، ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة** ﴾ أى لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة ، أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه ، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال ﴿ **لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج** ﴾ أى سلالم ودرجاً من فضة ﴿ **عليها يظهرون** ﴾ أى يصعدون ﴿ **ولبيوتهم أبوابا** ﴾ أى أغلاقا على أبوابهم ﴿ **وسرراً عليهم يتكئون** ﴾ أى جميع ذلك يكون فضة ﴿ **وزخرفاً** ﴾ أى وذهباً ، قال ابن عباس والسدى ، ﴿ **وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا** ﴾ أى إنما ذلك من الدنيا الفانية ، الزائلة الحقيرة عند الله تعالى ، أى يجعل لهم بحسناتهم التى يعملونها فى الدنيا مآكل ومشارب ، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة بجزيهم بها . ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿ **والآخرة عند ربك للمتقين** ﴾ ، أى لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم ، ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ حين رآه على رمال حصير ، قد أثر بجنبه ، فابتدرت عيناه بالبكاء ، وقال : يارسول الله ! هذا كسرى وقيصر فيما هم فيه . وأنت صفوة الله من خلقه ؟ وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس وقال : « أو فى شك أنت ياابن الخطاب ؟ » ثم قال ﷺ : « أولئك قوم عجلت لهم طيبات فى حياتهم الدنيا » ، وفى رواية : « أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة » ، وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا صحافها ، فإن لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة » وإنما خولهم الله تعالى فى الدنيا لحقارتها ، قال رسول الله ﷺ : « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضه ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً »[1] .

(١٨) اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا :

قال الله تعالى : ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ** ﴾ (النجم : ٢٩ — ٣٠)

---

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجه عن سهل بن سعد وقال الترمذى : حسن صحيح .

﴿ **فأعرض عمن تولى عن ذكرنا** ﴾ أى أعرض عن الذى أعرض عن الحق واهجره ، وقوله : ﴿ **ولم يرد إلا الحياة الدنيا** ﴾ أى وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا ، فذاك هو غاية مالا خير فيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **ذلك مبلغهم من العلم** ﴾ أى طلب الدنيا والسعى لها هو غاية ما وصلوا إليه ، ...

وفى الدعاء المأثور : « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا : وقوله تعالى : ﴿ **إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى** ﴾ أى هو الخالق لجميع المخلوقات ، والعالم بمصالح عباده ، وهو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته .

(١٩) الحياة الدنيا متاع فان :

قال الله تعالى : ﴿ **ٱعلَمُوٓا أَنَّمَا الحيَاةُ الدُّنيَا لَعِبٌ وَلَهوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَينَكُم وَتَكَاثُرٌ فِي الأَموالِ وَٱلأَولادِ كَمَثَلِ غَيثٍ أعجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنيَآ إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ** ﴾ (الحديد) .

يقول تعالى موهنا أمر الحياة الدنيا ومحقراً لها : ﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد** ﴾ أى إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا ، كما قال تعالى : ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب** ﴾ ، ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا فى أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال : ﴿ **كمثل غيث** ﴾ وهو المطر الذى يأتى بعد قنوط الناس ، كما قال تعالى : ﴿ **وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **أعجب الكفار نباته** ﴾ أى يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذى نبت بالغيث وكما يعجب الزراع ذلك ، كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار ، فإنهم أحرص شىء عليها وأميل الناس إليها ، ﴿ **ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاماً** ﴾ أى يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً نضراً ، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً ، أى يصير يبساً متحطماً ، هكذا الحياة

الدنيا ، تكون أولا شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزا شوهاء ، والإنسان يكون كذلك فى أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف ، بهى المنظر ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ضعيف القوى ، كما قال تعالى : ﴿ **الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة** ﴾ ، ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة ، حذر من أمرها ورغّب فيما فيها من الخير ، فقال : ﴿ **وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان** ﴾ أى وليس فى الآخرة الآتية القريبة إلا عذاب شديد ، أو مغفرة من الله ورضوان ، وقوله تعالى : ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ أى هى متاع فان ، أى يغتر بها من يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها ، وهى حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة ، قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها ، اقرءوا : ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾[1] .

(٢٠) توسيع الله تعالى على العبد الرزق إنما هو للامتحان :

قال الله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَهَانَنِ * كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** ﴾ (الفجر ١٥ - ٢٠)

يقول تعالى منكراً على الإنسان ، إذا وسع الله تعالى عليه فى الرزق ليختبره ، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له ، وليس كذلك بل هو ابتلاء وإمتحان ، كما قال تعالى : ﴿ **أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون** ﴾ وكذلك فى الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه فى الرزق . يعتقد أن ذلك من الله إهانة له ، قال الله تعالى : ﴿ **كلا** ﴾ أى ليس الأمر كما زعم لا فى هذا ولا فى هذا ، فإن الله تعالى يعطى

---

(١) أخرجه ابن جرير وهو فى الصحيح ثابت بدون زيادة .

المال من يحب ومن لا يحب ، ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، وإنما المدار فى ذلك على طاعة الله فى كل من الحالين ، إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك ، وإذا كان فقيرا بأن يصبر ، وقوله تعالى : ﴿ **بل لا تكرمون اليتيم** ﴾ فيه أمر بالإكرام كما جاء فى الحديث : « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه»[1] . وقال ﷺ : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة » « وقرن بين أصبعيه الوسطى والتى تلى الإبهام »[2] ، ﴿ **ولا تحاضون على طعام المسكين** ﴾ يعنى لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ويحث بعضهم على بعض فى ذلك ﴿ **وتأكلون التراث** ﴾ يعنى الميراث ﴿ **أكلاً لما** ﴾ أى من أى جهة حصل لهم من حلال أو حرام ﴿ **وتحبون المال حباً جماً** ﴾ أى كثيراً فاحشاً .

(٢١) خاتمة : كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل :

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال : « كن فى الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل » وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك » رواه البخارى .

جاء فى كتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى ما مختصره :

... وهذا الحديث أصل فى قصر الأمل فى الدنيا ، فإن المؤمن لا ينبغى له أن يتخذ الدنيا وطناً ومسكناً فيطمئن فيها ، ولكن ينبغى أن يكون فيها كأنه على جناح سفر يعنى جهازه للرحيل ، وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم . قال تعالى حاكياً على مؤمن آل فرعون أنه قال – إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار – وكان النبى صلى الله وعلى آله وسلم يقول : « مالى وللدنيا إنما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب قال فى ظل شجرة ثم راح

---

(١) أخرجه عن عبد الله بن المبارك .

(٢) أخرجه أبو داود .

وتركها » . ومن وصايا المسيح عليه اسلام لأصحابه أنه قال لهم : اعبروا ولا تعمروها . وروى عنه أنه قال : من ذا الذى يبنى على موج البحر داراً تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً . ودخل رجل على أبى ذر فجعل يقلب بصره فى بيته فقال : ياأبا ذرّ أين متاعكم ؟ فقال : إن لنا بيتا نتوجه إليه ، فقال : إن لابد لك من متاع ما دمت هاهنا ، فقال إن صاحب المنزل لا يدعنا هاهنا . وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دارَ إقامة ولا وطنا فينبغى للمؤمن أن يكون حاله فيها على أحد حالين :

إما أن يكون كأنه غريب مقيم فى بلدة غربة همه التزود للرجوع إلى وطنه ، أو أن يكون كأنه مسافر غير مقيم ألبته ، بل هو ليله ونهاره يسير إلى بلد الإقامة . فلهذا وصى النبى ﷺ ابن عمر أن يكون فى الدنيا على أحد هذين الحالين : **فأحدهما أن يترك المؤمن نفسه كغريب فى الدنيا** يتخيل الإقامة لكن فى بلد غربة فهو غير متعلق القلب ببلد الغربة بل قلبه متعلق بوطنه الذى يرجع إليه ، وإنما هو مقيم فى الدنيا ليقضى مرمة جهازه الرجوع إلى وطنه . قال الفضيل بن عياض : المؤمن فى الدنيا مهموم حزين همه مرمة جهازه ، ومن كان فى الدنيا كذلك ، فلا هم له إلا التزود بما ينفعه عند العودة إلى وطنه ، فلا ينافس أهل البلد الذى هو غريب بينهم فى عزهم ، ولا يجزع من الذلّ عندهم ، قال الحسن : المؤمن كالغريب لا يجزع من ذلها ولا ينافس فى عزّها ، له شأن وللناس شأن .

الحال الثانى أن يترك المؤمن نفسه فى الدنيا كأنه مسافر غير مقيم ألبتة، وإنما هو سائر فى قطع منازل السفر حتى ينتهى به السفر إلى آخره وهو الموت . ومن كانت هذه حاله فى الدنيا فهمته تحصيل الزاد للسفر ، فليس له همة للاستكثار من طلب متاع الدنيا ، ولهذا وصى النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم جماعة من أصحابه أن يكون بلاغهم من الدنيا كزاد الراكب . قيل لمحمد بن واسع : كيف أصبحت ؟ قال : ما ظنك برجل يرتحل كل يوم مرحلة إلى الآخرة . وقال الحسن : إنما أنت أيام مجموعة كلما مضى يوم مضى بعضك . وقال : ابن آدم إنما أنت بين راحلتين مطيتين يوضعانك ، يوضعك الليل إلى النهار

والنهار إلى الليل حتى يسلمانك إلى الآخرة ، فمن أعظم منك ياابن آدم خطراً ، وقال : الموت معقود بنواصيكم ،

وقال بعض الحكماء : كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره ، وشهره يهدم سنته ، وسنته تهدم عمره . كيف يفرح من يقود عمره إلى أجله وتقوده حياته إلى موته . وقال الفضيل بن عياض لرجل : كم أتت عليك ؟ قال : ستون سنة ، قال فأنت منذ ستون سنة تسيره إلى ربك يوشك أن تبلغ ، فقال الرجل — إنا لله وإنا إليه راجعون — فقال الفضيل : أتعرف تفسيره تقول — إنا لله وإنا إليه راجعون — فمن عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع فليعلم أنه موقوف ، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسئول ، ومن علم أنه مسئول فليعدّ للسؤال جوابا . فقال الرجل : فما الحيلة ؟ قال يسيره ، قال : ما هى ؟ قال : تحسن فيما بقى يغفر له ما مضى ، فإنك إن أسأت فيما بقى أخذت بما مضى وما بقى .

وصية ابن عمر :

وأما وصية ابن عمر فهى مأخوذة من هذا الحديث الذى رواه وهى متضمنة لنهاية قصر الأمل . وأن الإنسان إذا أمسى لم ينتظر الصباح ، وإذا أصبح لم ينتظر المساء ، بل يظن أن أجله يدرك قبل ذلك ، طرق بعضهم باب أخ له فسأل عنه فقيل له : ليس هو فى البيت ، فقال : متى يرجع ؟ فقالت له جارية من البيت : من كانت نفسه فى يد غيره من يعلم متى يرجع . ولأبى العتاهية :

وما أدرى وإن أملت عمراً لعلى حين أصبح لست أمسى
ألم تر أن كل صباح يوم وعمرك فيه أقصر منه أمس

وهذا البيت أخذه ما روى عن أبى الدرداء والحسن أنهما قالا : ابن آدم إنك لم تزل فى هدم عمرك مذ أسقطت من بطن أمك ، ومما أنشد بعض السلف :

إنا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى يدنى من الأجل
فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً فإنما الربح والخسران فى العمل

قوله « **وخذ من صحتك لسقمك ومن حياتك لموتك** » يعنى اغتنم الأعمال الصالحة فى الصحة قبل أن يحول بينك وبينها السقم ، وفى الحياة قبل أن يحول بينك وبينها الموت . وفى رواية « فإنك ياعبد الله لا تدرى ما اسمك غداً » يعنى لعلك غداً من الأموات دون الأحياء . وقد روى معنى هذه الوصية عن النبى ﷺ من وجوه . ففى صحيح البخارى عن ابن عباس عن النبىّ ﷺ قال : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » . وفى صحيح الحاكم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال لرجل وهو يعظه « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » . وقال غنيم بن قيس : كنا نتواعظ فى أول الإسلام : ابن آدم اعمل فى فراغك قبل شغلك وفى شبابك لكبرك وفى صحتك لمرضك وفى دنياك لآخرتك وفى حياتك لموتك . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخاصة أحدكم وأمر العامة » . وفى الترمذى عنه عن النبى ﷺ قال : « بادروا بالأعمال سبعاً : هل تنتظرون إلا إلى فقر منس أو غنى مطغ أو مرض مفسد أو هرم مفند أو موت مجهز أو الدجال فشر غائب منتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر » والمراد من هذا أن هذه الأشياء كلها تعوق عن الأعمال فبعضها يشغل عنه . إما فى خاصة الإنسان كفقره وغناه ومرضه وهرمه وموته ، وبعضها عام كقيام الساعة وخروج الدجال ، وكذلك الفتن المزعجة كما جاء فى حديث آخر . « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم » وبعض هذه الأمور العامة لا ينفع بعدها عمل كما قال تعالى : ﴿ **يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً** ﴾ . وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً » .

وفى المسند عن عبد الرحمن بن عوف عن عبد الله بن عمر ومعاوية عن النبىّ ﷺ قال : « لا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب ، فإذا

طلعت طبع على كل قلب بما فيه وكفي الناس العمل » . وروى عن عائشة قالت : إذا خرج أول الآيات طرحت الأقلام وحبست الحفظة وشهدت الأجساد على الأعمال . خرجه ابن جرير الطبرى . وكذا قال كثير بن مرة ويزيد بن شريح وغيرهما من السلف : إذا طلعت الشمس من مغربها طبع على القلوب بما فيها وترفع الحفظة الأعمال وتؤمن الملائكة أن لا يكتبوا عملا . وقال سفيان الثورى : إذا طلعت الشمس من مغربها طوت الملائكة صحائفها ووضعت أقلامها . فالواجب على المؤمن المبادرة بالأعمال الصالحة قبل أن لا يقدر عليها ويحال بينها وبينه ، إما بمرض أو موت أم بأن يدركه بعض هذه الآيات التى لا يقبل معها عمل ، قال أبو حازم : إن بضاعة الآخرة كاسدة يوشك أن تنفق فلا يوصل منها إلى قليل ولا كثير ، ومتى حيل بين الإنسان والعمل لم يبق له إلا الحسرة والأسف عليها ويتمنى الرجوع إلى حال يتمكن فيها العمل فلا تنفعه الأمنية . قال تعالى : **﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون . أن تقول نفس ياحسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين ﴾** .

انتهى من كتاب جامع العلوم والحكم

النـــار

قال الله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾

(١) أهوال يوم القيامة :

قال الله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُم إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَت وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَملٍ حَملَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾
(الحج ١ – ٢)

يقول تعالى آمراً عباده بتقواه ، ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وأحواها ، وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة ، هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة ، أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم ، كما قال تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزاها وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ الآية ، فقال قائلون : هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة ، عن علقمة في قوله : ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ قال : قبل الساعة[1] وعن عامر الشعبى قال : هذا في الدنيا قبل يوم القيامة ، وقد أورد الإمام ابن جرير فى حديث الصور عن أبي هريرة قال : قال

---

(١) حكيه ابن جرير وابن أبى حاتم عن إبراهيم عن علقمة .

رسول الله ﷺ : « إن الله لما فرغ من خلق السماوات والأرض ، خلق الصور فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر » . قال أبو هريرة : يارسول الله وما الصور ؟ قال : « قرن » قال : فكيف هو ؟ قال : « قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات : الأولى نفخة الفزع . والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين ، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى ، فيقول : انفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السماوات وأهل الأرض إلا من شاء الله ، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر ، وهي التى يقول الله تعالى : ﴿ **وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق** ﴾ ، فتسير الجبال فتكون تراباً ، وترج الأرض بأهلها رجاً وهي التى يقول الله تعالى : ﴿ **يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، قلوب يومئذ واجفة** ﴾ ، فتكون الأرض كالسفينة الموبقة في البحر تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها ، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح ، فيمتد الناس على ظلالها ، فتذهل المراضع وتضع الحوامل ويشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضا ، وهى التى يقول الله تعالى : ﴿ **يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾ ، فبينما هم على ذلك إذ انصدعت الأرض من قطر إلى قطر ورأوا أمراً عظيماً ، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به ، ثم نظروا إلى السماء فإذا هى كالمهل ، ثم خسف شمسها وقمرها وانتثرت نجومها ثم كشطت عنهم – قال رسول الله ﷺ والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك » ، قال أبو هريرة : فمن استثنى الله حين يقول : ﴿ **ففزع من فى السماوات ومن في الأرض إلا من شاء** ﴾ قال : « أولئك الشهداء ، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء ، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون ووقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم ، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه وهو الذى يقول الله : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾[1] وهذا الحديث دل على أن الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة ، أضيفت إلى الساعة لقربها منها ، كما يقال أشراط الساعة ونحو ذلك والله أعلم .

(١) الحديث رواه الطبراني وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم .

وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال كائن يوم القيامة فى العرصات بعد القيام من القبور واختار ذلك ابن جرير واحتجوا بأحاديث : (منها) .

قال البخارى عند تفسير هذه الآية عن أبى سعيد الخدرى قال ، قال النبى ﷺ : « ويقول الله تعالى يوم القيامة : يا أدم ، فيقول : لبيك ربنا وسعديك ، فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يارب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف – أراه قال – تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد ﴿ **وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾ فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم قال النبى ﷺ : « من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ، أنتم في الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، فكبرنا ، ثم قال : ثلث أهل الجنة ، فكبرنا ، ثم قال : شطر أهل الجنة » . فكبرنا أخرجه البخارى ومسلم ...

وعن عائشة قالت : قلت : يارسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة قال : « يا عائشة أما عند ثلاث فلا ، أما عند الميزان حتى يقل أو يخف فلا ، وأما عند تطاير الكتب إما يعطى بيمينه وإما يعطى بشماله فلا ، وحين يخرج عنق من النار فيطوى عليهم ويتغيظ عليهم ويقول ذلك العنق : وكلت بثلاثة وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة ، وكلت بمن ادعى مع الله إلهاً آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عنيد – قال : فينطوى عليهم ويرميهم في غمرات جهنم ، ولجهنم جسر أرق من الشعر وأحد من السيف عليه كلاليب وحسك يأخذان من شاء الله ، والناس عليه كالبرق وكالطرف وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : يارب سلم سلم ، فناج مسلم ومخدوش مسلم : ومكور في النار على وجهه »[1] والأحاديث في أهوال يوم

(١) أخرجه الإمام أحمد عن عائشة مرفوعاً .

القيامة والآثار كثيرة جداً لها موضع آخر ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **إن زلزلة الساعة شيء عظيم** ﴾ أي أمر عظيم وخطب جليل ، والزلزال هو ما يحصل للنفوس من الرعب والفزع . كما قال تعالى : ﴿ **هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً** ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ **يوم ترونها** ﴾ هذا من باب ضمير الشأن ، ولهذا قال مفسراً له : ﴿ **تذهل كل مرضعة عما أرضعت** ﴾ أي فتشغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها ، والتي هي أشفق الناس عليه تدهش عنه في حال إرضاعها له ، ولهذا قال : ﴿ **كل مرضعة** ﴾ ولم يقل مرضع ، وقال : ﴿ **عما أرضعت** ﴾ أي عن رضيعها وفطامه ، وقوله : ﴿ **وتضع كل ذات حمل حملها** ﴾ أي قبل تمامه لشدة الهول ﴿ **وترى الناس سكارى** ﴾ أي من شدة الأمر الذى قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم ، وغابت أذهانهم فمن رآهم حسب أنهم سكارى ﴿ **وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾ .

(٢) اللسان والنيران :

قال الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ * وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ * لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ** ﴾ (ق ١٦ – ٢٢) .

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأن علمه محيط بجميع أموره ، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفسه من الخير والشر ، وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل** » وقوله عز وجل : ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ يعنى ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد وهما منفيان بالإجماع تعالى الله وتقدس ، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل : وأنا أقرب إليه من حبل الوريد ، وإنما قال :

﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ كما قال في المحتضر ﴿ **ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون** ﴾ يعنى ملائكته ، فالملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، بإقدار الله جل وعلا لهم على ذلك ، فللملك لمة من الإنسان كما أن للشيطان لمة ، ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ **إذ يتلقى المتلقيان** ﴾ يعنى الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان ﴿ **عن اليمين وعن الشمال قعيد** ﴾ أى مترصد ، ﴿ **ما يلفظ** ﴾ أى ابن آدم ﴿ **من قول** ﴾ أى ما يتكلم بكلمة ﴿ **إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ أى إلا ولها من يرقبها ، معد لذلك يكتبها ، لا يترك كلمة ولا حركة ، كما قال تعالى : ﴿ **وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون** ﴾ وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شيء من الكلام[١] ، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب[٢] على قولين : وظاهر الآية الأول لعموم قوله تبارك وتعالى : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ وقد روى الإمام أحمد عن بلال بن الحارث المزني رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه[٣] فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث ، وقال الأحنف بن قيس : صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال ، فإن أصاب العبد خطيئة قال له : أمسك ، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها ، وقال الحسن البصرى ، وتلا هذه الآية ﴿ **عن اليمين وعن الشمال قعيد** ﴾ : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك فحفظ حسناتك وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت في عنقك معك في قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقال لك : ﴿ **اقرأ**

---

(١) وهو قول الحسن وقتادة .

(٢) وهو قول ابن عباس .

(٣) رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه .

كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ ثم يقول : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك » .

وقال ابن عباس ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله : أكلت ، شربت ذهبت ، جئت ، رأيت ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله ، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقي سائره ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه ، فبلغه عن طاووس أنه قال : يكتب الملك كل شيء حتى الأنين ، فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ يقول عز وجل : وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق أي كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمترى فيه ، ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ أي هذا هو الذى كنت تفر منه قد جاءك ، فلا محيد ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص ، والصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو ، وقيل : الكافر ، وقيل غير ذلك ، روى أنه لما أن ثقل أبو بكر رضى الله عنه جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفــتى　　إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال رضى الله : ليس كذلك ، ولكن قولى : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ . وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : « سبحان الله إن للموت لسكرات » وفي قوله : ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ قولان :

(أحدهما) : أن (ما) ههنا موصولة أي الذي كنت منه تحيد بمعنى تبتعد وتفر ، قد حل ونزل بساحتك .

(والقول الثانى) : أن (ما) نافية بمعنى : ذلك ما كنت تقدر على الفراق منه ولا الحيد عنه .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد** ﴾ قد تقدم الكلام على حديث النفخ في الصور وذلك يوم القيامة ، وفي الحديث ، أن رسول الله ﷺ قال : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له » . قالوا : يارسول الله كيف تقول ؟ قال ﷺ قولوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » . فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل . ﴿ **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد** ﴾ أي ملك يسوقه إلى المحشر ، وملك يشهد عليه بأعماله ، هذا هو الظاهر من الآية الكريمة وهو اختيار ابن جرير ، لما روى عن يحيى بن رافع قال : سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه يخطب فقرأ هذه الآية ﴿ **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد** ﴾ فقال سائق يسوقها إلى الله تعالى ، وشاهد يشهد عليها بما عملت ، وكذا قال مجاهد وقتاده ، وقال أبو هريرة : السائق الملك ، والشهيد العمل ، وكذا قال الضحاك والسدي ، وقال ابن عباس : السائق من الملائكة ، والشهيد الإنسان نفسه يشهد على نفسه وبه قال الضحاك أيضاً . وقوله تعالى : ﴿ **لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** ﴾ قيل : إن المراد بذلك الكافر ، وقيل : إن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر . لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة ، والدنيا كالمنام . وهذا اختيار ابن جرير[1] والظاهر من السياق أن الخطاب مع الإنسان من حيث هو ، والمراد بقوله تعالى : ﴿ **لقد كنت في غفلة من هذا** ﴾ يعنى من هذا اليوم ، ﴿ **فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** ﴾ أي قوي ، لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة ، لكن لا ينفعهم ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ **أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا** ﴾ ، وقال عز وجل : ﴿ **ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصر وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون** ﴾ .

(٣) امتلاء جهنم أعاذنا الله منها :

قال الله تعالى : ﴿ **وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۞ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ**

---

(١) وهو منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما .

عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ (ق ٢٣ – ٣٠) .

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم ، أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول : ﴿ **ما لدى عتيد** ﴾ أي معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان ، وقال مجاهد : هذا كلام الملك السائق يقول : هذا ابن آدم الذى وكلنى به قد أحضرته ، وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد ، وله اتجاه وقوة ، فعند ذلك يحكم الله تعالى فى الخليقة بالعدل فيقول : ﴿ **ألقيا في جهنم كل كفار عنيد** ﴾ ، وقد اختلف النحاة فى قوله : ﴿ **ألقيا** ﴾ فقال بعضهم : هي لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية ، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد ، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب ، فلما أتى الشهيد عليه ، أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير ﴿ **ألقيا في جهنم كل كفار عنيد** ﴾ أى كثير الكفار والتكذيب بالحق ﴿ **عنيد** ﴾ معاند للحق معارض له بالباطل مع علمه بذلك ، ﴿ **مناع للخير** ﴾ أى لا يؤدى ما عليه من الحقوق ، لا بر ولا صلة ولا صدقة ، ﴿ **معتد** ﴾ أى فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد ، وقال قتادة : معتد في منطقه وسيره وأمره ، ﴿ **مريب** ﴾ أى شاك فى أمره ، مريب لمن نظر في أمره ، ﴿ **الذى جعل مع الله إلها آخر** ﴾ أى أشرك بالله فعبد معه غيره ، ﴿ **فألقياه في العذاب الشديد** ﴾ ، عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « يخرج عنق من النار يتكلم يقول : وكلت اليوم بثلاثة بكل جبار عنيد ، ومن جعل مع الله إلها آخر ، ومن قتل نفساً بغير نفس ، فتنطوى عليهم فتقذفهم في غمرات جهنم »[1] : ﴿ **قال قرينه** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : هو الشيطان الذي وكل به ، ﴿ **ربنا ما أطغيته** ﴾ أى يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافراً يتبرأ منه شيطانه فيقول : ﴿ **ربنا ما أطغيته** ﴾ أى ما أضللته ،

(١) أخرجه أحمد .

﴿ **ولكن كان في ضلال بعيد** ﴾ أى بل كان هو في نفسه ضالاً ، معانداً للحق ، كما أخبر سبحانه في قوله : ﴿ **وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي** ﴾ الآية . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **قال لا تختصموا لدى** ﴾ يقول الرب عز وجل للإنسى وقرينه من الجن ، وذلك أنهما يختصمان بين يدى الحق تعالى ، فيقول الإنسي : يارب هذا أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، ويقول الشيطان : ﴿ **ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد** ﴾ أي عن منهج الحق ، فيقول الرب عز وجل لهما : ﴿ **لا تختصموا لدي** ﴾ أى عندى ﴿ **وقد قدمت إليكم بالوعيد** ﴾ أى قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل ، وأنزلت الكتب وقامت عليكم الحجج والبراهين ، ﴿ **ما يبدل القول لدى** ﴾ قال مجاهد : يعنى قد قضيت ما أنا قاض ، ﴿ **وما أنا بظلام للعبيد** ﴾ أى لست أعذب أحداً بذنب أحد ، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه ، بعد قيام الحجة عليه وقوله تعالى : ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾ .

يخبر تعالى أن يقول لجهنم يوم القيامة هل امتلأت ؟ وهى تقول : هل من مزيد ؟ أى هل بقى شيء تزيدونى ؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية ، وعليه تدل الأحاديث روى البخارى عند تفسير هذه الآية ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : يلقى في النار وتقول هل من مزيد ؟ حتى يضع قدمه فيها فتقول : قط قط » . وروى الإمام أحمد عن أنس رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة قدمه فيها فينزوى بعضها إلى بعض وتقول قط قط وعزتك وكرمك ، ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشيء الله لها خلقاً آخر فيسكنهم الله تعالى في فضول الجنة »[1] (حديث آخر) : وروى البخارى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : مالي لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس

---

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم فى صحيحه بنحوه .

وسقطهم ؟ قال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادى ، وقال للنار إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع رجله فيها فتقول : قط قط فهنالك تمتلىء وينزوى بعضها إلى بعض لا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله عز وجل ينشيء لها خلقاً آخر »[1] (حديث آخر) روى مسلم فى صحيحه ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « احتجت الجنة والنار فقالت النار : فى الجبارون والمتكبرون ، وقالت الجنة : في ضعفاء الناس ومساكينهم ، فقضى بينهما ، فقال للجنة : إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار ، إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى ولكل واحدة منكما ملؤها »[2] وعن عكرمة ﴿ **وتقول هل من مزيد** ﴾ : وهل فيّ مدخل واحد ؟ قد امتلأت . وقال مجاهد : لا يزال يقذف فيها حتى تقول قد امتلأت فتقول : هل فى مزيد ؟ وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو هذا ، فعند هؤلاء أن قوله تعالى : ﴿ **هل امتلأت** ﴾ إنما هو بعد ما يضع عليها قدمه فتنزوى وتقول حينئذ : هل بقى فىّ مزيد يسع شيئاً ؟ قال العوفي عن ابن عباس : وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة والله أعلم .

[فائدة] : جاء فى كتاب التخويف من النار لابن رجب الحنبلى : روى عطية عن ابن عباس ، قال : الجنة فى السماء السابعة ، ويجعلها الله حيث يشاء يوم القيامة ، وجهنم فى الأرض السابعة ، خرجه أبو نعيم . وروى ابن أبى الدنيا بإسناده عن قتادة قال : كانوا يقولون : إن الجنة فى السماوات السبع ، وإن جهنم لفى الأرضين السبع) .

(٤) لا يقبل من أهل النار فداء :

قال الله تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِى تُـْوِيهِ * وَمَن فِى**

---

(١) أخرجه البخارى .   (٢) تفرد به الإمام مسلم .

الأَرضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ * كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ * تَدعُواْ مَنْ أَدبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوعَىٰ ﴾(المعارج ٨ – ١٨)

يقول تعالى : العذاب واقع بالكافرين ﴿ **يوم تكون السماء كالمهل** ﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد : أى كدردى الزيت ، ﴿ **وتكون الجبال كالعهن** ﴾ أى كالصوف المنفوش ، قال مجاهد وقتادة ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **وتكون الجبال كالعهن المنفوش** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **ولا يسأل حميم حميماً يبصرونهم** ﴾ أى لا يسأل القريب قريبه عن حاله ، وهو يراه في أسوأ الأحوال فتشغله نفسه عن غيره ، قال ابن عباس : يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون بينهم ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك ، يقول الله تعالى : ﴿ **لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ **واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا** ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه . كلا** ﴾ أى لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض ، وبأعز ما يجده من المال ، ولو بملء الأرض ذهباً ، أو من ولده الذي كان فى الدنيا حشاشة كبده ، يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدى من عذاب الله به ، قال مجاهد والسدى : فصيلته قبيلته وعشيرته ، وقال عكرمة ، فخذه الذى هو منهم . وقوله تعالى : ﴿ **إنها لظى** ﴾ يصف النار وشدة حرها ﴿ **نزاعة للشوى** ﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد : جلدة الرأس . وعن ابن عباس : ﴿ **نزاعة للشوى** ﴾ الجلود والهام ، وقال أبو صالح ﴿ **نزاعة للشوى** ﴾ يعنى أطراف اليدين والرجلين ، وقال الحسن البصري : تحرق كل شيء فيه ويبقى فؤاده يصيح .

وقال الضحاك : تبرى اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئا ، وقوله تعالى : ﴿ **تدعوا من أدبر وتولى وجمع فأوعى** ﴾ أى تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها ، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق ، ثم تلتقطهم

من بين أهل المحشر ، كما يلتقط الطير الحب ، وذلك أنهم كانوا ممن أدبر وتولى ، أى كذب بقلبه وترك العمل بجوارحه ﴿ **وجمع فأوعى** ﴾ أى جمع المال بعضه على بعض ، فأوعاه أى أوكاه ومنع حق الله منه ، من الواجب عليه فى النفقات ومن إخراج الزكاة ، وقد ورد في الحديث : « ولا توعي فيوعى الله عليك » ، وكان عبد الله بن عكيم لا يربط له كيسا ، يقول ، سمعت الله يقول : ﴿ **وجمع فأوعى** ﴾ ، وقال الحسن البصرى : ياابن آدم سمعت وعيد الله ثم أوعيت الدنيا ، وقال قتادة في قوله ﴿ **وجمع فأوعى** ﴾ قال : كان جموعاً قسوماً للخبيث .

(٥) القيامة كأنك تراها :

قال رسول الله ﷺ : « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ ﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾ و ﴿ **إذا السماء انفطرت** ﴾ و ﴿ **إذا السماء انشقت** ﴾ أخرجه أحمد .

قال الله تعالى :

﴿ **إِذَا الشَّمسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَت * وَإِذَا العِشَارُ عُطِّلَت * وَإِذَا الوُحُوشُ حُشِرَت * وَإِذَا البِحَارُ سُجِّرَت * وإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَت * وَإِذَا المَوءُودَةُ سُئِلَت * بِأَيِ ذَنبٍ قُتِلَت * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَت * وَإِذَا السَّمَآءُ كُشِطَت * وَإِذَا الجَحِيمُ سُعِّرَت * وَإِذَا الجَنَّةُ أُزلِفَت * عَلِمَت نَفسٌ مَّا أَحضَرَت** ﴾ (التكوير ١ — ١٤)

قال ابن عباس : ﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾ يعني أظلمت ، وقال العوفي عنه : ذهبت ، وقال مجاهد : اضمحلت وذهبت ، وقالت قتادة : ذهب ضوءها ، وقال سعيد بن جبير ض ﴿ **كورت** ﴾ غورت ، وقال زيد بن أسلم تقع في الأرض ، قال ابن جرير : الصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جمع الشيء بعضه على بعض ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض ، فمعنى قوله تعالى : ﴿ **كورت** ﴾ جمع بعضها إلى بعض : ثم لفت فرمى بها ، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها . روى عن ابن عباس أنه قال : يكور

الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة فى البحر ويبعث الله ريحاً دبوراً فتضرمها ناراً[1]، وروى البخارى ، عن أبي هريرة عن النبى ﷺ : « الشمس والقمر يكوران يوم القيامة » . وقوله تعالى : ﴿ **وإذا النجوم انكدرت** ﴾ أي انتثرت كما قال تعالى : ﴿ **وإذا الكواكب انتثرت** ﴾ . وأصل الانكدار الانصباب ، قال أبي ابن كعب : ست آيات قبل يوم القيامة ، بينا الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض ، فتحركت واضطربت واختلطت ، ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطير والوحوش ، فماجوا بعضهم فى بعض ، ﴿ **وإذ الوحوش حشرت** ﴾ قال : اختلطت ، ﴿ **وإذا العشار عطلت** ﴾ قال : أهملها أهلها ، ﴿ **وإذا البحار سجرت** ﴾ قال : قالت الجن : نحن نأتيكم بالخبر ، قال : فانطلقوا إلى البحر ، فإذا هو نار تتأجج ، قال : فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم[2] وقال ابن عباس : ﴿ **وإذا النجوم انكدرت** ﴾ أى تغيرت ، وعن يزيد بن أبى مريم مرفوعاً : « انكدرت في جهنم ، وكل من عبد من دون الله فهو فى جهنم ، إلا ما كان من عيسى وأمه ، ولو رضيا أن يعبدا لدخلاها » رواه ابن أبى حاتم .

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا الجبال سيرت** ﴾ أى زالت عن أماكنها ونسفت فتركت الأرض قاعاً صفصفاً ، وقوله : ﴿ **وإذا العشار عطلت** ﴾ عشار الإبل ، قال مجاهد : ﴿ **عطلت** ﴾ تركت وسيبت ، وقال أبي بن كعب : أهملها أهلها ، وقال الربيع بن خيثم : لم تحلب وتخلى عنها أربابها ، والمعنى فى هذا كله متقارب ، المقصود أن العشار من الإبل وهي خيارها والحوامل منها ، واحدتها عشراء قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها ، بما دهمهم من الأمر العظيم الهائل ، وهو أمر يوم القيامة ووقوع مقدماتها : وقيل : بل يكون ذلك يوم القيامة يراها أصحابها : كذلك لا سبيل لهم إليها ، وقد قيل في العشار : إنها السحاب تعطل عن المسير بين السماء والأرض لخراب الدنيا ، والراجح أنها الإبل ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم . (٢) أخرجه ابن جرير .

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾ أى جمعت كما قال تعالى : ﴿ **وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾ قال ابن عباس : يحشر كل شيء حتى الذباب ، وقال عكرمة : حشرها موتها ، وعن ابن عباس قال : حشر البهائم موتها وحشر كل شيء الموت غير الجن والإنس[1] . وعن الربيع بن خيثم ﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾ قال : أتى عليها أمر الله ، وعن أبى بن كعب أنه قال : ﴿ **والطير محشورة** ﴾ أى مجموعة ، وقوله تعالى : ﴿ **وإذا البحار سجرت** ﴾ قال ابن عباس : يرسل الله عليها الرياح الدبور فتسعرها وتصير ناراً تأجج ، وفى سنن أبى داود (لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز ، فإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً » الحديث وقال مجاهد ﴿ **سجرت** ﴾ : أوقدت ، وقال الحسن : يبست ، وقال الضحاك وقتادة : غاض ماؤها فذهب فلم يبق فيها قطرة ، وقال الضحاك أيضا : (سجرت) فجرت ، وقال السدى : فتحت وصيرت ، وقوله تعالى : ﴿ **وإذا النفوس زوجت** ﴾ أى جمع كل شكل إلى نظيره كقوله تعالى : ﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم** ﴾ أى الضرباء كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله ، روى النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب خطب الناس فقرأ : ﴿ **وإذا النفوس زوجت** ﴾ فقال : تزوجها أن تؤلف كل شيعة إلى شيعتهم ، يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح ، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار ، فذلك تزويج الأنفس[2] وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **وإذا النفوس زوجت** ﴾ قال : ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة ، وقال مجاهد : ﴿ **وإذا النفوس زوجت** ﴾ قال : الأمثال من الناس جمع بينهم ، واختاره ابن جرير ، وقال الحسن البصرى وعكرمة : زوجت الأرواح بالأبدان ، وقيل : زوج المؤمنون بالحور العين ، وزوج الكافرون بالشيطاين[3] .

---

(١) أخرجه ابن جرير . (٢) أخرجه ابن أبى حاتم .
(٣) حكاه القرطبى فى التذكرة .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت ﴾ الموءودة هي التى كانت أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات ، فيوم القيامة تسأل الموءودة على أى ذنب قتلت ليكون ذلك تهديداً قاتلها ، فإنه إذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا ؟ وقال ابن عباس : ﴿ وإذا الموءودة سئلت ﴾ أى سألت أى طالبت بدمها . وقد وردت أحاديث تتعلق بالموءودة فقال الإمام أحمد عن جذامة بنت وهب أخت عكاشة قالت : حضرت رسول الله ﷺ فى ناس وهو يقول : لقد هممت أن أنهى عن الغيلة فنظرت في الروم وفارس ، فإذا هم يغيلون أولادهم ، ولا يضر أولادهم ذلك شيئاً » ، ثم سألوه عن العزل ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ذلك الوأد الخفى وهو الموءودة سئلت »[1] وروى الإمام أحمد بن سلمة بن يزيد الجعفي قال : انطلقت أنا وأخى إلى رسول الله ﷺ فقلنا : يارسول الله إن أمنا مليكة كانت تصل الرحم وتقرى الضيف ، وتفعل ، هلكت فى الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئاً ، قال : « لا » قلنا : فإنها كانت وأدت أختاً لنا في الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئاً ؟ قال : « الوائدة والموءودة فى النار ، إلا أن يدرك الوائدة الإسلام فيعفو الله عنها »[2] . وفي الحديث : « النبى في الجنة والشهيد في الجنة ، والمولود فى الجنة والموءودة فى الجنة »[3] . وعن قرة قال : سمعت الحسن يقول : قيل ، يارسول الله من فى الجنة ؟ قال : « الموءودة فى الجنة »[4] وقال ابن عباس : أطفال المشركين في الجنة ، فمن زعم أنهم فى النار فقد كذب ، يقول الله تعالى : ﴿ وإذا الموءودة سئلت ، بأي ذنب قتلت ﴾ ، قال ابن عباس : هي المدفونة ، وقال عبد الرازق : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إنى وأدت بنات لى في الجاهلية ، قال : « أعتق عن كل واحدة منهم رقبة » ، قال : يارسول الله إنى صاحب إبل ، قال فانحر عن كل واحدة منهن بدنة »[5] وقوله تعالى : ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم وأبو داود والترمذى بنحوه .

(٢) أخرجه أحمد والنسائى .

(٣) أخرجه أحمد من حديث خنساء بنت معاوية الصريمية عن عمها قال ، قلت : يارسول الله من فى الجنة ؟ فقال الحديث .

(٤) هذا من مراسيل الحسن ومنهم من قبله .

(٥) أخرجه عبد الرازق والحافظ البزار بنحوه عن عمر بن الخطاب .

قال الضحاك : أعطى كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله ، وقال قتادة : ياابن آدم تملي فيها ثم تطوى ، ثم تنشر عليك يوم القيامة ، فلينظر رجل ماذا يملي في صحيفته ، قوله تعالى : ﴿ **وإذا السماء كشطت** ﴾ قال مجاهد : اجتذبت وقال السدى: كشفت وقال الضحاك: تنكشط فتذهب، وقوله تعالى : ﴿ **وإذا الجحيم سعرت** ﴾ قال السدي : أحميت ، وقال قتادة : أوقدت ، قال : وإنما يسعرها غضب الله وخطايا بنى آدم ، وقوله تعالى : ﴿ **وإذا الجنة أزلفت** ﴾ قال الضحاك : أي قربت إلى أهلها ، وقوله تعالى : ﴿ **علمت نفس ما أحضرت** ﴾ هذا هو الجواب أى إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت ، وأحضر ذلك لها كما قال تعالى : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً وبعيداً** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر** ﴾ ، عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما نزلت : ﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾ قال عمر : لما بلغ ﴿ **علمت نفس ما أحضرت** ﴾ قال : لهذا أجرى الحديث .

(٦) من نوقش الحساب يوم القيامة عذب :

قال الله تعالى :

﴿ **إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ ۞ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۞ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ۞ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۞ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۞ يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدحاً فَمُلَاقِيهِ ۞ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيراً ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۞ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهرِهِ ۞ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً ۞ وَيَصلَىٰ سَعِيراً ۞ إِنَّهُ كَانَ فِيٓ أَهلِهِ مَسْرُورًا ۞ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۞ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً** ﴾ (الانشقاق ١ — ١٥)

ويقول تعالى : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وذلك يوم القيامة ، ﴿ **وأذنت لربها** ﴾ أي استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق ، وذلك يوم القيامة ﴿ **وحقت** ﴾ أي وحق أن تطيع أمره ، لأنه العظيم الذى لا يمانع ولا يغالب ، بل قد قهر كل شيء ، ثم قال : ﴿ **وإذا الأرض مدت** ﴾ أى

بسطت وفرشت ووسعت ، وفي الحديث : « إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مد الأديم ، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه »[1] . وقوله تعالى : ﴿ **وألقت ما فيها وتخلت** ﴾ أي القت ما في بطنها من الأموال وتخلت عنهم ، ﴿ **وأذنت لربها وحقت** ﴾ كما تقدم ، وقوله : ﴿ **ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا** ﴾ أي إنك ساع إلى ربك سعيا وعامل عملا ﴿ **فملاقيه** ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر ، عن جابر قال ، قال رسول الله ﷺ : « قال جبريل : يامحمد عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه[2] ، ومن الناس من يعيد الضمير على قوله ﴿ **ربك** ﴾ أي فملاق ربك ومعناه فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك ، قال ابن عباس : تعمل عملاً تلقى الله به خيراً كان أو شراً ، وقال قتادة : ﴿ **ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كادحاً** ﴾ إن كدحك ياابن آدم لضعيف ، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل ولا قوة إلا بالله ، ثم قال تعالى : ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً** ﴾ أي سهلاً بلا تعسير أي لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله ، فإن من حوسب كذلك هلك لا محالة ، روى الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت ، قال رسول الله ﷺ : « من نوقش الحساب عذب » ، قالت : فقلت : أفليس قال الله تعالى : ﴿ **فسوف يحاسب حساباً يسيراً** ﴾ ، قال : ﴿ **ليس ذاك بالحساب ولكن ذلك العرض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب** »[1] ، **وروى ابن جرير ، عن عائشة رضى الله عنها قالت ، قال رسول الله** ﷺ : « **إنه ليس أحد يحاسيب يوم القيامة إلا معذباً** » فقلت : أليس الله يقول : ﴿ **فسوف يحاسب حساباً يسيراً** ﴾ ؟ قال : « ذاك العرض ، إنه من نوقش الحساب عذب » ، وقال بيده على إصبعه كأنه ينكت[2] ، وفي رواية عن عائشة قالت : « من نوقش الحساب أو من حوسب – عذب ، ثم قالت : إنما الحساب اليسير عرض على الله

---

(١) أخرجه ابن جرير . (٢) أخرجه أبو داود الطيالسي .

(١) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

(٢) أخرجه الشيخان وابن جرير .

تعالى وهو يراهم »[1] وقوله تعالى : ﴿ وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾ أي ويرجع إلى أهله فى الجنة ﴿ مسروراً ﴾ أى فرحاً مغتطباً بما أعطاه الله عز وجل . وقد روى الطبرانى عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه قال : إنكم تعملون أعمالاً لا تعرف ، ويوشك الغائب أن يثوب إلى أهله فمسرور أو مكظوم[2] . وقوله تعالى : ﴿ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ أي بشماله من وراء ظهره تثنى يده إلى ورائه ، ويعطى كتابه بها كذلك ﴿ فسوف يدعو ثبوراً ﴾ أى خساراً وهلاكاً ﴿ ويصلى سعيراً إنه كان في أهله مسروراً ﴾ .

أى فرحاً لا يفكر في العواقب ، ولا يخاف مما أمامه فأعقبه .

ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل ، ﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ أي كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ، ولا يعيده بعد موته ، قال ابن عباس وقتاده وغيرهما ، والحور هو الرجوع ، قال الله : ﴿ بلى إن ربه كان به بصيراً ﴾ يعني بلى سعيده الله كما بدأه ويجازيه على أعماله خيرها وشرها فإنه ﴿ كان به بصيراً ﴾ أي عليماً خبيراً ﴾ .

(٧) زلزلة الأرض يوم القيامة :

قال الله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة ١ – ٨)

قال ابن عباس ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ : أي تحركت من أسفلها ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ يعني ألقت ما فيها من الموتى ، كقوله تعالى : ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ وكقوله : ﴿ وألقت ما فيها وتخلت ﴾ وفى الحديث : « تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت ، ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي

---

(١) رواه ابن جرير . (٢) أخرجه الطبرانى .

ويجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً »[1] ، وقوله عز وجل : ﴿ **وقال الإنسان مالها** ﴾ أي استنكرها أمرها بعدما كانت قارة ساكنة ثابتة ، وهو مستقر على ظهرها أى تقلبت الحال ، فصارت متحركة مضطربة ، قد جاءها من أمر الله تعالى ما قد أعده لها ، من الزلزال الذى لا محيد لها عنه ، ثم ألقت ما فى بطنها من الأموال من الأولّين والآخرين ، وحينئذ استنكر الناس أمرها ، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، وبرزوا الله الواحد القهار ، وقوله تعالى : ﴿ **يومئذ تحدث أخبارها** ﴾ أي تحدث بما عمل العاملون على ظهرها ، عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **يومئذ تحدث أخبارها** ﴾ قال : « أتدرون ما أخبارها ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، أن تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا ، فهذه أخبارها »[2] وفي معجم الطبرانى : « تحفظوا من الأرض فإنها أمكـم ، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة »[3] وقوله تعالى : ﴿ **بأن ربك أوحى لها** ﴾ قال البخارى : أوحى لها ، وأوحى إليها ، ووحى لها ، ووحى إليها ، وكذا قال ابن عباس : ﴿ **أوحى لها** ﴾ أي أوحى إليها والظاهر أن هذا مضمن بمعنى أذن لها ، وقال ابن عباس : ﴿ **يومئذ تحدث أخبارها** ﴾ قال ، قال لها ربها قولى ، فقالت ، وقال مجاهد ﴿ **أوحى لها** ﴾ أى أمرها ، وقال القرظى : أمرها أن تنشق عنهم . وقوله تعالى : ﴿ **يومئذ يصدر الناس أشتاتاً** ﴾ أى يرجعون عن موقف الحساب ﴿ **أشتاتاً** ﴾ أي أنواعاً وأصنافاً ما بين شقي وسعيد ، مأمور به إلى الجنة ومأمور به إلى النار ، قال ابن جرير : يتصدعون أشتاتاً فلا يجتمعون آخر ما عليهم ، وقال السدى ﴿ **أشتاتاً** ﴾ فرقا .

وقوله تعالى : ﴿ **ليروا أعمالهم** ﴾ أي ليجاوزا بما عملوه فى الدنيا من خير وشر ، ولهذا قال : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة**

---

(١) أخرجه مسلم عن أبى هريرة مرفوعاً .

(٢) أخرجه أحمد والترمذى والنسائى .

(٣) أخرجه الحافظ الطبرانى .

شراً يره ﴾ روى البخارى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر وعلى رجل وزر » الحديث . فسئل رسول الله ﷺ عن الخمر ؟ فقال : « ما أنزل الله فيها شيئا إلا هذه الآية الفاذة الجامعة : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾[1] وروى الإمام أحمد عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق ، أنه أتى النبى ﷺ فقرأ عليه : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ قال : حسبى أن لا أسمع غيرها[2] ، وفي صحيح البخاري عن عدي مرفوعاً : «اتقوا النار ولو بشق تمرة ولو بكلمة طيبة » ، وله أيضاً في الصحيح : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقى ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط »[3] وفى الصحيح أيضا : « يا معشر نساء المؤمنات لا تحقرّن جارة لجارتها ولو فرسن شاة »[4] يعنى ظلفها ، وفي الحديث الآخر : « ردوا السائل ولو بظلف محرق » . وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « يا عائشة استترى من النار ولو بشق تمرة تسد من الجائع مسدها من الشبعان »[5] وروي عن عائشة أنها تصدقت بعنبة وقالت : كم فيها من مثقال ذرة ، وروى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : لما نزلت ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ وأبو بكر الصديق رضى الله عنه قاعد ، فبكى حين أنزلت فقال له رسول الله ﷺ : « ما يبكيك يا أبا بكر » ؟ قال : يبكينى هذه السورة . فقال له رسول الله ﷺ : « لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر الله لكم لخلق الله أمة يخطئون فيغفر لهم »[6] .

وروى ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قول الله تعالى : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ وذلك لما نزلت هذه الآية : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً** ﴾ كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه فيجيء المسكين إلى أبوابهم ،

---

(١) أخرجه الشيخان واللفظ للبخارى .
(٢) أخرجه أحمد والنسائى .
(٣) أخرجه البخارى .
(٤) أخرجه البخارى أيضا .
(٥) أخرجه أحمد .
(٦) أخرجه ابن جرير .

فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك فيردونه ويقولون : ما هذا بشيء إنما نؤجر على ما نعطى ونحن نحبه ، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير : الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك ، يقولون : إنما وعد الله النار على الكبائر ، فرغبهم فى القليل من الخير أن يعملوه فإنه يوشك أن يكثر ، وحذرهم اليسير من الشر ، فإنه يوشك أن يكثر فنزلت ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة** ﴾[1] يعني وزن أصغر النمل ﴿ **خيراً يره** ﴾ يعنى فى كتابة ويسره ذلك قال : يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة وبكل حسنة عشر حسنات ، فإذا كانت يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضاً بكل واحدة عشراً ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة دخل الجنة . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله قال : « إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » وإن رسول الله ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود ، حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً ، وأنضجوا ما قذفوا فيها » أخرجه الإمام أحمد .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم .

النار وما يقرب إليها من قول أو عمل
« اللهم أجرنا من النار ومن عذاب النار »

(٨) فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة :

قال الله تعالى : ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفعَلُواْ وَلَن تَفعَلُواْ فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلحِجَارَةُ أُعِدَّت لِلكَافِرِينَ** ﴾ (البقرة : ٢٤) .

وقوله تعالى : ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ أما الوقود ما يلقى في النار لإضرامها كالحطب ونحوه كما قال تعالى : ﴿ **وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون** ﴾ والمراد بالحجارة ههنا هي حجارة الكبريت ، العظيمة السوداء الصلبة المنتنة ، وهي أشد الأحجار حراً إذا حميت أجارنا الله منها ، وقال السدى في تفسيره عن ابن مسعود ﴿ **اتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة** ﴾ : أما الحجارة فهي حجارة في النار من كبريت أسود يعذبون به مع النار[١] . وقال مجاهد حجارة من كبريت أنتن من الجيفة وقيل المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التى كانت تعبد من دون الله كما قال تعالى : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم** ﴾[٢] الآية .

وإنما سيق هذا فى حر هذه النار التي وعدوا بها وشدة ضرامها وقوة لهبها كما قال تعالى : ﴿ **كلما خبت زنادهم سعيراً** ﴾ وهكذا رجح القرطبي أن المراد بها الحجارة التي تسعر بها النار تحمر ويشتد لهبها ، قال : ليكون ذلك أشد عذاباً لأهلها .

---

(١) أخرجه ابن جرير .

(٢) حكاه القرطبى والرازى ورجحه على الأول وقال ابن كثير ج. وهذا الذى قاله ليس بقوى .

وقوله تعالى : ﴿ أعدت للكافرين ﴾ الأظهر أن الضمير عائد إلى النار ويحتمل عوده إلى الحجارة كما قال ابن مسعود ، ولا منافاة بين القولين في المعنى لأنهما ملازمان ، و ﴿ أعدت ﴾ أي أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله ، وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى ﴿ أعدت ﴾ أي أرصدت وهيئت وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها : « تحاجت الجنة النار » ، ومنها : « استاذنت النار ربها فقالت رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين : نفس في الشتاء ونفس فى الصيف » ، وحديث ابن مسعود : سمعنا وجبة فقلنا ما هذه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هذا حجر ألقى به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها » وهو مسند عند مسلم ، وحديث صلاة الكسوف وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى وقد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا ، ووافقهم القاضي منذر بن سعيد البلوطى قاضى الأندلس .

(٩) عقاب كتمان ما أنزل الله :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ مَايَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِم إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُوْلَـٰٓئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَـٰلَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُم عَلَى النَّارِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ** ﴾

(البقرة : ١٧٤ - ١٧٦) .

يقول تعالى : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب** ﴾ يعنى اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ ، فى كتبهم التى بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة ، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم ، وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم فخشوا - لعـ الله - إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك وهو

نزر يسير فباعوا أنفسهم بذلك ، واعتاضوا عن الهدي بذلك النزر اليسير فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فإن الله أظهر لعباده صدق رسوله ، بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه ، وصاروا عونا له على قتالهم ، وباءوا بغضب على غضب وذمهم الله فى كتابه في غير موضع ، فمن ذلك هذه الآية الكريمة : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلا** ﴾ وهو عرض الحياة الدنيا ﴿ **أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار** ﴾ أى إنما يأكلون ما يأكلون في مقابلة كتمان الحق ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً** ﴾ وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الذين يأكل أو يشرب في أنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم » .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم** ﴾ ، وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم ، لأنهم كتموا وقد علموا فاستحقوا الغضب ، فلا ينظر إليهم ﴿ **ولا يزكيهم** ﴾ أى يثني عليهم ويمدحهم بل يعذبهم عذاباً أليماً . عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر »[1] ثم قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى** ﴾ ، أي اعتاضوا عن الهدى – وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه – استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه الضلالة ، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم ﴿ **والعذاب بالمغفرة** ﴾ اي اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة .

وقوله تعالى : ﴿ **فما أصبرهم على النار** ﴾ يخبر تعالى أنهم في عذاب شديد عظيم هائل ، يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك من شدة ما هم فيه

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن مردوية .

من العذاب والنكال والأغلال عياذاً بالله من ذلك وقيل : معنى قوله : ﴿ **فما أصبرهم على النار** ﴾ أى فما أدومهم لعمل المعاصى التي تفضى بهم إلى النار . وقوله تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق** ﴾ أي إنما استحقوا هذا العذاب الشديد ، لأن الله تعالى أنزل عن رسوله محمد ﷺ ، وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل ، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوا ، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه ، وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وهم يكذبونه ويخالفونه ، ويجحدونه ويكتمون صفته ، فاستهزأوا بآيات الله المنزلة على رسله ، فلهذا استحقوا العذاب والنكال ، ولهذا قال : ﴿ **ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفى شقاق بعيد** ﴾ .

(١٠) آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا يخنق :

قال الله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ - إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ (البقرة : ٢٧٥)

لما ذكر تعالى : الأبرار المؤدين النفقات ؛ المخرجين الزكوات ؛ المتفضلين بالبر والصدقات لذوي الحاجات والقرابات ، وفى جميع الأحوال والأوقات ، شرع في ذكر أكله الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات ، وأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعضهم ونشورهم ، فقال : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ ، أى لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يوم يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له ، وذلك أنه يقوم قياما منكرا . وقال ابن عباس : آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا يخنق ، وحكى عن عبد الله بن عباس وعكرمة والحسن وقتاده أنهم قالوا فى قوله تعالى : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ يعني لا يقومون يوم القيامة ، وقال ابن جرير عن

ابن عباس قال : يقال يوم القيامة لآكل الربا خذ سلاحك للحرب ، وقرأ : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ وذلك حين يقوم من قبره . وقال الرسول ﷺ : « أتيت ليلة أسرى بى على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات تجرى من خارج بطونهم ، فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : أكلة الربا »[1] . وعن سمرة بن جندب فى حديث المنام الطويل : (فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم - وإذا فى النهر رجل يسبح ، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السابح يسبح ثم يأتى ذلك الذى قد جمع الحجارة عنده فيغفر له فاه فيلقمه حجرا - وذكر في تفسيره - أنه آكل الربا[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾ ؛ أى إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله فى شرعه . وليس هذا قياسا منهم الربا على البيع ، لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذى شرعه الله في القرآن ، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا : إنما الربا مثل البيع ، وإنما قالوا : ﴿ **إنما البيع مثل الربا** ﴾ أى هو نظيره ، فلم حرم هذا وأبيح هذا ؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع ، أى هذا مثل هذا ، وقد أحل هذا وحرم هذا ، وقوله تعالى : ﴿ **وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام ردا عليهم ، أى ما قالوه من الاعتراض مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكما ، وهو العليم الحكيم الذى لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحهم وما ينفع عباده فيبيحه لهم ، وما يضرهم فينهاهم عنه ، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل . ولهذا قال : ﴿ **فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله** ﴾ أى من بلغه نهى الله عن الربا فانتهى حال وصوله الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة ، لقوله : ﴿ **عفا الله عما سلف** ﴾ . وكما قال النبى ﷺ يوم فتح مكة : « وكل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين وأول ربا أضع ربا العباس » ، ولم يأمرهم برد

---

(١) رواه ابن أبى حاتم وأحمد .　　(٢) رواه البخارى .

الزيادة المأخوذة فى حال الجاهلية بل عفا عما سلف كما قال تعالى : ﴿ **فله ما سلف وأمره إلى الله** ﴾ قال سعيد بن جبير والسدى : (فله ما سلف) ما كان أكل من الربا قبل التحريم ، وقال ابن أبى حاتم عن أم يونس العالية بنت أبقع ، أن عائشة زوج النبى ﷺ قال لها (أم بحنة) أم ولد زيد بن أرقم ، يا أم المؤمنين أتعرفين زيد بن أرقم ؟ قالت : نعم ، قالت : فإنى بعته عبداً إلى العطاء بثمانمائة ، فاحتاج فاشتريته قبل محل الأجل بستمائة ، فقالت : بئس ما شريت ، وبئس ما اشتريت أبلغى زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ ، قد بطل إن لم يتب . قالت ، قلت : أرأيت إن تركت المائتين وأخذت الستمائة ؟ قالت : نعم ﴿ **فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف** ﴾ ، وهذا الأثر مشهور . وهو دليل لمن حرم (مسألة العينة)[1] مع ما جاء فيها من الأحاديث المذكورة المقررة فى كتاب الأحكام ولله الحمد والمنة .

ثم قال تعالى : ﴿ **ومن عاد** ﴾ أى إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهى الله عنه استوجب العقوبة وقامت عليه الحجة ، ولهذا قال : ﴿ **فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ : وقد قال أبو داود ، عن جابر قال : لما نزلت : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذين يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « ومن لم يذر المخابرة فليؤذن بحرب من الله ورسوله » ، وإنما حرمت (المخابرة) وهى المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض ، و(المزابنة) وهي اشتراه الرطب فى رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض ، و (المحاقلة) وهى اشتراء الحب فى سنبله في الحقل بالحب على وجه الأرض ، إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسما لمادة الربا ، لأنه لا يعلم التساوي بين الشيئين قبل الجفاف ، ولهذا قال الفقهاء : الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة ، ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضييق المسالك المفضية إلى الربا والوسائل الموصلة إليه ، وتفاوت نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم ، وقد قال تعالى : ﴿ **وفوق كل ذى علم عليم** ﴾ .

---

(١) العينة : أن يبيعه شيئاً إلى أجل ، ثم يشتريه منه نقدا بأقل مما باعه ، وفى هذا شبهة التحايل على أكل الربا نسأله تعالى السلامة .

وباب الربا من أشكال الأبواب على كثير من أهل العلم ، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد إلينا فيهن عهدا ننتهى إليه : الجد ، والكلالة ، وأبواب من أبواب الربا » يعني بذلك بعض المسائل التى فيها شائبة الربا ، والشريعة شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة إليه مثله ، لأن ما أفضى إلى الحرام حرام ، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وقد ثبت فى الصحيحين عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه . ومن وقع في الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه » وفى السنن عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . وفي الحديث الآخر : « الإثم ما حاك في القلب ، وترددت فيه النفس ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » : وفى رواية : « استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك » وقال ابن عباس : « آخر ما نزل على رسول الله ﷺ آية الربا . عن أبى سعيد الخدرى قال : حدثنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : « إنى لعلي أنهاكم عن أشياء تصلح لكم ، وآمركم بأشياء لا تصلح لكم ، وإن من آخر القرآن نزولا آية الربا . وإنه قد مات رسول الله ﷺ ولم يبينه لنا ، فدعوا ما يريبكم إلا ما لا يريبكم »[1] . وعن النبى ﷺ قال : « الربا ثلاثة وسبعون بابا » . وعن أبى هريرة : قال رسول الله ﷺ : الربا سبعون جزءاً أيسرها أن ينكح الرجل أمه »[2] ، وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « يأتى على الناس زمان يأكلون فيه الربا » ، قال ، قيل له : الناس كلهم ؟ قال : « من لم يأكله منهم ناله من غباره » .

ومن هذا القبيل : تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات الحديث الذى روى عن عائشة ، قالت : (لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة فى الربا قرأها رسول الله ﷺ على الناس ثم حرم التجارة فى الخمر) قال بعض من تكلم على هذا

---

(١) رواه ابن ماجة وابن مردوية .

(٢) رواه ابن ماجة والحاكم عن ابن مسعود ، وزاد الحاكم :و وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم .

الحديث من الأئمة : لما حرم الربا ووسائله حرم الخمر وما يفضي إليه من تجارة ونحو ذلك ، كما قال عليه السلام فى الحديث المتفق عليه « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها وأكلوا أثمانها » . وقوله ﷺ : « لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه » ، وقالوا : وما يُشْهد عليه ويُكْتب ، إلا إذا أظهر في صورة عقد شرعى ويكون داخله فاسداً ، فالاعتبار بمعناه لا بصورته ، لأن الأعمال بالنيات ، وفى الصحيح : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وقد صنف الإمام العلامة أبو العباس (ابن تيمية) كتابا فى إبطال التحليل ، تضمن النهى عن تعاطى الوسائل المفضية إلى كل باطل ، وقد كفى في ذلك وشفى ، فرحمه الله ورضى عنه .

(١١) لا ينفع الكافرين مال ولا بنون :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَادُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ** ﴾ (آل عمران : ١٠)

يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار : ﴿ **يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾ ، وليس ما أوتوه فى الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله ، ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه ، كما قال تعالى : ﴿ **ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد** ﴾ ، وقال ههنا : ﴿ **إن الذين كفروا** ﴾ أى بآيات الله ، وكذبوا رسله ، وخالفوا كتابه ، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه : ﴿ **لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار** ﴾ أى حطبها الذى تسجر به وتوقد به كقوله : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم** ﴾ الآية . وعن أم الفضل : أن رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة ، فقال : « هل بلغت : ؟ يقولها ثلاثاً ، فقام عمر بن الخطاب – وكان أوَّاهاً – فقال : اللهم نعم ، وحرصت وجهدت ، ونصحت فاصبر ، فقال النبى ﷺ : « ليظهرن الإيمان حتى يردن الكفر إلى موطنه ،

وليخوضن رجال البحار بالإسلام ، وليأتين على الناس زمان يقرءون القرآن يقرؤونه ويعلمونه ، فيقولون قد قرأنا وقد علمنا فمن هذا الذى هو خير منا ؟ فما من أولئك من خير » . قالوا : يارسول الله فمن أولئك ؟ قال : « أولئك هم وقود النار » رواه ابن أبى حاتم وابن مردوية .

(١٢) لافداء يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُم كُفَّارٌ فَلَن يُقبَلَ مِن أَحَدِهِم مِلءُ الأَرضِ ذَهَبًا وَلَوِ افتَدَىٰ بِهِ أُولَـٰئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِن نَاصِرِينَ** ﴾ (آل عمران : ٩١)

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به** ﴾ ، أى من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً ، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قربة ، كما سئل النبى ﷺ عن عبد الله بن جدعان - وكان يقرى الضيف ويفك العانى ويطعم الطعام - هل ينفعه ذلك ؟ فقال : « لا ! إنه لم يقل يوما من الدهر : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » ، وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضاً ذهباً ما قبل منه كما قال تعالى : ﴿ **ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة** ﴾ ، وقال : ﴿ **لا بيع فيه ولا خلال** ﴾ ، وقال : ﴿ **إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم** ﴾ ، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً ، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها . عن أنس بن مالك ، أن النبى ﷺ قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتدياً به ؟ قال ، فيقول نعم ، فيقول الله : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك فى ظهر أبيك آدم لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك »[١] .

(طريق آخر) : وقال الإمام أحمد ، عن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول له : ياابن آدم كيف وجدت

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

منزلك ؟ فيقول : أى رب خير منزل ، فيقول : سل وتمن ، فيقول : ما أسأل ولا أتمنى ألا أنت تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرار ، لما يرى من فضل الشهادة ، ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له : ياابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : يارب شر منزل ، فيقول له : أتفتدى منى بطلاع الأرض ذهباً ؟ فيقول : أى رب نعم ، فيقول : كذبت قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل فيرد إلى النار » رواه أحمد ، ولهذا قال : ﴿ **أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين** ﴾ أى ومالهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه .

[**فائدة**] :

ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « اشتكت النار إلى ربها فقالت : يارب أكل بعضى بعضاً فأذن لها بنفسين نفس الشتاء . ونفس فى الصيف ، فأشد ما تجدون فى الشتاء من بردها ، وأشد ما تجدون فى الصيف من حرها » .]

(١٣) البخل والنـار :

قال الله تعالى : ﴿ **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُم سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ (آل عمران : ١٨٠)

وقوله تعالى : ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم** ﴾ أى لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه بل هو مضرة عليه فى دينه ، وربما كان فى دنياه . ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة فقال : ﴿ **سيطوقون ما بخل به يوم القيامة** ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له شجاعاً[1] أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، يأخذ بلهزمتيه - يعنى بشدقيه - ثم يقول أنا مالك ، أنا كنزك » ، ثم تلا هذه الآية :

---

(١) شُجاعا وشجاعا : نوع من الحيات .

﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم** ﴾[1] إلى آخر الآية .

(حديث آخر) عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « إن الذى لا يؤدى زكاة ماله يمثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له ذبيبتان ثم يلزمه يطوقه يقول : أنا مالك أنا كنزك » رواه أحمد والنسائى

(حديث آخر) عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال : « ما من عبد لا يؤدى زكاة ماله إلا جعل له شجاعاً أقرع يتبعه يفر منه فيتبعه فيقول : أنا كنزك » ، ثم قرأ عبد الله مصداقه من كتاب الله ﴿ **سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة** ﴾[2]

وقال العوفى ، عن ابن عباس : نزلت فى أهل الكتاب الذين بخلوا بما فى أيديهم من الكتب المنزلة أن يبينوها ، رواه ابن جرير ، والصحيح الأول وإن دخل هذا فى معناه ، وقد يقال : إن هذا أولى بالدخول والله سبحانه وتعالى أعلم . وقوله تعالى : ﴿ **ولله ميراث السماوات والأرض** ﴾ أى ﴿ **فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾ ، فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله عزّ وجلّ ، فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم ﴿ **والله بما تعلمون خبير** ﴾ أى بنياتكم وضمائركم .

(١٤) النار لمن أكل مال اليتيم :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً** ﴾ (النساء : ١٠)

أى إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فإنما يأكلون ناراً تتأجج فى بطونهم يوم القيامة – وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا

---

(١) أخرجه البخارى عن أبى هريرة .

(٢) رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة .

السبع الموبقات : قيل : يارسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » . وقال السدى : يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأنفه وعينيه ، يعرفه كل من رآه يأكل مال اليتيم ، وقال ابن مردوية عن أبى برزة أن رسول الله ﷺ قال : « يبعث يوم القيامة القوم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً » قيل يارسول الله من هم ؟ قال : ألم تر أن الله قال : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً** ﴾ الآية . وعن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : أحرّج مال الضعيفين : المرأة ، واليتيم »[1] أى أوصيكم باجتناب مالهما .

(١٥) الله لا يظلم خلقه :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجراً عَظِيماً * فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَو تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً** ﴾ (النساء : ٤١ - ٤٢)

يخبر جل ثناؤه عباده بأنه سيوفيهم أجورهم ، ولا يظلم خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل ، ولا مثقال ذرة بل يوفيها له ويضاعفها له إن كانت حسنة ، كما قال تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط** ﴾ الآية ، وقال تعالى مخبراً عن لقمان : أنه قال : ﴿ **يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بها الله** ﴾ . الآية ، وقال تعالى : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ ، وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ فى حديث الشفاعة الطويل ، وفيه : « فيقول الله عز وجل ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه

---

(١) رواه ابن مردوية من حديث أبى هريرة .

من النار ، فيخرجون خلقاً كثيراً » ، ثم يقول أبو سعيد : اقرأوا إن شئتم ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة** ﴾ الآية . وقال ابن أبى حاتم ، قال عبد الله بن مسعود : يؤتى بالعبد أو الأمة يوم القيامة فينادى مناد على رؤوس الأولين والآخرين : هذا فلان بن فلان ، من كان له حق فليأت إلى حقه ، فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على أبيها أو أمها أو أخيها أو زوجها ، ثم قرأ : ﴿ **فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ ، فيغفر الله من حقه ما يشاء ولا يغفر من حقوق الناس شيئا ، فينصب للناس ، فيقول : ائتوا إلى الناس حقوقهم ، فيقول : يارب فنيت الدنيا من أين أوتيهم حقوقهم ؟ فيقول : خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل ذى حق حقه بقدر مظلمته ، فإن كان وليا لله ففضل له مثقال ذرة ضاعفها الله له حتى يدخله بها الجنة ، ثم قرأ علينا : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها** ﴾ ، وإن كان عبداً شقياً . قال الملك : رب فنيت حسناته وبقى طالبون كثير ، فيقول : خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته ، ثم صكوا له صكاً إلى النار ورواه ابن جرير . ولبعض هذا الأثر شاهد فى الحديث الصحيح .

وروى عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **وإن تك حسنة يضاعفها** ﴾ ، فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة ولا يخرج من النار أبداً ، وقد يستدل له بالحديث الصحيح : أن العباس قال يارسول الله : إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعته بشيء ؟ قال : نعم هو فى ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار ، وقد يكون هذا خاصاً بأبى طالب من دون الكفار ، بدليل ما رواه أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق فى الدنيا ، ويجزى بها فى الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بها فى الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة »[1] . وقال الحسن وقتادة : ﴿ **ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾ يعنى الجنة ، نسأل الله رضاه والجنة . وروى ابن أبى حاتم عن أبى عثمان قال : قلت : ياأبا هريرة سمعت إخوانى بالبصرة يزعمون أنك تقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يجزى بالحسنة ألف ألف حسنة » ، فقال أبو هريرة : والله بل سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(١) أخرجه مسلم من حديث أنس .

« إن الله يجزى بالحسنة ألفى ألفى حسنة » ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **وما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾ .

يقول تعالى : مخبرا عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه فيكف يكون الأمر والحال يوم القيامة ، حين يجيء من أكل أمة بشهيد يعنى الأنبياء عليهم السلام ، كما قال تعالى : ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء** ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ **ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم** ﴾ الآية . روى البخارى عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : « اقرأ على » ، فقلت : يارسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ « قال : نعم ، إنى أحب أن أسمعه من غيرى » . فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾ ؟ فقال : « حسبك الآن » فإذا عيناه تذرفان .

وقوله تعالى : ﴿ **يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا** ﴾ أى لو انشقت وبلعتهم مما يرون من أهوال الموقف وما يحل بهم من الخزى والفضيحة والتوبيخ ، كقوله : ﴿ **يوم ينظر المرء ما قدمت يداه** ﴾ الآية وقوله : ﴿ **ولا يكتمون الله حديثا** ﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتمون منه شيئا ، عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل إلى ابن عباس ، فقال له : سمعت الله عزّ وجل يقول – يعنى إخبار عن المشركين يوم القيامة – إنهم قالوا : ﴿ **والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ **ولا يكتمون الله حديثا** ﴾ ، فقال ابن عباس : أما قوله : ﴿ **والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام ، قالوا : تعالوا فلنجحد ، فقالوا : ﴿ **والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿ **ولا يكتمون الله حديثا** ﴾[1] . وقال عبدالرزاق عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل

(١) أخرجه ابن جرير .

إلى ابن عباس فقال : أشياء تختلف عليَّ فى القرآن ، قال ما هو ، أشك فى القرآن ؟ قال : ليس هو بالشك ، ولكن اختلاف قال : فهات ما اختلف عليك من ذلك ، قال أسمع الله يقول : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ ، وقال : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ فقد كتموا ، فقال ابن عباس : أما قوله ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ ، فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله لا يغفر إلا لأهل الإسلام ويغفر الذنوب ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره ، ولا يغفر شركاً ، جحد المشركون فقالوا : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ رجاء أن يغفر لهم فختم الله على أفواههم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، فعند ذلك ﴿ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ .

وقال الضحاك : إن نافع بن الأزرق أتى ابن عباس فقال : ياابن عباس قول الله تعالى : ﴿ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا ﴾ ، وقوله : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ ، فقال له ابن عباس : إنى أحسبك قمت من عند أصحابك فقلت ألقى على ابن عباس متشابه القرآن فإذا رجعت إليهم فأخبرهم : أن الله تعالى يجمع الناس يوم القيامة فى بقيع واحد ، فيقول المشركون : إن الله لا يقبل من أحد شيئاً إلا ممن وحَّده ، فيقولون تعالوا نجحد ، فيسألهم فيقولون : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ ، قال : فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم ، وتشهد عليهم جوارحهم أنهم كانوا مشركين ، فعند ذلك يتمنون لو أن الأرض سويت لهم ﴿ ولا يكتمون الله حديثا ﴾ أخرجه ابن جرير عن الضحاك .

(١٦) تبديل جلود أهل النار :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصلِيهِم نَارًا كُلَّمَا نَضِجَت جُلُودُهُم بَدَّلنَاهُم جُلُودًا غَيرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيماً ﴾

(النساء : ٥٦)

يخبر تعالى عما يعاقب به فى نار جهنم من كفر بآياته وصد عن رسله ، فقال : ﴿ **إن الذين كفروا بآياتنا** ﴾ الآية ، أى ندخلهم ناراً دخولا يحيط بجميع أجرامهم وأجزائهم ، ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم فقال : ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾ . قال الأعمش عن ابن عمر : إذا احترقت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها بيضاً أمثال القراطيس ، وعن الحسن قوله : ﴿ **كلما نضجت جلودهم** ﴾ الآية قال : تنضجهم فى اليوم سبعين ألف مرة ، ثم قيل لهم : عودوا فعادوا ، عن ابن عمر قال : قرأ رجل عند عمر هذه الآية : ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها** ﴾ فقال عمر : أعدها علىّ ، فأعادها ، فقال معاذ بن جبل : عندى تفسيرها ، تبدل فى ساعة مائة مرة ، فقال عمر : هكذا سمعت رسول الله ﷺ . وقال الربيع بن أنس : مكتوب فى الكتاب الأول أن جلد أحدهم أربعون ذراعاً ، وسنه سبعون ذراعاً ، وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه ،

فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلوداً غيرها وقد ورد فى الحديث ما هو أبلغ من هذا ، قال الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « يعظم أهل النار فى النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقة مسيرة سبعمائة عام ، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً ، وإن ضرسه مثل أحد » .

(١٧) جزاء القتل العمد النار وغضب الجبار :

قال الله تعالى : ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيماً** ﴾ (النساء : ١٣) .

﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمدا** ﴾ الآية ، وهذا تهدد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذى هو مقرون بالشرك فى الله فى غير ما آية فى كتاب

الله ، حيث يقول سبحانه فى سورة الفرقان : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق** ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا** ﴾ الآية .

والآيات والأحاديث : فى تحريم القتل كثيرة جداً ، فمن ذلك ما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال ، قال رسول الله ﷺ : « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء » ، وفى حديث آخر : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم » ، وفى الحديث الآخر : « من أعان على قتل المسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينية آيس من رحمة الله » ، وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً ، وقال البخارى عن المغيرة بن النعمان قال : سمعت ابن جبير قال : اختلف فيها أهل الكوفة فرحلت إلى ابن عباس فسألته فى عنها فقال : نزلت هذه الآية ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم** ﴾ هى آخر ما نزل وما نسخها شيء ، وقال فى هذه الآية :

﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر** ﴾ إلى آخرها قال : نزلت فى أهل الشرك . وقال ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاوه جهنم** ﴾ ولا توبة له فذكر ذلك لمجاهد فقال : إلا من ندم ، وروى سالم بن أبى الجعد قال : كنا عند ابن عباس بعد ما كُفَّ بصره فأتاه رجل فناداه : ياعبد الله بن عباس ما ترى فى رجل قتل مؤمنا متعمداً ؟ فقال : جزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيماً ، قال أفرأيت إن تاب وعمل صالحا ثم اهتدى ؟ قال ابن عباس : ثكلته أمه وأنى له التوبة والهدى ؟ والذى نفسى بيده لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول : « ثكلته أمه قاتل مؤمن متعمداً ، جاء يوم القيامة أخذه بيمينه أو شماله تشجب أوداجه من قبل عرش الرحمن ، يلزم قاتله بشماله وبيده الأخرى رأسه يقول : يارب سل هذا فيم قتلنى » وأيم الذى نفس عبد الله بيده لقد أنزلت هذه الآية فما نسختها من آية

حتي قبض نبيكم ﷺ وما نزل بعدها من برهان[1] . وعن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : « يجىء المقتول متعلقاً بقاتله يوم القيامة آخذاً رأسه بيده الأخرى ، فيقول : يارب سل هذا فيم قتلنى ؟ قال : فيقول : قتلته لتكون العزة لك ، فيقول : فإنها لى ، قال : ويجىء آخر متعلقا بقاتله . فيقول : رب سل هذا فيما قتلني ؟ قال ، فيقول : قتلته لتكون العزة لفلان قال : فإنها ليست له بؤ بإثمه قال : فيهوى فى النار سبعين خريفاً »[2] .

(حديث آخر) : قال الإمام أحمد بن أبى إدريس ، قال : سمعت معاوية رضى الله عنه يقول ، سمعت النبى ﷺ يقول : « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً ، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمداً » . والذى عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها : أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عزّ وجلّ ، فإن تاب وأناب ، وخشع وضلع وعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات ، وعوض المقتول من ظلامته . قال الله تعالى: ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر — إلى قوله : إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً** ﴾ الآية ، وهذا خبر لا يجوز نسخ وحمله على المشركين وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر ، ويحتاج حمله إلى دليل ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله** ﴾ الآية ، وهذا عام فى جميع الذنوب من كفر وشرك ونفاق وقتل وفسق وغير ذلك كل من تاب تاب الله عليه ، قال الله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ فهذه الآية عامة فى جميع الذنوب ما عدا الشرك وهى مذكورة فى هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها ، لتقوية الرجاء والله أعلم . وثبت فى الصحيحين خبر الإسرائيلى الذى قتل مائة

---

(١) أخرجه ابن جرير عن سالم بن أبى الجعد .
(٢) رواه أحمد والنسائى ومعنى (بؤ) أى ارجع بإثمه .

نفس ، ثم سأل عالماً هل لى من توبة فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه ، فهاجر إليه فمات فى الطريق ، فقبضته ملائكة الرحمة كما ذكرناه غير مرة . وإن كان هذا فى بنى إسرائيل فلأن يكون فى هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى ، لأن الله وضع عنا الآصار والأغلال التى كانت عليهم ، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة ، فأما الآية الكريمة وهى قوله تعالى : ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمداً** ﴾ الآية ، فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف ، هذا جزاؤه إن جازاه ، وكذا كل وعيد على ذنب ، لكن قد يكون كذلك .

معارض من أعمال صالحة تمنع وصول هذا الجزاء إليه على قولى أصحاب الموازنة والإحباط ، وهذا أحسن ما يسلك فى باب الوعيد ، والله أعلم بالصواب . وبتقدير دخول القاتل فى النار ، أما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا توبة له ، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً ينجو به فليس بمخلد فيها أبداً ، بل الخلود هو المكث الطويل ، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ : « أنه يخرج من النار من كان فى قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان » ، وأما حديثه معاوية : « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً ، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمداً » فعسى للترجى ، فإذا انتفى الترجى فى هاتين الصورتين لانتفى وقوع ذلك فى أحدهما وهو القتل ، لما ذكرنا من الأدلة .

وأما من مات كافراً فالنص أن الله لا يغفر له البتة ، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنه حق من حقوق الآدميين وهى لا تسقط بالتوبة ، ولكن لابد من ردها إليهم ولا فرق بين المقتول والمسروق منه ، والمغصوب منه وسائر حقوق الآدميين فإن الإجماع منعقد على على أنها لا تسقط بالتوبة ، ولكن لابد من ردها إليهم فى صحة التوبة فإن تعذر ذلك فلابد من المطالبة يوم القيامة ، لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع المجازاة ، إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها ، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة أو يعوض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ونعيمها ورفع درجته فيها ونحو ذلك والله أعلم .

ثم لقاتل العمد أحكام فى الدنيا وأحكام فى الآخرة ، فأما فى الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه ، قال الله تعالى : ﴿ **ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ الآية ، ثم هم مخيرون بين أن يقتلوا ، أو يعفوا ، أو يأخذوا دية مغلظة – أثلاثاً – ثلاثون حقة وثلاثون جذعة وأربعون خلفة ، كما هو مقرر فى كتب الأحكام ، واختلف الأئمة هل تجب عليه كفارة عتق رقبة ، أو قيام شهرين متتابعين أو إطعام على أحد القولين كما تقدم فى كفارة الخطأ على قولين ، فالشافعى وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون : نعم يجب عليه ، لأنه إذا وجبت عليه الكفارة فى الخطأ فلأن تجب عليه فى العمد أولى فطردوا هذا فى كفارة اليمين الغموس ، وقال أصحاب الإمام أحمد وآخرون : قتل العمد أعظم من أن يكفر فلا كفارة فيه وكذا اليمين الغموس ، وقد احتج من ذهب إلى وجوب الكفارة فى قتل العمد بما رواه الإمام أحمد عن وائله بن الأسقع قال : أتى النبى ﷺ نفر من بنى سليم فقالوا : إن صاحباً لنا قد أوجب ، قال : « فليعتق رقبة يفدى الله بكل عضو منها عضواً منه من النار »

فائدة :

(١٨) من قتل نفسه بشىء عذب به يوم القيامة :

قال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُم رَحِيماً * وَمَن يَفْعَل ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً** ﴾ (النساء : ٢٩ – ٣٠)

●●● وأورد ابن مردويه عند هذه الآية الكريمة عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأ بها بطنه يوم القيامة فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بسم فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » ، وفى الصحيحين : « من قتل نفسه بشىء عذب به يوم القيامة » . وفى الصحيحين عن جندب بن عبد الله البجلي قال ، قال رسول الله ﷺ : « كان رجل ممن قبلكم وكان به جرح فأخذ سكيناً نحر بها يده فما رقأ

الدم حتى مات ، قال الله عز وجلّ : عبدى بادرنى بنفسه حرمت عليه الجنة » . ولهذا قال تعالى : ﴿ **ومن يفعل ذلك عدوانا وظلماً** ﴾ أى ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه معتديا فيه ، ظالماً فى تعاطيه ، أى عالماً بتحريمه متجاسراً على انتهاكه ﴿ **فسوف نصليه ناراً** ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد .

(١٩) النار لمن كان فى شق والشرع فى شق :

قال الله تعالى : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَىٰ وَيَتَّبِع غَيرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصلِهِ جَهَنَّمَ وسَاءَتْ مَصِيراً** ﴾

(النساء : ١١٥)

وقوله تعالى : ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له من الهدى** ﴾ أى ومن سلك غير طريق الشريعة التى جاء بها الرسول ﷺ فصار فى شق ، والشرع فى شق وذلك عن عمد منه ، بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له ، وقوله : ﴿ **ويتبع غير سبيل المؤمنين** ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى ، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية ، فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً ، فإنه قد ضمنت لهم العصمة فى اجتماعهم من الخطأ ، تشريفا لهم وتعظيما لنبيهم ، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة فى ذلك . ومن العلماء من ادعى تواتر معناها ، والذى عول عليه الشافعى رحمه الله فى الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة بعد التروى والفكر الطويل . وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها على ذلك ولهذا . توعـد تعالى على ذلك بقوله : ﴿ **نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً** ﴾ أى إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها فى صدره ونزينها له استدراجاً له كما قال تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم** ﴾ وقوله : ﴿ **ونذرهم فى طغيانهم يعمون** ﴾ وجعل النار مصيره فى الآخرة لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم** ﴾ الآية

وقال تعالى : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ .

(٢٠) إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأسفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِد لَهُم نَصِيراً ۞ إِلَّا الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصلَحُواْ وَاعتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخلَصُوا دِينَهُم لله فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤمِنِينَ وَسَوفَ يُؤتِ اللهُ الْمُؤمِنِينَ أَجرًا عَظِيماً ۞ مَّا يَفعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُم إِن شَكَرتُمْ وَءَامَنتُم وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيماً ﴾ (النساء : ١٤٥-١٤٧).

﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ أى يوم القيامة جزاء على كفرهم الغليظ ، قال ابن عباس : أى فى أسفل النار ، وقال غيره النار (دركات) كما أن الجنة (درجات) وقال : سفيان الثورى ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ فى توابيت تُرتَج عليهم .

وعن أبى هريرة قال ﴿ الدرك الأسفل ﴾ : بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم ومن فوقهم ، قال ابن جرير عن عبد الله بن مسعود ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ قال : فى توابيت من نار تطبق عليهم أى مغلقة مقفلة ، ﴿ ولن تجد لهم نصيراً ﴾ أى ينقذهم مما هم فيه ويخرجهم من أليم العذاب ، ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم فى الدنيا تاب عليه وقبل ندمه إذا أخلص فى توبته وأصلح عمله ، واعتصم بربه فى جميع أمره ، فقال تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ﴾ أى بدلوا الرياء بالإخلاص ، فينفعهم العمل الصالح وإن قل . قال ابن أبى حاتم عن معاذ بن جبل : أن رسول الله ﷺ قال : « أخلص دينك يكفك القليل من العمل » . ﴿ فأولئك مع المؤمنين ﴾ أى فى زمرتهم يوم القيامة ﴿ وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيماً ﴾ ، ثم قال تعالى مخبرا عن غناه عمن سواه وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ ؟ أى أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله ، ﴿ وكان الله شاكرا عليماً ﴾ أى من شكر شكر له ، ومن آمن قلبه به علمه وجازاه على ذلك أوفر الجزاء .

ولهذا قال هنا : ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ أى فى العبادة ، لهم فيكم قسط فى استحقاق العبادة لهم ، ثم قال تعالى : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ قرىء بالرفع أى شملكم ، وبالنصب أى تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات والوسائل ، ﴿ وضل عنكم ﴾ أى ذهب عنكم ، ﴿ ما كنتم تزعمون ﴾ من رجاء الأصنام والأنداد ، كقوله تعالى : ﴿ إذ تبرأ الذين اتُبِعوا من الذين اتَبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ ...

(٢١) أهل النار يلعن بعضهم بعضاً :

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ ادخُلُوا فِيٓ أُمَمٍ قَد خَلَت مِن قَبلِكُم مِنَ الجِنِ وَٱلإنسِ فِى النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَةٌ لَعَنَت أُختها حَتَّىٓ إذا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَت أُخراهُم لِأُولاهُم رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونا فَـَٔاتِهِم عَذَابًا ضِعفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍ ضِعفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعلَمُونَ * وَقَالَت أُولَـٰهُم لِأُخرَاهُم فَمَا كَانَ لَكُم عَلَينَا مِن فَضلٍ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُم تَكسِبُونَ ﴾ (الأعراف ٢٨ : ٢٩)

يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به المفترين عليه المكذبين بآياته ﴿ ادخلوا فى أمم ﴾ أى من أمثالكم وعلى صفاتكم ، ﴿ قد خلت من قبلكم ﴾ أى من الأمم السالفة الكافرة ، ﴿ من الجن والإنس فى النار ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿ فى أمم ﴾ أى مع أمم . وقوله : ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ كما قال الخليل عليه السلام ، ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ . وقوله : ﴿ حتى إذا اداركوا فيها جميعا ﴾ أى اجتمعوا فيها كلهم ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ﴾ أى أخراهم دخولا وهم ﴿ الأتباع ﴾ لأولاهم وهم ﴿ المتبوعون ﴾ لأنهم أشد جرما من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل ، فيقولون : ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ﴾ أى أضعف عليهم ، كما قال

تعالى : ﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ الآية . وقوله : ﴿ قال لكل ضعف ﴾ أى قد فعلنا ذلك وجازينا كلاً بحسبه ، كقوله : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ ، وقوله : ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ الآية ، ﴿ وقالت أولاهم لأخراهم ﴾ أى قال المتبوعون للأتباع : ﴿ فما كان لكم علينا من فضل ﴾ ، قال السدى : لقد ضللتم كما ضللنا ، ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ ، وهذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم فى حال محشرهم فى قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ الآيات .

(٢٢) روح الكافر وانقطاع الدنيا وإقبال الآخرة :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُم أَبْوابُ السَّماءِ وَلَا يدخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فى سَمِّ الخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجزِى المُجرِمِينَ * لَهُم مِنّ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوقِهِم غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجزِى الظَّالِمِينَ ﴾ (الأعراف ٤٠ - ٤١)

وقوله تعالى : ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ قيل : المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء[1] ، وقيل المراد لا تفتح لأرواحهم باب السماء[2] ، ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ ، وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفى يده عود ينكت به فى الأرض ، فرفع رأسه فقال : « استعيذوا بالله من عذاب القبر - مرتين

(١) قاله مجاهد وسعيد بن جبير ورواه العوفى عن ابن عباس .
(٢) رواه الضحاك عن ابن عباس وبه قال السدى .

أو ثلاثاً – ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس المطمئنة اخرجى إلى مغفرة من مالله ورضوان – قال : فترج تسيل كما يسيل القطر فى السقاء ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن ، وفى ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، قال : فتعاد روحه ، فيأتيه ملكان يجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله ﷺ ، فيقولان له : وما عملك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت ، فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى ، فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا من الجنة ، فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له قبره مد البصر – قال : ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح ، فيقول له : أبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول له : من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير ! فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

قال : وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر . ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب ، قال فتفرق فى جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفه

عين ، حتى يجعلوها فى تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا ، فيستفتح فلا يفتح له — ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سمّ الخياط** ﴾ فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحاً — ثم قرأ : ﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق** ﴾ فتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى ، فيقولان : ما دينك ؟ فيقول : ها هاه لا أدرى ، فيقولان : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ، فيقول هاه ها لا أدرى ، فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى ، فأفرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرها وسموها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب ، منتن الريح فيقول : أبشر بالذى يسوؤك هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول : من أنت فوجهك الوجه يجىء بالشر ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول : رب لا تقم الساعة .

وقد قال ابن جريج : لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم ، وهذا فيه جمع بين القولين ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ **ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط** ﴾ هكذا قرأه الجمهور ، وفسروه بأنه البعير ، قال الحسن البصرى : حتى يدخل البعير فى خرق الإبرة(١) . وقرأ ابن عباس : بضم الجيم وتشديد الميم : يعنى الحبل الغليظ فى خرق الإبرة . وهذا اختيار سعيد بن جبير ، وفى رواية أنه قرأ : حتى يلج الجمل ، يعنى قلوس السفن وهى الحبال الغلاظ . وقوله : ﴿ **لهم من جهنم مهاد** ﴾ المراد : الفرش ، ﴿ **ومن فوقهم غواش** ﴾ اللحف ، وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدى ﴿ **وكذلك نجزى الظالمين** ﴾ .

---

(١) هذا قول جمهور السلف منهم أبو العاليه .

(٢) والضحاك وابن مسعود ورواه العوفى عن ابن عباس .

(٢٣) النار لمن صد عن سبيل الله ولمن منع الزكاة :

قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (التوبة ٣٤ - ٣٥)

قال السدى : الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، وهو كما قال ، فإن الأحبار هم علماء اليهود كما قال تعالى : ﴿ **لولا ينهاهم الربانيون عن قولهم الإثم وأكلهم السحت** ﴾ والرهبان : عباد النصارى ، والقسيسون : علماؤهم ، كما قال تعالى : ﴿ **ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً** ﴾ والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال ، قال سفيان عن عيينة : من فساد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبّادنا كان فيه شبه من النصارى ، وفى الحديث الصحيح : « لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة » قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » ، وفى رواية فارس والروم ؟ قال : « فمن الناس إلا هؤلاء ؟ » . والحاصل التحذير من التشبة بهم فى أقوالهم وأحوالهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله** ﴾ ، ذلك بأنهم يأكلون الدنيا بالدين ، ومناصبهم ورياستهم فى الناس يأكلون أموالهم بذلك ، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية خراج وهدايا وضراب تجىء إليهم ، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها ، وعوضهم الذل والصغار ، وباؤوا بغضب من الله تعالى : وقوله تعالى : ﴿ **ويصدون عن سبيل الله** ﴾ أى وهم مع أكلهم الحرام ، يصدون الناس عن اتباع الحق ، ويلبسون الحق بالباطل ، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير وليسوا كما يزعمون . بل هم دعاة إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ، وقوله : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل**

الله ﴾ الآية ، هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس ، فإن الناس عالة على العلماء وعلى العبّاد ، وعلى أرباب الأموال ، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسد أحوال الناس كما قال ابن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

وأما الكنز ، فقال ابن عمر : هو المال الذى لا تؤدى زكاته ، وعنه قال : ما أدرى زكاته فليس بكنز . وإن كان تحت سبع أرضين ، وما كان ظاهراً لا تؤدى زكاته فهو كنز[1] ، وقال عمر بن الخطاب : أيما مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونا فى الأرض ، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض . وروى البخارى عن خالد بن أسلم قال خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال : هذا قبل أن تنزل الزكاة . فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال ، وكذا قال عمر بن عبد العزيز وعراك بن مالك نسخها قوله تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة** ﴾ الآية .

قال الإمام أحمد عن ثوبان قال : لما نزل فى الذهب والفضة ما نزل قالوا : فأى المال نتخذ ؟ قال عمر فأنا أعلمكم ذلك فأوضع على بعير فأدركه وأنا فى أثره ، فقال : يارسول الله أى المال نتخذ ؟ قال : « قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة » . (حديث آخر) : روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ الآية ، كبر ذلك على المسلمين وقالوا : ما يستطيع أحد منا يدع لولده مالاً يبقى بعده ، فقال عمر : أنا أفرّج عنكم ، فانطلق عمر واتبعه ثوبان فأتى النبى ﷺ فقال : يانبى الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم » ، قال فكبر عمر ، ثم قال له النبى ﷺ : « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته »[1] .

---

(١) وروى هذا عن ابن عباس وجابر وأبى هريرة وغيرهم .

(١) رواه أحمد وأبو داود والحاكم فى المستدرك وقال : صحيح على شرطهما ولم يخرجاه .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يحمي عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ أى يقال لهم هذا الكلام تبكيتاً وتقريعاً وتهكماً ، كما قال تعالى : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ أى هذا بذاك وهذا الذى كنتم تكنزون لأنفسكم ، ولهذا يقال من أحب شيئا وقدمه على طاعة الله عذب به ، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضى الله عنهم عذبوا بها ، وكانت أضر الأشياء عليهم فى الدار الآخرة ، فحمى عليها فى نار جهنم ، وناهيك بحرها ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظورهم ، قال عبد الله بن مسعود : والذى لا إله غيره لا يكوى عبد يكنز فيمس دينار ديناراً ولا درهم درهماً ، ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته ؛ وقال طاووس : بلغنى أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعاً يتبع صاحبه وهو يفر منه ويقول : أنا كنزك لا يدرك منه شيئا إلا أخذه . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار ، فيكوى بها جبينه وجبهته وظهره ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضي بين العباد ثم يرى سبيله ، إما إلى الجنة وإما إلى النار » .

(٢٤) قل نار جهنم أشد حراً :

قال الله تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِم خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِم وَأَنفُسِهِم فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الحَرِ قُل نَارُ جَهَنَّم أَشَدُّ حَرًّا لَّو كَانُوا يَفقَهُونَ * فَلْيَضحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبكُوا كَثِيرًا جَزَآءَ بِمَا كَانُوا يَكسِبُونَ ﴾ (التوبة : ٨١ - ٨٢)

يقول تعالى ذاماً المنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه ﴿ وكرهوا أن يجاهدوا ﴾ معه ﴿ بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا ﴾ - أى بعضهم لبعض ﴿ لا تنفروا فى الحر ﴾ ، وذلك أن الخروج فى غزوة تبوك كان فى شدة الحر ، عند طيب الظلال والثمار ، فلهذا قالوا : ﴿ لا تنفروا فى الحر ﴾ ، قال الله تعالى لرسوله

ﷺ : ﴿ **قل** ﴾ لهم ﴿ **نار جهنم** ﴾ التى تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿ **أشد حرا** ﴾ مما فررتم منه من الحر بل أشد حراً من النار ، كما قال رسول الله ﷺ : ﴿ **نار بنى آدم التى توقدونها جزء من سبعين جزءا من نار جهنم** ﴾ ، فقالوا : يارسول الله إن كانت لكافية ، فقالت : « فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً »(١)، وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم وضربت فى البحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد »(٢) . وروى الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « أوقد الله على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهى سوداء كالليل المظلم » . وعن أنس قال : تلا رسول الله ﷺ ﴿ **ناراً وقودها النار والحجارة** ﴾ ، قال : « أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ، وألف عام حتى احمرت ، وألف عام حتى اسودت ، فهى سوداء كالليل لا يضىء لهبها »(٣) ، والأحاديث والآثار النبوية فى هذا كثيرة . وقال الله تعالى فى كتابه العزيز ﴿ **كلا إنها لظى نزاعة للشوى** ﴾ ، وقال تعالى هنا : ﴿ **قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون** ﴾ أى لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول فى سبيل الله فى الحر ، ليتقوا به من حر جهنم الذى هو أضعاف أضعاف هذا ، ولكنهم كما قال الشاعر :

كالمستجير من الرمضاء بالنار

ثم قال تعالى جل جلاله متوعداً هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا : ﴿ **فليضحكوا قليلاً** ﴾ الآية ، قال ابن عباس : الدنيا قليل ، فليضحكوا فيها ما شاءوا ، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عزّ وجلّ استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً ، وقال الحافظ الموصلى عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ياأيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ، فإن أهل النار يبكون حتى

---

(١) رواه البخارى ومسلم ومالك عن أبى هريرة .

(٢) أخرجه أحمد قال ابن كثير : إسناده صحيح .

(٣) أخرجه ابن مردوية .

تسيل دموعهم فى وجوههم ، كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون ، فلو أن سفناً أزجيت فيها لجرت »[1] .

(٢٥) فرعون يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار :

قال الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ** ﴾ (هود ٩٦ — ٩٩)

يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملئه ﴿ **فاتبعوا أمر فرعون** ﴾ أى منهجه ومسلكه وطريقته فى الغى ، ﴿ **وما أمر فرعون برشيد** ﴾ أى ليس فيه رشد ولا هدى ، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد ؛ وكما أنهم اتبعوه فى الدنيا وكان فى مقدمهم ورئيسهم ، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم ، ﴿ **يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود** ﴾ ، وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين فى العذاب يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ **لكل ضعف ولكن لا تعلمون** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **ربنا آتهم ضعفين من العذاب** ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ **وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة** ﴾ الآية ، أى أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة فى الدنيا ، ﴿ **ويوم القيامة بئس الرفد المرفود** ﴾ . قال مجاهد : زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان ، وقال ابن عباس : لعنة الدنيا والآخرة[2] ، وهو كقوله : ﴿ **وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين** ﴾ .

﴿ **ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ** ﴾ (هود ١٠٠ — ١٠١)

---

(١) رواه ابن ماجة والحافظ الموصلى .

(٢) وكذا قال الضحاك وقتادة .

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين ، قال : ﴿ **ذلك من أنباء القرى** ﴾ أى أخبارهم ، ﴿ **نقصه عليك منها قائم** ﴾ أى عامر ، ﴿ **وحصيد** ﴾ أى هالك ، ﴿ **وما ظلمناهم** ﴾ أى إذ أهلكناهم ﴿ **ولكن ظلموا أنفسهم** ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ، ﴿ **فما أغنت عنهم آلهتهم** ﴾ أوثانهم التى يعبدونها ويدعونها ﴿ **من دون الله من شىء** ﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم بإهلاكهم ، ﴿ **وما زادوهم غير تتبيب** ﴾ . قال مجاهد وقتادة أى غير تخسير ، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة ، فلهذا خسروا فى الدنيا والآخرة .

﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾ (هود ١٠٢) .

يقول تعالى : وكما أهلكنا قبلك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بأشباههم ، ﴿ **إن أخذه أليم شديد** ﴾ . وفى الصحيحين عن أبى موسى رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ، ثم قرأ ﷺ : ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرية وهى ظالمة** ﴾ الآية .

﴿ **إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْأَخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ** ﴾ (هود ١٠٣ - ١٠٤)

يقول تعالى : إن فى إهلاكنا للكافرين وإنجائنا المؤمنين عظة واعتباراً على صدق موعودنا فى الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ **فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين** ﴾ الآية . وقوله : ﴿ **ذلك يوم مجموع له الناس** ﴾ أى أولهم وآخرهم ، كقوله : ﴿ **وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً** ﴾ ، ﴿ **وذلك يوم مشهود** ﴾ أى عظيم تحضره الملائكة ، ويجتمع فيه الرسل وتحشر الخلائق بأسرهم ، من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة ، وقوله : ﴿ **وما نؤخره إلا لأجل معدود** ﴾ أى ما نؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله فى وجود أناس معدودين من ذرية آدم ،

ضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة ، ولهذا قال : ﴿ **وما نؤخره إلا لأجل معدود** ﴾ أى لمد مؤقتة لا يزاد عليها ولا ينتقص منها ، ﴿ **يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه** ﴾ أى يوم يأتى يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله ، كقوله : ﴿ **لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا** ﴾ ، وفى الصحيحين فى حديث الشافعة : « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم » ، وقوله : ﴿ **فمنهم شقي وسعيد** ﴾ أى فمن أهل الجمع شقى ومنهم سعيد ، كما قال : ﴿ **فريق فى الجنة وفريق فى السعير** ﴾ ، ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال .

(٢٦) الخلود فى النار :

قال الله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُم فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَات وَالأَرضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ** ﴾ (هود ١٠٦ - ١٠٧) .

يقول تعالى : ﴿ **لهم فيها زفير وشهيق** ﴾ ، قال ابن عباس : الزفير فى الحلق ، والشهيق فى الصدر ، أى تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب ، ﴿ **خالدين فيها ما دامت السموات والأرض** ﴾ قال ابن جرير : من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت : هذا دائم دوام السماوات والأرض . وكذلك يقولون : هو باقٍ ما اختلف الليل والنهار . يعنون بذلك كله أبداً ، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم ، فقال : ﴿ **خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض** ﴾ قلت : ويحتمل أن المراد بما دامت السماوات والأرض الجنس ، لأنه لابد في عالم الآخرة من سماوات وأرض ، كما قال تعالى : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات** ﴾ ، ولهذا قال الحسن البصرى فى قوله : ﴿ **ما دامت السماوات والأرض** ﴾ قال : يقول سماء غير هذه السماء وأرض غير هذه . فما دامت تلك السماء وتلك الأرض ، وعن ابن عباس قال : لكل جنة سماء وأرض ، وقال ابن أسلم : ما دامت الأرض

أرضا والسماء سماء ، وقوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد** ﴾ كقوله : ﴿ **النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم** ﴾ ، وقد اختلف المفسرون فى المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة نقل كثيراً منها ابن جرير رحمه الله واختار أن الاستثناء عائد على (العصاة) من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين ، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين ، فتخرج من لم يعمل خيراً قط ، وقال يوماً من الدهر ﴿ **لا إله إلا الله** ﴾ ، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ ولا يبقى بعد ذلك فى النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ، وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً ، وقال السدى : هى منسوخة بقوله : ﴿ **خالدين فيها أبدًا** ﴾ .

(٢٧) فريق فى الجنة وفريق فى السعير :

قال الله تعالى : ﴿ **وَلَو شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُختَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُم وَتَمَّت كَلِمَةُ رَبّكَ لَأَملَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجمَعِينَ** ﴾ (هود ١١٨ – ١١٩)

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر . كما قال تعالى : ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً** ﴾ ، وقوله : ﴿ **ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك** ﴾ أي ولا يزال الخلف بين الناس فى أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم ، قال عكرمة : مختلفين في الهدى ، وقوله : ﴿ **إلا من رحم ربك** ﴾ أى إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين ، أخبرتهم به رسل الله إليهم ولم يزل ذلك دأبهم ، حتى كان النبى وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه ووازروه ، ففاز بسعادة الدنيا والآخرة ، لأنهم الفرقة الناجية ، وقال عطاء : ﴿ **ولا يزالون مختلفين** ﴾ يعنى اليهود والنصارى المجوس ﴿ **إلا من رحم ربك** ﴾ يعنى الحنيفية ، وقال قتادة : أهل رحمة الله : أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم ، وأهل معصيته أهل الفرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم . وقوله :

﴿ **ولذلك خلقهم** ﴾ ، قال الحسن البصري : وللاختلاف خلقهم . وقال ابن عباس : خلقهم فريقين كقوله : ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ ، وعن ابن عباس قال : للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب . ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ . وللرحمة وللاختلاف خلقهم . كما قال الحسن البصرى فى رواية عنه فى قوله : ﴿ **ولا يزالون مختلفين** ﴾ ، قال : الناس مختلفون على أديان شتى ﴿ **إلا من رحم ربك** ﴾ ، فمن رحم ربك غير مختلف ، فقيل له لذلك خلقهم ، قال خلق هؤلاء لجنته ، وخلق هؤلاء لناره ، وخلق هؤلاء لعذابه ، وقال ابن وهب : سألت مالكاً عن قوله تعالى : ﴿ **ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم** ﴾ قال: فريق فى الجنة وفريق فى السعير، وقد اختار هذا القول ابن جرير، وقوله: ﴿ **وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق فى قضائه وقدره لعلمه التارم وحكمته النافذه أن ممن خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من يستحق النار ، وأنه لابد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين (الجن والإنس) وله الحجة البالغة والحكمة التامة ، وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ (اختصمت الجنة والنار ، فقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ، وقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء وقال للنار : أنت عذابى أنتقم بك ممن أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشيء الله لها خلقا يسكن فضل الجنة ، وأما النار فلا تزال تقول : ﴿ **هل من مزيد** ﴾ حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول : قط قط وعزتك .

(٢٨) النار لمن أنكر المعاد :

قال الله تعالى : ﴿ **وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَـٰٓئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ الْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ** ﴾ (الرعد ٥)

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : ﴿ **وإن تعجب** ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد ، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله في خلقه ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء من قولهم : ﴿ **أئذا كنا تراباً أئنا لفى خلق جديد** ﴾ وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل ، كما قال تعالى : ﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ؟ بلى إنه على كل شىء قدير** ﴾ ، ثم نعت المكذبين بهذا ، فقال : ﴿ **أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم** ﴾أى يسحبون بها فى النار ، ﴿ **وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ أى ماكثون فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون .

(٢٩) أفعال المنافقين التى أوردتهم النار :

قال الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهدَ اللهِ مِن بَعدِ مِيثَاقِهِ وَيَقطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللهُ بِهِ أن يُوصَلَ وَيُفِسدُونَ فِى الأَرِض أُوْلَٓئِكَ لَهُمُ اللَّعنَةُ وَلَهُم سُوٓءُ الدَّارِ** ﴾ (الرعد : ٢٥)

هذا حال الأشقياء وصفاتهم وذكر مآلهم فى الآخرة، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون ، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم فى الدنيا فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل ، وهؤلاء ﴿ **ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض** ﴾ كما ثبت فى الحديث : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » : ولهذا قال : ﴿ **أولئك لهم اللعنة** ﴾ وهى الإبعاد عن الرحمة ﴿ **ولهم سوء الدار** ﴾ ، وهى سوء العاقبة والمآل ﴿ **ومأواهم جهنم وبئيس المهاد** ﴾ . وقال أبو العالية : هى ست خصال فى المنافقين . إذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال، إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا فى الأرض ، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث خصال ، إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا ائتمنوا خانوا .

(٣٠) إهلاك الظالمين :

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِم لَنُخْرِجَنَّكُم مِنْ أَرْضِنَآ أَو لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوحَىٰ إِلَيهِم رَبُّهُم لَنُهلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِم ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَآستَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ المَوتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾
(إبراهيم ١٣ — ١٧)

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم ، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به : ﴿ **لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا** ﴾ الآية ، وكما قال قوم لوط : ﴿ **أخرجوا آل لوط من قريتكم** ﴾ الآية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ **وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوى عزيز** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها** ﴾ ، وقوله : ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد أي وعيدى ، هذا لمن خاف مقامي بين يدى يوم القيامة ، وخشي من وعيدى وهو تخويفي وعذابي ، كما قال تعالى : ﴿ **فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى** ﴾ .

وقال : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ ، وقوله : ﴿ **واستفتحوا أي استنصرت الرسل ربها على قومهم** ﴾ ، وقال ابن أسلم : استفتحت الأمم على أنفسها ، كما قالوا : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ ، ويحتمل أن يكون هذا مراداً ، وهذا

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

مراداً ، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر ، واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر ، وقال الله تعالى للمشركين : ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم** ﴾ الآية ، ﴿ **وخاف كل جبار عنيد** ﴾ أي متجبر في نفسه عنيد معاند للحق ، كقوله تعالى : ﴿ **ألقيا في جهنم كل كفار عنيد ، مناع للخير معتد مريب** ﴾ . وفي الحديث : إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة ، فتنادي الخلائق فتقول : إني وكلت بكل جبار عنيد » الحديث ، وقوله : ﴿ **من ورائه جهنم** ﴾ وراء هنا بمعنى أمام ، كقوله تعالى : ﴿ **وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً** ﴾ ، وكان ابن عباس يقرؤها : وكان أمامهم ملك ، أي من وراء الجبار العنيد جهنم ، أي هي له بالمرصاد يسكنها مخلداً يوم المعاد ، ويعرض عليها غدواً وعشياً إلى يوم التناد ، ﴿ **ويسقى من ماء صديد** ﴾ أي في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق ، كما قال : ﴿ **هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج** ﴾ ، وقال مجاهد : الصديد من القيح والدم . وقال قتادة : هو ما يسيل من لحمه وجلده ، وفي رواية عنه : الصديد ما يخرج من جوف الكافر فقد خالط القيح والدم ، وفي حديث شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : قلت : يارسول الله ما طينة الخبال ؟ قال : « صديد أهل النار » ، وفي رواية : « عصارة أهل النار » وقال الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله ويسقى من ماء صديد يتجرعه ، قال : « يقرب إليه فينكره ، فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروه رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره » ، يقول تعالى : ﴿ **وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم** ﴾ ، ويقول : ﴿ **وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه** ﴾ الآية[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **يتجرعه** ﴾ أي يتغصصه ويتكرهه ، أي يشربه قهراً وقسراً لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد ، كما قال تعالى : ﴿ **ولهم مقامع من حديد** ﴾ ، ﴿ **ولا يكاد يسيغه** ﴾ أي يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطاع ، ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان** ﴾ أي يألم له جميع بدنه من كل عظم وعصب وعرق ، وقال عكرمة : حتى من أطراف شعره ،

(١) أخرجه الإمام أحمد وابن جرير .

وقال ابن عباس : ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان** ﴾ قال : أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه ، لو كان يموت ، ولكن لا يموت لأن الله تعالى قال : ﴿ **لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها** ﴾ ، ومعنى كلام ابن عباس رضي الله عنه أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه ، اقتضى أن يموت منه لو كان يموت . ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ومن ورائه عذاب غليظ** ﴾ أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر ، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم : ﴿ **إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج** ﴾ إلى غير ذلك من الآيات على تنوع العذاب عليهم ، وتكراره وأنواعه وأشكاله ، مما لا يحصيه إلا الله عز وجل ، جزاء وفاقاً ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ .

(٣١) أهل النار لا ينفعهم جزع ولا صبر :

قال الله تعالى : ﴿ **وَبَرَزُوا لله جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَـٰؤُاْ لِلَّذِينَ استَكبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُم تَبَعًا فَهَل أَنتُم مُّغنُونَ عَنَّا مِن عَذَابِ اللهِ مِن شَىءٍ قَالُوا لَو هَدَانَا اللهُ لَهَدَينَاكُم سَوَآءٌ عَلَينَآ أَجَزِعنَا أَم صَبَرنَا مَالَنَا مِن مَّحِيصٍ** ﴾ (إبراهيم ٢١)

يقول تعالى : ﴿ **وبرزوا** ﴾ أي برزت الخلائق كلها ، برها وفاجرها لله الواحد القهار ، أي اجتمعوا له في براز من الأرض ، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً ، ﴿ **فقال الضعفاء** ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿ **للذين استكبروا** ﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له ، وعن موافقة الرسل ، قالوا لهم : ﴿ **إنا كنا لكم تبعاً** ﴾ أي مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا ، ﴿ **فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء** ﴾ أي فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا ، فقالت القادة لهم : ﴿ **لو هدانا الله لهديناكم** ﴾ ولكن حقت كلمة

العذاب على الكافرين ، ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ أي ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه . قال عبد الرحمن بن أسلم : إن أهل النار قالوا : تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله عز وجل ، تعالوا نبك ونتضرع إلى الله ، فبكوا وتضرعوا ، فلما رأوا أنه لا ينفعهم ، قالوا : إنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر . تعالوا حتى نصبر فصبروا صبراً لم ير مثله ، فلم ينفعهم ذلك ، فعند ذلك قالوا : ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ الآية . قلت : والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ ، وقال : ﴿ حتى إذا أداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار: قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ ، وأما تخاصمهم فى المحشر فقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين ﴾ .

(٣٢) إبليس – لعنه الله يقوم خطيباً فى أهل النار :

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأمرُ إنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ وَوَعَدتُّكُم فَأَخلَفتُكُم وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيكُم مِّن سُلْطَانٍ إلَّآ أن دَعَوتُكُم فَآستَجَبتُم لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم مَّآ أنَا بِمُصرِخِكُم وَمَا أنتُم بِمُصرِخِيَّ إنِّي كَفَرتُ بِمَا أَشرَكتُمُونِ مِن قَبلُ إنَّ الظالِمِينَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (إبراهيم : ١٢)

رواه أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٢) رواه الحافظ أبو بكر البزار .

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم وغبناً إلى غبنهم وحسرة إلى حسرتهم فقال : ﴿ **إن الله وعدكم وعد الحق** ﴾ أى على ألسنة رسله ووعدكم فى اتباعهم النجاة والسلامة ، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم ، كما قال الله تعالى : ﴿ **يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً** ﴾ ، ثم قال : ﴿ **وما كان لي عليكم من سلطان** ﴾ أى ما كان لى عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به . ﴿ **إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي** ﴾ بمجرد ذلك ، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به ، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿ **فلا تلوموني** ﴾ اليوم ، ﴿ **ولوموا أنفسكم** ﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج ، واتبعتمونى بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ، ﴿ **ما أنا بمصرخكم** ﴾ أى بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ، ﴿ **وما أنتم بمصرخيَّ** ﴾ أى بنافعى بإنقاذى مما أنا فيه من العذاب والنكال ، ﴿ **إنى كفرت بما أشركتمونِ من قبل** ﴾ قال قتادة : أى بسبب ما أشركتمونى من قبل ، قال ابن جرير : يقول إنى جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل ، وهذا الذى قاله هو الراجح ، كما قال تعالى : ﴿ **ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءاً وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ ، وقال : ﴿ **كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونوا عليهم ضداً** ﴾ . وقوله : ﴿ **إن الظالمين** ﴾ أى في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل لهم عذاب أليم ، والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا ، قال الشعبي : يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس يقول تعالى لعيسى بن مريم : ﴿ **أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله** ﴾ ؟ قال : ويقوم إبليس لعنه الله فيقول : ﴿ **وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي** ﴾ الآية .

(٣٣) قلوب أهل النار تصل إلى حناجرهم من شدة الخوف :

قال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تَحسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِرُهُم لِيَومٍ تَشخَصُ فِيهِ الأَبصَارُ * مُهطِعِينَ مُقنِعِى رُءُوسِهِم لَا يَرتَدُّ إِلَيهِم طَرفُهُم وَأَفئِدَتُهُم هَوَآءٌ** ﴾ (إبراهيم ٤٢ - ٤٣)

يقول تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الله - يامحمد - غافلاً عما يعمل الظالمون** ﴾ أى لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم ، مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم ، بل هو يحصى ذلك عليهم ويعده عليهم عداً ، ﴿ **إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار** ﴾ أى من شدة الأهوال يوم القيامة ، ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر ، فقال : ﴿ **مهطعين** ﴾ أي مسرعين ، كما قال تعالى : ﴿ **مهطعين إلى الداع** ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ **يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **يوم يخرجون من الأجداث سراعاً** ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ **مقنعى رؤوسهم** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : رافعي رؤوسهم ، ﴿ **لا يرتد إليهم طرفهم** ﴾ أي أبصارهم ظاهرة شاخصة مديمون النظر ، لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم عياذاً بالله العظيم من ذلك ، ولهذا قال : ﴿ **وأفئدتهم هواء** ﴾ أى خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف ، ولهذا قال قتادة وجماعة : إن أمكنة أفئدتهم خالية ، لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف . وقال بعضهم : هى خراب لا تعى شيئاً لشدة ما أخبر به تعالى عنه ، ثم قال تعالى لرسوله ﷺ :

﴿ **وَأَنذِرِ النَّاسَ يَومَ يَأتِيهِمُ العَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِرنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِب دَعوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوٓاْ أَقسَمتُم مِن قَبلُ مَا لَكُم مِن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيفَ فَعَلنَا بِهِ وَضَرَبنَا لَكُمُ الأَمثَالَ * وَقَد مَكَرُوا مَكرَهُم وَعِندَ اللهِ مَكرُهُم وَإِن كَانَ مَكرُهُم لِتَزُولَ مِنهُ الجِبَالُ** ﴾ (إبراهيم ٤٤ - ٤٦)

يقول تعالى مخبرا عن قول الذين . ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب : ﴿ **ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل** ﴾ ، كقوله : ﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون** ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم** ﴾ الآيتين ، وقال تعالى مخبراً عنهم فى حال محشرهم : ﴿ **ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم** ﴾ الآية ، وقال : ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا** ﴾ الآية. ، وقال تعالى : ﴿ **وهم يصطرخون فيها** ﴾ الآية ، قال تعالى راداً عليهم فى قولهم هذا : ﴿ **أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال** ﴾ أى أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه ، وأنه لا معاد ولا جزاء فذوقوا هذا بذلك ، قال مجاهد وغيره ﴿ **ما لكم من زوال** ﴾ أى ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة ، كقوله : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت** ﴾ الآية ، ﴿ وسكنتم فى **مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال** ﴾ أى قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم معتبر ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿ **حكمة بالغة فما تغنى النذر** ﴾ . وروى العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾ يقول : ما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، وكذا قال الحسن البصرى ، ووجه ابن جرير بأن هذا الذى فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله كفرهم به ما ضر ذلك شيئاً من الجبال ولا غيرها ، وإنما عاد وبال ذلك عليهم ، ويشبه هذا قول الله تعالى : ﴿ **ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولاً** ﴾ ، والقول الثانى فى تفسيرها ما رواه على بن أبى طلحة . عن ابن عباس : ﴿ **وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾ يقول : شركهم كقوله : ﴿ **تكاد السموات والأرض يتفطرن منه** ﴾ الآية ، وهكذا قال الضحاك وقتادة .

يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات :

قال الله تعالى : ﴿ **فَلَا تَحسَبَنَّ اللهَ مُخلِفَ وَعدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۞ يَومَ تُبَدَّلُ الأَرضُ غَيرَ الأَرضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ** ﴾
(إبراهيم : ٤٧ - ٤٨)

يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً ﴿ **فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله** ﴾ أى من نصرتهم فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شىء أراده ولا يغالب ، وذو انتقام ممن كفر به وجحده ، ﴿ **فويل يومئذ للمكذبين** ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات** ﴾ أى وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض ، كما جاء فى الصحيحين ، عن سهل بن سعد قال ، قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس فيها معلم لأحد » ، وقال الإمام أحمد ، عن عائشة أنها قالت : أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات** ﴾ قالت ، قلت : أين الناس يومئذ يارسول الله ؟ قال : « على الصراط »[1] . وقال الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : كنت قائما عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار يهود فقال : السلام عليك يامحمد ، فدفعته دفعة كاد يصرع منها ، فقال : لم تدفعنى ؟ فقلت : ألا تقول يا رسول الله ؟ فقال اليهودى : إنما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله ، فقال رسول الله ﷺ : « إن اسمى محمد الذى سمانى به أهلى » ، فقال اليهودى جئت أسألك ، فقال رسول الله ﷺ : « أينفعك شيئاً إن حدثتك » ؟ فقال : أسمع بأذنى ، فنكت رسول الله بعود معه ، فقال : « سل » ، فقال اليهودى : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هم فى الظلمة دون الجسر » ، قال : فمن أول الناس إجازة ؟ فقال : « فقراء المهاجرين » ، فقال اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال : « زيادة كبد النون » ، قال : فما غذاؤهم فى أثرها ؟ قال : « ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها » ، فقال : فما شرابهم عليه ؟ قال : « من عين فيها تسمى سلسبيلاً » ، قال : صدقت . قال : وجئت أسألك عن شىء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبى أو رجل أو رجلان ، قال : « أينفعك إن حدثتك » ؟ قال : أسمع بأذنى ، قال جئت أسألك عن الولد ، قال : « ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر ، فإذا

---

(١) رواه مسلم وغيره .

اجتمعا فعلا منىّ الرجل منىّ المرأة كان ذكراً بإذن الله تعالى ، وإذا علا منىّ المرأة منىّ الرجل كان أنثى بإذن الله » ، قال اليهودى : لقد صدقت ، وإنك لنبى ، ثم انصرف ، فقال رول الله ﷺ : « لقد سألني هذا عن الذى سألني عنه ومالي علم بشيء منه حتى أتانى الله به » .

وروى أبو جعفرُ بن جرير الطبرى ، عن عمرو بن ميمون يقول : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض** ﴾ قال : أرض كالفضة البيضاء نقية ، لم يسفك فيها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة ، ينفذهم البصر ، ويسمعهم الداعى حفاة عراة كما خلقوا ، قال : أراه قال قياماً حتى يلجمهم العرق ، وعن عمرو بن ميمون عن عبد الله عن النبى ﷺ فى قول الله عز وجل : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض** ﴾ قال : « أرض بيضاء لم يسفك عليها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة »[1]. وقال الربيع ، عن أبى بن كعب قال : تصير السماوات جناناً . وقال الأعمش ، عن عبد الله بن مسعود : الأرض كلها نار يوم القيامة ، والجنة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها ، والذى نفس عبد الله بيده إن الرجل ليفيض عرقاً حتى ترشح فى الأرض قدمه ، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه ، وما مسه الحساب ، قالوا : ممّ ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال مما يرى الناس ويلقون . وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن كعب فى قوله : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات** ﴾ قال : تصير السماوات جناناً ويصير مكان البحر ناراً وتبدل الأرض غيرها . وقوله : ﴿ **وبرزوا لله** ﴾ أى خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ **الواحد القهار** ﴾ أى الذى قهر كل شيء وغلبه ، ودانت له الرقاب وخضعت له الألباب .

سرابيلهم من قطران :

قال الله تعالى : ﴿ **وَترى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِىَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ (إبراهيم : ٤٩ - ٥١)

(١) رواه الحافظ أبو بكر البزار .

يقول تعالى : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات** ﴾ وتبرز الخلائق لديَّانها ترى يامحمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم ، ﴿ **مقرّنين** ﴾ أى بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف ، كما قال تعالى : ﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم** ﴾ ، وقال : ﴿ **وإذا النفوس زوّجت** ﴾ ، وقال : ﴿ **وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً** ﴾ وقال : ﴿ **والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الأصفاد** ﴾ والأصفاد هى القيود[1] ، وقال عمرو بن كلثوم :

فآبوا ، بالثياب وبالسبايا　　　وأبنا بالملوك مصفدينا

وقوله تعالى : ﴿ **سرابيلهم من قطران** ﴾ أى ثيابهم التى يلبوسنها من قطران ، وهو الذى تهنأ به الإبل ، أى تطلى ، قال قتادة : وهو ألصق شىء بالنار ، وكان ابن عباس يقول : القطران هو النحاس المذاب[2] ، أى من نحاس حار قد انتهى حره ، وقوله : ﴿ **وتغشى وجوههم النار** ﴾ ، كقوله : ﴿ **تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون** ﴾ ، وقال الإمام أحمد ، عن أبى مالك الأشعرى قال ، قال رسول الله ﷺ : « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة على الميت ، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها ، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب »[3] ، وقوله : ﴿ **ليجزى الله كل نفس ما كسبت** ﴾ أى يوم القيامة ﴿ **ليجزى الذين أساءوا بما عملوا** ﴾ الآية ، ﴿ **إن الله سريع الحساب** ﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون** ﴾ ويحتمل أنه فى حال محاسبته لعبده سريع النجاز ، لأنه يعلم كل شىء ولا يخفى عليه خافية ، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم ، كقوله تعالى : ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** ﴾ ، وهذا معنى قول مجاهد : ﴿ **سريع الحساب** ﴾ إحصاءً ، ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين والله أعلم .

---

(١) قال ابن عباس وسعيد بن جبير والأعمش وعبد الرحمن بن زيد .

(٢) وهو مروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة .　(٣) أخرجه مسلم والإمام أحمد فى المسند .

﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعلَمُوٓا أَنمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَر أُوْلُواْ الأَلبَابِ ﴾ (إبراهيم : ٥٢)

يقول تعالى : هذا القرآن بلاغ للناس ، كقوله : ﴿ **لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ أى هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال فى أول السورة : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور** ﴾ الآية ، ﴿ **ولينذروا به** ﴾ أى ليتعظوا به ، ﴿ **وليعلموا أنما هو إله واحد** ﴾ أى يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله هو ، ﴿ **وليذكر أولو الألباب** ﴾ أى ذوو العقول .

(٣٤) الكفار فى النار يتمنون الإسلام ولكن هيهات :

قال الله تعالى : ﴿ **الٓر تِلكَ ءَايَاتُ الكِتَابِ وَقُرءَانٍ مُّبِينٍ * رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسلِمِينَ * ذَرهُم يَأكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوفَ يَعلَمُونَ** ﴾ (الحجر : ١ - ٣)

وقوله تعالى : ﴿ **ربما يود الذين كفروا** ﴾ إخبار عنهم على أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر ، ويتمنون لو كانوا فى الدنيا مسلمين ، وقيل : المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمنا ، وقيل هذا إخبار عن يوم القيامة ، كقوله تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين** ﴾ وقال بعضهم : يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين من المشركين فى النار ، قال : فيقول لهم المشركون : ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون فى الدنيا ، قال : فيغضب الله لهم بفضل رحمته ، فيخرجهم ، فذلك حين يقول : ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾[1] . وقال مجاهد : يقول أهل النار للموحدين : ما أغنى عنكم إيمانكم ؟ فإذا قالوا ذلك قال الله : أخرجوا من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فعند ذلك قوله : ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ ، وقد ورد فى

(١) روى هذا القول ابن جرير عن ابن عباس وأنس بن مالك وقال : كانا يتأولان الآية : ﴿ **ربما يود الذين كفروا** ﴾ بذلك التأويل .

ذلك أحاديث مرفوعة ، فقال الحافظ الطبرانى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم ، فيقول لهم أهل اللات والعزى : ما أغنى عنكم قولكم : ﴿ **لا إله إلا الله** ﴾ وأنتم معنا فى النار ؟ فيغضب الله لهم ، فيخرجهم فيلقيهم فى نهر الحياة ، فيبرءون من حرقهم ، كما يبرأ القمر من خسوفه ، ويدخلون الجنة ويسمون فيها الجهنميين » .

(الحديث الثانى) : عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « إذا اجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة ، قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلى قالوا : فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا فى النار ؟ قالوا : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها ، فسمع الله ما قالوا : فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأخرجوا ، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا : ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا – قال : ثم قرأ رسول الله ﷺ – أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ **الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾[1] » . وقوله : ﴿ **ذرهم يأكلون ويتمتعوا** ﴾ تهديد شديد لهم ووعيد أكيد ، كقوله تعالى : ﴿ **قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار** ﴾ ، وقوله : ﴿ **كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون** ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ **ويلههم الأمل** ﴾ أى عن التوبة والإنابة ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ أى عاقبة أمرهم .

(٣٥) أبواب جهنـــم :

قال الله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوعِدُهُم أَجمَعِينَ * لَهَا سَبعَةُ أَبوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنهُمْ جُزْءٌ مَّقسُومٌ** ﴾ (الحجر : ٤٣ – ٤٤)

أى جهنم موعد جميع من اتبع إبليس كما قال عن القرآن ، ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده** ﴾ ، ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب[2] ﴿ **لكل باب**

(١) قاله مجاهد والحسن وقتادة .

(٢) فى اللباب : أخرج الثعلبى : أن سلمان الفارسى لما سمع قوله تعالى : ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ فر ثلاثة أيام هاربا من الخوف لا يعقل ، فجىء به إلى النبى ﷺ ، فقال : يارسول الله ، أنزلت هذه الآية ؟ فوالذى بعثك بالحق لقد قطعت قلبى ، فأنزل الله : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ﴾ .

منها جزء مقسوم ﴾ أى قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس قد يدخلونه لا محيد لهم عنه أجارنا الله منها ، وكل يدخل من باب حسب عمله ويستقر فى درك بقدر عمله ، وعن على بن أبى طالب أنه قال : إن أبواب جهنم هكذا أطباق بعضها فوق بعض ، فيمتلىء الأول ثم الثانى ثم الثالث ، حتى تمتلىء كلها ، وقال عكرمة : سبعة أبواب سبعة أطباق ، وقال ابن جريج : سبعة أبواب أولها جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية[1] ، وقال قتادة ﴿ **لها سبعة أبواب لكل باب منها جزء مقسوم** ﴾ : هى والله منازل بأعمالهم ، وقال الترمذى ، عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتى - أو قال على أمة محمد - »[2] . وقال ابن أبى حاتم ، عن سمرة بن جندب عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **لكل باب منها جزء مقسوم** ﴾ قال : « إن أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه ، وإن منهم من تأخذه النار إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه ، منازلهم بأعمالهم ، فذلك قوله : ﴿ **لكل باب منهم جزء مقسوم** ﴾ .

(٣٦) سجن النار لأهل البوار :

قال الله تالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً** ﴾ (الإسراء : ٨)

أى مستقر ومحصراً وسجناً لا محيد عنه . قال ابن عباس ﴿ **حصيراً** ﴾ أى سجناً . **وقال الحسن : فراشاً ومهاداً ، وقال قتادة : قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحى محمد ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون .**

(٣٧) يوم القيامة كل إنسان حسيب نفسه :

قال الله تعالى : ﴿ **وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً** ﴾ (الإسراء : ١٣ - ١٤)

(١) روى الضحاك عن ابن عباس نحوه ، وكذلك روى عن الأعمش .
(٢) رواه الترمذى وقال : لا نعرفه إلا من حديث مالك ابن مغول .

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بنى آدم : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه** ﴾ ، وطائره : هو ما طار عنه من عمله ، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : من خير وشر ، ويلزم به ويجازى عليه ، ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ ، وقال : ﴿ **وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون** ﴾ . والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره ، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً ، صباحاً ومساءً ، وقال الإمام أحمد عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لطائر كل إنسان فى عنقه » . وقوله : ﴿ **ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا** ﴾ أى نجمع له عمله كله فى كتاب ، يعطاه يوم القيامة ، إما بيمينه إن كان سعيدا ، أو بشماله إن كان شقياً ﴿ **منشوراً** ﴾ أى مفتوحاً يقرؤه هو وغيره ، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿ **ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وآخر** ﴾ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾ أى إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت ، لأنك ذكرت جميع ما كان منك ، ولا ينسى أحد شيئا مما كان منه ، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمى ، وقوله : ﴿ **ألزمناه طائره فى عنقه** ﴾ إنما ذكر العنق لأنه عضو لا نظير له فى الجسد ، ومن ألزم بشىء فيه فلا محيد له عنه ، عن النبى ﷺ قال : « ليس من عمل يوم إلا ويختم عليه ، فإذا مرض العبد قالت له الملائكة : ياربنا عبدك فلان قد حبسته ، فيقول الرب جل جلاله : اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت »[1] . وقال معمر عن قتادة ﴿ **ألزمناه طائره فى عنقه** ﴾ قال : عمله ، ﴿ **ونخرج له يوم القيامة** ﴾ قال : نخرج ذلك العمل ﴿ **كتابا يلقناه منشورا** ﴾ قال معمر : وتلا الحسن البصرى ﴿ **عن اليمين وعن الشمال قعيد** ﴾ ياابن آدم بسطت لك صحيفتك . ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك . وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن عقبة بن عامر وإسناده قوى جيد كذا قال ابن كثير .

حتى تخرج يوم القيامة كتابا تلقاه منشورا ﴿ اقرأ كتابك ﴾ الآية : فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك ، هذا من أحسن كلام الحسن رحمه الله .

(٢٨) الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه :

قال الله تعالى : ﴿ **مَّنِ اهتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهتَدِى لِنَفسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزرَ أُخرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِبِينَ حَتَّىٰ نَبعَثَ رَسُولًا** ﴾ (الإسراء : ١٥)

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى أثر النبوة ، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه . ﴿ **ومن ضل** ﴾ أى عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد ، فإنما يجنى على نفسه ، وإنما يعود وبال ذلك عليه ، ثم قال : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ أى لا يحمل أحد ذنب أحد ؟ ولا يجنى جان إلا على نفسه . كما قال تعالى : ﴿ **وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء** ﴾ ، ولا منافاة بين هذا وبين قوله : ﴿ **وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم** ﴾ ، وقوله : ﴿ **ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم** ﴾ فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم فى أنفسهم ، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا ، وهذا من عدل الله .

(٣٩) إبليس وراء كل قول أو فعل يقرب من النار :

قال الله تعالى : ﴿ **قَالَ اذهَب فَمَن تَبِعَكَ مِنهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُم جَزَآءً مَّوفُوراً • وَاستَفزِز مَنِ استَطَعتَ مِنهُم بِصَوتِكَ وَأَجلِب عَلَيْهِم بِخَيلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكهُم فِى الأَموَالِ وَالأَوْلَادِ وَعِدهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا • إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيهِم سُلطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِكَ وَكِيلاً** ﴾ (الإسراء : ٦٣ - ٦٥)

لما سأل إبليس النظرة قال الله له ﴿ **اذهب** ﴾ فقد أنظرتك ، كما قال فى الآية الأخرى ﴿ **فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم** ﴾ ، ثم أوعده ومن تبعه من ذرية آدم جهنم ﴿ **قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم** ﴾ أى على أعمالكم ﴿ **جزاء موفورا** ﴾ قال مجاهد : وافراً ، وقال قتادة : موفورا عليكم

لا ينقص لكم منه . وقوله تعالى : ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك** ﴾ قيل : هو الغناء . قال مجاهد : باللهو والغناء ، أى من استخفهم بذلك ، وقال ابن عباس فى قوله ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك** ﴾ قال : كل داع دعا إلى معصية الله عزّوجلّ ، واختاره ابن جرير ، وقوله تعالى : ﴿ **وأجلب عليهم بخيلك ورجلك** ﴾ يقول : واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم ، فإن الرجل جمع راجل ، كما أن الركب جمع راكب ، ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه ، وهذا أمر قدرى ، كقوله تعالى : ﴿ **ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا** ﴾ أى تزعجهم إلى المعاصى إزعاجاً وتسوقهم إليها سوقاً . وقال قتادة : إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس وهم الذين يطيعونه ؛ تقول العرب : أجلب فلان على فلان إذا صاح عليه ومنه نهى فى المسابقة عن الجلب والجنب ، ومنه اشتقاق الجلبة ، وهى ارتفاع الأصوات ، وقوله تعالى : ﴿ **وشاركهم فى الأموال والأولاد** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال فى معاصى الله تعالى ، وقال عطاء : هو الربا ، وقال الحسن : هو جمعها من خبيث وإنفاقها فى حرام ، والآية تعم ذلك كله ، وقوله : ﴿ **والأولاد** ﴾ يعنى أولاد الزنا[1] ، وقال ابن عباس : هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفها بغير علم ، وقال الحسن البصرى : قد والله شاركهم فى الأموال والأولاد ، مجّسوا وهوّدا ونصّروا وصبغوا غير صبغة الإسلام ، وجزأوا من أموالهم جزءاً للشيطان ، وقال أبو صالح عن ابن عباس : هو تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد فلان .

ورحمته بعباده ، وكذا قوله تعالى : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ إخبار عن عدله تعالى ؛ وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، بإرسال الرسول إليه كقوله تعالى : ﴿ **كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ، قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا** ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ **وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين** ﴾ ، وقال تعالى :

---

(١) قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك .

﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه .

مسألة (الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار ، ماذا حكمهم)

بقي هنا مسألة قد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فيها قديماً وحديثاً ، هي الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار ماذا حكمهم ! وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف ، ومن مات فى الفترة ولم تبلغه دعوه . وقد ورد فى شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه ، ثم نذكر فصلاً ملخصاً من كلام الأئمة فى ذلك والله المستعان[1] .

فصـــل

إذا تقرر هذا ، فقد اختلف الناس فى ولدان المشركين على أقوال : (أحدها) : أنهم فى الجنة ، واحتجوا بحديث سمرة أنه عليه السلام رأى مع إبراهيم عليه السلام أولاد المسلمين وأولاد المشركين ، (القول الثانى) : أنهم مع آبائهم فى النار : واستدل عليه بما روى عن عبد الله بن أبى قيس ، أنه أتى عائشة فسألها عن ذرارى الكفار فقالت ، قال رسول الله ﷺ : « هم تبع لآبائهم » . فقلت : يارسول الله بلا أعمال ؟ فقال : « والله أعلم بما كانوا عاملين »[2] . (والقول الثالث) : التوقف فيهم ، واعتمدوا على قوله ﷺ : « الله أعلم بما كانوا عاملين » . وهو فى الصحيحين ، ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف ، وهذا القول يرجع إلى من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة ، لأن الأعراف ليس لهم دار قرار ، ومآل أهلها إلى الجنة ، كما تقدم تقرير ذلك فى سورة الأعراف ، والله أعلم ، وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين ، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء

● (١) اكتفيت فقط بذكر الفصل الملخص لأن فيه كفاية

(٢) أخرجه الإمام أحمد .

من أنهم من أهل الجنة ، وهذا هو المشهور بين الناس وهو الذى تقطع به إن شاء الله عزّ وجلّ .

قال ابن جرير : وأولى الأقوال بالصواب أن يقال كل مولود ولدته أنثى عصى الله فيه بتسميته بما يكرهه الله ، أو بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله أو وأده ، أو غير ذلك من الأمور التى يعصى الله بفعله به ، فقد دخل فى مشاركة إبليس فيه لأن الله لم يخصص بقوله : ﴿ **وشاركهم فى الأموال والأولاد** ﴾ معنى الشركة فيه ، بمعنى دون معنى ، فكل ما عصى الله فيه أو به ، أو أطيع الشيطان فيه أبو به فهو مشاركة .

وهذا الذى قال متجه . وكل من السلف رحمهم الله فسر بعض المشاركة ، وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال باسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره الشيطان أبداً » ، وقوله تعالى : ﴿ **وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً** ﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول ، إذا حصحص الحق يوم يقضى بالحق : ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** ﴾ إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ، ولهذا قال تعالى : ﴿**وكفى بربك وكيلاً** ﴾ أى حافظاً ومؤيدا ونصيراً . وفى الحديث : « إن المؤمن لينضى شياطينه كما ينضى أحدكم بعيره فى السفر »[1] ينضى أى يأخذ بناصيته ويقهره .

[**فائدة** : قال رسول الله ﷺ : « إن على الله عهداً لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال ، قيل يارسول الله وما طينة الخبال ؟ قال : (عرق أهل النار) » رواه مسلم . وقال رسول الله ﷺ : « .... ومن مات وهو يشرب الخمر سقاه الله من نهر الغوطة وهو ماء يجرى من فروج المومسات – أى الزانيات – يؤذى أهل النار ريح فروجهن » رواه الإمام أحمد] .

---

(١) رواه أحمد عن أبى هريرة مرفوعا .

(٤٠) الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم :

قال الله تعالى : ﴿ **وَمَن يَهدِ اللَّهُ فَهُوَ المُهتَدِ وَمَن يُضلِل فَلَن تَجِدَ لَهُم أَولِيَآءَ من دُونه وَنَحشُرُهُم يَومَ القِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِم عُميًا وَبُكمًا وصُمًا مَأوَاهُم جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَت زِدنَاهُم سَعِيراً** ﴾ (الإسراء : ٩٧) .

يقول تعالى مخبرا عن تصرفه فى خلقه ونفوذ حكمه ، وأنه لا معقب له بأنه من يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلن تجد له أولياء من دونه ، أى يهدونهم ، كما قال : ﴿ **من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا** ﴾ ، وقوله : ﴿ **ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم** ﴾ ، عن أنس بن مالك : قيل يارسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال : « الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم »[١] . وعن حذيفة بن أسيد ، قال ، قام أبو ذر فقال : يابنى غفار قولوا ولا تحلفوا فإن الصادق المصدوق حدثنى : أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج ، فوج راكبين طاعمين كاسين ، وفوج يمشون ويسعون ، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار »[٢] وقوله ﴿ **عميا** ﴾ أى لا يبصرون ﴿ **وبكما** ﴾ يعنى لا ينطقون ﴿ **وصما** ﴾ لا يسمعون . وهذا يكون فى حال دون حال ، جزاؤهم كما كانوا فى الدنيا ، بكماً وعمياً وصماً عن الحق ، فجوزوا فى محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجونه إليه ، ﴿ **مأواهم** ﴾ أى منقلبهم ومصيرهم ﴿ **جهنم كلما خبت** ﴾ قال ابن عباس : سكنت ، وقال مجاهد : طفئت ﴿ **زدناهم سعيرا** ﴾ أى لهباً ووهجاً وجمراً ، كما قال : ﴿ **فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا** ﴾ .

(٤١) ماء جهنم أسود وهى سوداء وأهلها سود :

قال الله تعالى : ﴿ **وَقُلِ الحَقُّ مِن رَّبِّكُم فَمَن شَآءَ فَليُؤمِن وَمَن شَآءَ فَليَكفُر إِنَّآ أَعتَدنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِم سُرَادِقُهَا وَإِن يَستَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ**

---

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد .

(٢) أخرجه الإمام أحمد .

كَالْمُهلِ يَشوِى الْوُجُوهَ بِئس الشَّرَابُ وَسَآءَت مُرتَفَقًا ﴾ (الكهف : ٢٩)

يقول تعالى لرسوله ﷺ : قل يامحمد للناس هذا الذى جئتكم به من ربكم ، هو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ ، هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ، ولهذا قال : ﴿ إنا أعتدنا ﴾ أى أرصدنا ﴿ للظالمين ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿ ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾ أى سورها ، وعن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لسرادق النار أربعة جدر ، كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة »[1] وقال ابن عباس ﴿ أحاط بهم سرادقها ﴾ قال : « حائط من نار » وقوله : ﴿ إن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ﴾ الآية قال ابن عباس : المهل الماء الغليظ ، مثل دردى الزيت ، وقال مجاهد : هو كالدم والقيح ، وقال عكرمة : هو الشيء الذى انتهى حره ، وقال الضحاك : ماء جهنم أسود وهى سوداء وأهلها سود ، وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفى الآخر ، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها ، فهو أسود منتن غليظ حار ، ولهذا قال : ﴿ يشوى الوجوه ﴾ : أى من حره ، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه ، حتى تسقط جلدة وجهه فيه ، كما جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ماء كالمهل ، قال : كعكر الزيت فإذا قربه إليه سقطت فروة وجهه فيه »[2] ، وعن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ﴾ قال : يقرب إليه فيتكرهه ، فإذا قرب منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءهم ، يقول الله تعالى : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب ﴾[3] ، وقال سعيد بن جبير : إذا جاع أهل النار استغاثوا فأغيثوا بشجرة الزقوم ، فيأكلون منها فاجتثت جلود وجوههم ، فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها ، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل ، وهو الذى قد انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود ، ولهذا قال تعالى بعد

---

(١) أخرجه أحمد والترمذى فى صفة النار وابن جرير فى تفسيره .

(٢) أخرجه أحمد والترمذى . (٣) أخرجه عبد الله بن المبارك عن أبى أمامة مرفوعاً .

وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة ﴿ بئس الشراب ﴾ أى بئس هذا الشراب ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أى حارة ، كما قال تعالى : ﴿ وبين حميم آن ﴾ ﴿ وساءت مرتفقاً ﴾ أى وساءت النار منزلا ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق ، كما قال فى الآية الأخرى ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ .

(٤٢) المشركون فى النار ينادون آلهتهم فلم يستجيبوا لهم :

قال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ الَّذِينَ زَعَمْتُم فَدَعَوْهُم فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُم وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوبِقاً * وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (الكهف : ٥٢ - ٥٣)

يقول تعالى مخبرا عما يخاطب به المشركين يوم القيامة ، على رؤوس الأشهاد تقريعاً لهم وتوبيخاً ﴿ نادوا شركائى الذين زعمتهم ﴾ أى فى دار الدنيا ، ادعوهم اليوم ينقذوكم مما أنتم فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتهم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ ، وقوله : ﴿ فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ ، كما قال : ﴿ وقيل ادعو شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ الآية ، وقال : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهـة ليكونوا لهم عزاً كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ ، وقوله : ﴿ وجعلنا بينهم موبقا ﴾ قال ابن عباس : مهلكاً ، وقال قتادة : موبقاً واديا فى جهنم . وقال ابن جرير ، عن أنس بن مالك فى قوله تعالى : ﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ قال : واد فى جهنم من قيح ودم ، وقال الحسن البصرى : موبقاً : عداوة ، والظاهر من السياق هنـا أنه المهلك ، ويجوز أن يكون وادياً فى جهنم أو غيره ، والمعنى أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التى كانوا يزعمون فى الدنيا ، وأنه يفرق بينهم وبينها فى الآخرة ، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر ، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير ، قال تعالى : ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ وقال تعالى : ﴿ ويوم

نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم ﴾ ، وقوله : ﴿ **ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا** ﴾ أى أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك . فإذا رأى المجرمون النار تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم ، فان توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز ، وقوله : ﴿ **ولم يجدوا عنها مصرفا** ﴾ أى ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ، ولابد لهم منها . وقال ابن جرير ، عن أبى سعيد ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن الكافر ليرى جهنم فيظن أنها مواقعته من مسيرة أربعمائة سنة » .

(٤٣) جهنم تعرض للكافرين قبل وصولهم إليها :

قال الله تعالى : ﴿ **وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً . الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا . أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا** ﴾ (الكهف : ١٠٠ - ١٠٢)

يقول تعالى مخبرا عما يفعله الكفار يوم القيامة : أنه يعرض عليهم جهنم ، أى يبرزها لهم ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ليكون ذلك أبلغ فى تعجيل الهم والحزن لهم ، وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال ، قال رسول الله ﷺ « يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك »[١] . ثم قال مخبرا عنهم ﴿ **الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى** ﴾ أى تغافلوا عن قبول الهدى واتباع الحق . كما قال : ﴿ **ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين** ﴾ ، وقال هنا : ﴿ **وكانوا لايستطيعون سمعاً** ﴾ أى لا يعقلون عن الله أمره ونهيه ، ثم قال : ﴿ **أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء** ﴾ أى اعتقدوا أنهم يصح لهم

---

(١) اخرجه مسلم عن ابن مسعود .

ذلك وينتفعون به ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً .

(٤٤) شرطا النجاة من النار الصواب والإخلاص :

قال الله تعالى : ﴿ قُل هَل نُنَبِّئُكُم بِالأَخسَرِينَ أَعمَالاً ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعيُهُم فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا وَهُم يَحسَبُونَ أَنَّهُم يُحسِنُونَ صُنعًا ۝ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِم وَلِقَائِهِ فَحَبِطَت أَعمَالُهُم فَلَا نُقِيمُ لَهُم يَومَ القِيَامَةِ وَزنًا ۝ ذَلِكَ جَزَاؤُهُم جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾

(الكهف : ١٠٣ - ١٠٦)

عن مصعب قال : سألت أبى ، يعنى سعد بن أبى وقاص ، عن قول الله : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ أهم الحرورية ؟ قال : لا ، هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، فكان سعد رضى الله عنه يسميهم الفاسقين »[1]وقال على بن أبى طالب والضحاك وغير واحد : هم الحرورية ، ومعنى هذا عن على رضى الله عنه ، أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم ، لأنها نزلت فى هؤلاء على الخصوص ، وإنما هى عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها ، وأن عمله مقبول ، وهو مخطىء وعمله مردود ، كما قال تعالى : ﴿ وقدمنا إلى عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ والذين كفروا بربهم أعمالهم كسراب بقيعة يحسبة الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ﴾ ، وقال فى هذه الآية الكريمة ﴿ قل هل ننبئكم ﴾ أى نخبركم ﴿ بالأخسرين أعمالا ﴾ ، ثم فسرهم فقال : ﴿ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ﴾ أى عملوا أعمالا باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة ، ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ أى يعتقدون أنهم على شيء ، وأنهم مقبولون محبوبون ، وقوله : ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ﴾ : أى جحدوا آيات الله

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى باب التفسير

فى الدنيا ، وبراهينه التى أقام على وحدانيته ، وصدق رسله وكذبوا بالدار الآخرة ، ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا** ﴾ أى لا نثقل موازينهم لأنها خالية عن الخير ، روى البخارى ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة – وقال – اقرأوا إن شئتم : ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** ﴾ ، وقال ابن أبى حاتم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالرجل الأكول الشروب العظيم فيوزن بحبة فلا يزنها » ، قال ثم قرأ : ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** ﴾ ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فأقبل رجل من قريش يخطر فى حلة له ، فلما قام على النبى ﷺ قال : « يابريدة هذا ممن لا يقيم الله له يوم القيامة وزناً »[1] ، وعن كعب قال : يؤتى يوم القيامة برجل عظيم طويل فلا يزن عند الله جناح بعوضة ، اقرأوا : ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** ﴾[2] . وقوله : ﴿ **ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا** ﴾ أى إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم ، واتخاذهم آيات الله ورسوله هزواً استهزأوا بهم وكذبوهم أشد التكذيب .

(٤٥) النار لمن كذب على الله وافترى :

قال الله تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾

(مريم : ٣٧)

تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله وافترى ، وزعم أن له ولداً ، ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة ، وأجلهم حلماً فإنه الذى لا يعجّل على من عصاه ، كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم » وقد قال تعالى : ﴿ **وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىّ المصير** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص**

---

(١) أخرجه الحافظ البزار .

(٢) أخرجه ابن جرير فى تفسيره .

فيه الأبصار ﴾ ، ولهذا قال ههنا : ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ أى يوم القيامة . وقد جاء فى الحديث الصحيح المتفق على صحته عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق . والنار حق ؛ أدخله الله الجنة على ما كان عليه من العمل » .

الموت يذبح بين الجنة والنار :

قال الله تعالى : ﴿ **أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَـٰكِنِ الظَّـٰلِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ * وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ** ﴾ (مريم : ٣٩ - ٤٠)

يقول تعالى مخبرا عن الكفار يوم القيامة : ﴿ **أسمع بهم وأبصر** ﴾ أى ما أسمعهم وأبصرهم ﴿ **يوم يأتوننا** ﴾ يعنى يوم القيامة ، ﴿ **لكن الظالمون اليوم** ﴾ أى فى الدنيا ﴿ **فى ضلال مبين** ﴾ أى : لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون . فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون ، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة** ﴾ أى أنذر الخلائق يوم الحسرة ﴿ **إذ قضى الأمر** ﴾ : أى فصل بين أهل الجنة وأهل النار ، وصار كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه ، ﴿ **وهم** ﴾ أى اليوم ﴿ **فى غفلة** ﴾ عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة ﴿ **وهم لا يؤمنون** ﴾ أى : لا يصدقون به . عن أبى سعيد الخدرى قال ، قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، يجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : ياأهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ قال ، فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت ، قال ، فيؤمر به فيذبح ، قال ، ويقال : ياأهل النار هل تعرفون هذا ؟ قال ، فيشرئبون وينظرون ويقولون ، نعم هذا الموت ، قال ، فيؤمر به فيذبح ، قال ، ويقال : ياأهل النار هل تعرفون هذا ؟ قال ، فيشرئبون وينظرون ويقولون ، نعم هذا الموت ، قال ،

ويقال : ياأهل الجنة خلود ولا موت ، وياأهل النار خلود ولا موت ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة إذا قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون** ﴾ ، وأشار بيده ثم قال : « أهل الدنيا فى غفلة الدنيا »[1] .

وقال السدى عن ابن مسعود فى قوله ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر** ﴾ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، أتى بالموت فى صورة كبش أملح حتى يوقف بين الجنة والنار ، ثم ينادى مناد : ياأهل الجنة هذا الموت الذى كان يميت الناس فى الدنيا ، فلا يبقى أحد فى أهل عليين ، ولا فى أسفل درجة فى الجنة إلا نظر إليه ، ثم يناد مناد : ياأهل النار هذا الموت الذى كان يميت الناس فى الدنيا فلا يبقى أحد فى ضحضاح من نار ولا فى أسفل درك من جهنم إلا نظر إليه ، ثم يذبح بين الجنة والنار ، ثم ينادى ياأهل الجنة هو الخلود أبد الآبدين . وياأهل النار هو الخلود أبد الآبدين ، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتاً من فرح ماتوا ، ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتاً من شهقة ماتوا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر** ﴾ : يقول إذا ذبح الموت[2] . وقال ابن عباس ﴿ **يوم الحسرة** ﴾ من أسماء يوم القيامة ، عظمه الله وحذره عباده ، وقال عبد الرحمن بن زيد ، فى قوله : ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة** ﴾ قال يوم القيامة ، وقرأ : ﴿ **أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله** ﴾ ، وقوله : ﴿ **إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون** ﴾ يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف ، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس ، ولا أحد يدعى ملكاً ولا تصرفاً ، بل هو الوارث لجميع خلقه الباقى بعدهم ، الحاكم فيهم ، فلا تظلم نفس شيئا ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة .

(٤٦) واد فى جهنم من قيح ودم لمن أضاع الصلاة :

قال الله تعالى : ﴿ **فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا** ﴾ (مريم : ٤٦)

---

(١) رواه أحمد عن أبى سعيد الخدرى واللفظ له وأخرجه الشيخان عن ابن عمر ولفظهما قريب من ذلك .

(٢) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره .

لما ذكر الله تعالى حزب السعداء وهم من الأنبياء عليهم السلام ، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره المؤدين فرائض الله التاركين لزواجره ، ذكر أنه **﴿ خلف من بعدهم خلف ﴾** أي قرون آخر ، **﴿ أضاعوا الصلاة ﴾** ، أقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، فهؤلاء سيلقون غياً ، أي خساراً يوم القيامة ، وقد اختلفوا فى المراد بإضاعة الصلاة ههنا ، فقال قائلون : المراد بإضاعتها بالكلية . قاله محمد بن كعب القرظى والسدى واختاره ابن جرير ، ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو مشهور عن الإمام أحمد ، إلى تكفير تارك الصلاة للحديث : « بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة »(١) ، والحديث الآخر : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » ، وليس هذا محل بسط هذه المسألة . وقال الأوزاعى : إنما أضاعوا المواقيت ولو كان تركاً كان كفراً . وقيل لابن مسعود : إن الله يكثر ذكر الصلاة فى القرآن **﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾** ، و **﴿ على صلاتهم دائمون ﴾** ، و **﴿ على صلاتهم يحافظون ﴾** ، فقال ابن مسعود : على مواقيتها ، قالوا : ما كنا نرى ذلك إلا على الترك ، قال : ذلك الكفر ، وقال مسروق : لا يحاسب أحد على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين ، وفى إفراطهن الهلكة ، وإفراطهن إضاعتهن عن وقتهن ، وقال الأوزاعى ، قرأ عمر بن عبد العزيز : **﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ﴾** ، ثم قال : لم تكن إضاعتهم تركها ولكن أضاعوا الوقت ، وقال مجاهد : ذلك عند قيام الساعة ، وذهاب صالحى أمة محمد ﷺ ينزو بعضهم على بعض فى الأزقة . وقال ابن جرير ، عن مجاهد **﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ﴾** قال : هم فى هذه الأمة يتراكبون تراكب الأنعام والحمر فى الطرق ، لا يخافون الله فى السماء ، ولا يستحيون من الناس فى الأرض . وقال كعب الأحبار : والله إنى لأجد صفة المنافقين فى كتاب الله عزّ وجل : شرابين للقهوات ، تراكين للصلوات ، لعابين بالكعبات ، رقادين عن العتمات ، مفرطين فى الغدوات ، تراكين للجماعات ، قال : ثم تلا هذه الآية ، **﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون**

---

(١) الحديث : أخرجه مسلم والترمذى عن جابر بلفظ « بين الرجل وبين الشرك والكفر ... »

غيا ﴾ ، وقال الحسن البصرى : عطلوا المساجد ولزموا الضيعات . وقال أبو الأشهب : أوحى الله إلى داود عليه السلام : ياداود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة ، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدى إذا آثر شهوة من شهواته أن أحرمه طاعتى ، وقوله : ﴿ **فسوف يلقون غياً** ﴾ ، قال ابن عباس : أى خسراناً ، وقال قتادة شراً ، وقال عبد الله بن مسعود ﴿ **فسوف يلقون غياً** ﴾ قال : وادٍ فى جهنم بعيد القعر خبيث الطعم ، وقال الأعمش ، عن زياد ، عن أبى عياض فى قوله ﴿ **فسوف يلقون غياً** ﴾ قال : وادٍ فى جهنم من قيح ودم .

(٤٧) لا يبقى بر ولا فاجر إلا مر على النار :

قال الله تعالى : ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا** ﴾ (مريم : ٧١ - ٧٢)

روى الإمام أحمد ، عن أبى سمية قال : اختلفنا فى الورود ، فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضهم يدخلونها جميعا ، ثم ينجى الله الذين اتقوا ، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له : إنا اختلفنا فى الورود ، فقال : يردونها جميعاً ، وأهوى بأصبعه إلى أذنيه ، وقال : صمتاً إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم ، ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً » . وعن قيس بن أبى حازم قال : كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه فى حجر امرأته فبكى ، بكت امرأته ، قال : ما يبكيك ؟ قالت : رأيتك تبكى فبكيت ، قال : إنى ذكرت قول الله عز وجل : ﴿ **وإن منك إلا واردها** ﴾ فلا أردى أنجو منها أم لا ، وكان مريضاً[١]. وقال ابن جرير عن أبى إسحاق : كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال : ياليت أمى لم تلدنى ، ثم يبكى فقيل له : ما يبكيك ياأبا ميسرة ؟ فقال : أخبرنا أنا واردوها ولم نخبر أنا صادرون عنها ، وعن الحسن البصرى قال : قال رجل لأخيه هل أتاك أنك وارد النار ؟

(١) أخرجه عبد الرازق .

قال : نعم ، قال : فهل أتاك أنك صادر عنها ، قال : لا ، قال ففيم الضحك ، قال : فما رئى ضاحكا حتى لحق بالله ، وقال عبدالرازق : خاصم ابن عباس نافع ابن الأزرق ، فقال ابن عباس : الورود الدخول ، فقال نافع : لا ، فقرأ ابن عباس : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ، أنتم لها واردون** ﴾ وردوا أم لا ؟ وقال : ﴿ **يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار** ﴾ أوردهم أم لا ؟ أما أنا وأنت فسندخلها ، فانظر هل تخرج منها أم لا ؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك ، فضحك نافع وقال : عن مجاهد قال : كنت عند ابن عباس فأتاه رجل يقال له أبو راشد ، وهو نافع بن الأزرق ، فقال له : ياابن عباس ، أرأيت قول الله ﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضياً** ﴾ ، قال : أما أنا وأنت ياأبا راشد فسنردها فانظر هل نصدر عنه أم لا ؟

وعن عبد الله بن مسعود ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم »[1] وقد رواه أسباط عن السدى ، عن مرة عن عبدالله بن مسعود قال : يرد الناس جميعاً الصراط ، وورودهم قيامهم حول النار ، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل ، ومنهم من يمر كعدو الرجل ، حتى أن آخرهم مراً رجل نوره على موضع إبهامى قدميه يمر فيتكفأ به الصراط ، والصراط دحض مزلة ، عليه حسك كحسك القتاد ، بحافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون به الناس[2] ، وقال ابن جرير ، عن عبدالله قوله : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ قال : الصراط على جهنم مثل حد السيف ، فتمر الطبقة الأولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم ، ثم يمرون والملائكة يقولون اللهم سلم سلم ، ولهذا شواهد فى الصحيحين وغيرهما ، عن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة ، قالت كان رسول الله ﷺ فى بيت حفصة فقال : « لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية » ، قالت حفصة : أليس الله يقول : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ ؟ فقال رسول الله ﷺ : ﴿ **ثم ننجى**

---

(١) رواه أحمد والترمذى . (٢) أخرجه ابن أبى حاتم .

الذين اتقوا] الآية ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحله القسم » يعني الورود . وقال قتادة في قوله : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ هو الممر عليها ، وقال عبد الرحمن بن زيد : ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها ، وورود المشركين أن يدخلوها ، والزالون والزالات يومئذ كثير . وقد أحاط بالجسر يومئذ سماطان من الملائكة دعاؤهم ياالله سلم سلم » وقال السدى ، عن ابن مسعود في قوله : ﴿ **كان على ربك حتما مقضيا** ﴾ قال : قسما واجباً ، وقال ماجهد : حتما : قال : قضا ، وقوله : ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا** ﴾ أي إذا مر الخلائق كلهم على النار ، وسقط فيهم من سقط من الكفار ، والعصاة ، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم ، فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا ، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين ، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم ، وهي مواضع السجود ، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود ، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً** ﴾ .

(٤٨) الكافرون يستعجلون عذاب النار وهو يأتيهم بغته :

قال الله تعالى : ﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الوَعدُ إِن كُنتُم صَادِقِينَ * لَو يَعلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِم وَلَا هُم يُنصَرُونَ * بَل تَأتِيهِم بَغتَةً فَتَبهَتُهُم فَلَا يَستَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُم يُنظَرُونَ** ﴾ (الأنبياء : ٣٨ – ٤٠) .

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضا بوقوع العذاب بهم ، تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً فقال : ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾ ؟ قال الله تعالى : ﴿ **لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم** ﴾ أي لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا ، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم

﴿ هم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾ ، وقال فى هذه الآية : ﴿ حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾ ، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أى لا ناصر لهم ، كما قال : ﴿ وما لهم من الله من واق ﴾ ، وقوله : ﴿ بل تأتيهم بغتة ﴾ أى تأتيهم النار بغتة أى فجأة ، ﴿ فتبهتهم ﴾ أى تذعرهم فيستسلمون لها ، حائرين لا يدرون ما يصنعون ﴿ فلا يستطيعون ردها ﴾ أى ليس لهم حيلة فى ذلك ، ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أى ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة .

(٤٩) الميزان يوم القيامة :

قال الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَردَلٍ أَتَينَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الأنبياء : ٤٧)

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ﴾ أى ونضع الموازين العدل ليوم القيامة ، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه ، وقوله : ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ ، وقال : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ ، وقال لقمان : ﴿ يابنى إنها إن تلك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم »[1] ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يستخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟

قال : لا يارب ، قال : أفلك عذر أو حسنة ؟ قال : فبهت الرجل ، فيقول : لا يارب فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فيقول : أحضروه ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : إنك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة ، قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، قال : ولا يثقل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم »[1] ، وقال الإمام أحمد ، عن عائشة . أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه فقال : يارسول الله إن لى مملوكين يكذبوننى ويخونوننى ويعصوننى ، وأضربهم وأشتمهم فكيف أنا منهم ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل الذى بقى قبلك » ، فجعل الرجل يبكى بين يدى رسول الله ﷺ ويهتف ، فقال رسول الله ﷺ : « ما له لا يقرأ كتاب الله » ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ فقال الرجل : يارسول الله ما أجد شيئا خيرا من فراق هؤلاء – يعنى عبيده – إنى أشهدك أنهم أحرار كلهم . أخرجه الإمام أحمد فى المسند .

(٥٠) المشركون وآلهتهم حصب جهنم

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُم لَهَا وَارِدُونَ * لَو كَانَ هَٰؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُم فِيهَا زَفِيرٌ وَهُم فِيهَا لَا يَسمَعُونَ** ﴾ (الأنبياء : ٩٨ – ١٠٠)

يقول تعالى : مخاطباً لأهل مكة من مشركى قريش : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم** ﴾ قال ابن عباس : أى وقودها ، يعنى كقوله :

---

(١) أخرجه الإمام والترمذى وابن ماجه وقال الترمذى حسن غريب .

﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ . وفى رواية قال : ﴿ حصب جهنم ﴾ يعنى حطب جهنم[1] وقال الضحاك ﴿ حصب جهنم ﴾ : أى ما يرمى به فيها ، والجميع قريب . وقوله : ﴿ أنتم لها واردون ﴾ : أى داخلون ، ﴿ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ﴾ يعنى لو كانت آلهة صحيحة لما وردوا النار وما دخلوها ، ﴿ وكل فيها خالدون ﴾ : أى العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون ، ﴿ لهم فيها زفير ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لهم زفير وشهيق ﴾ ، والزفير : خروج أنفاسهم ، والشهيق ولوج أنفاسهم ﴿ وهم فيها لا يسمعون ﴾ قال ابن أبى حاتم ، عن ابن مسعود : إذا بقى من يخلد فى النار جعلوا فى توابيت من نار فيها مسامير من نار ، فلا يرى أحد منهم أنه يعذب فى النار غيره ثم تلا عبد الله : ﴿ لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾ .

(٥١) الكافرون يستعجلون العذاب وهو واقع بهم :

قال الله تعالى : ﴿ وَيَستَعجِلُونَكَ بِالعَذَابِ وَلَن يُخلِفَ اللهُ وَعدَهُ وَإِنَّ يَومًا عِندَ رَبِكَ كَأَلفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝ وَكَأَيِن مِن قَريَةٍ أَملَيتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذتُهَا وَإِلَيَّ المَصِيرُ ﴾ (الحج : ٤٧ - ٤٨)

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ أى هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله ورسوله واليوم الآخر ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ، ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ . وقوله : ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ أى الذى قد وعد من إقامة الساعة . والانتقام من أعدائه ، والإكرام لأوليائه . وقوله : ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ أى لا يعجل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شيء وإن أجل وأنظر ، لهذا قال بعد هذا : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىَّ المصير ﴾ . عن أبى هريرة أن الرسول ﷺ قال : يدخل

فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام »[1] وعن ابن عباس ﴿ **وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ قال : من الأيام التى خلق الله فيها السماوات والأرض وقال مجاهد : هذه الآية كقوله : ﴿ **يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون** ﴾ .

(٥٢) النار لمن حارب النبى ﷺ :

قال الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ سَعَوْا فِيٓ ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ (الحج : ٥١)

قال مجاهد : يثبطون الناس عن متابعة النبى ﷺ ، وقال ابن عباس ﴿ **معاجزين** ﴾ مراغمين ﴿ **أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ وهى النار الحرة الموجعة ، الشديد عذابها ونكالها أجارنا الله منها .

(٥٣) ما يتمناه الكافر إذا رأى النار :

قال الله تعالى : ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ (المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠)

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين ، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده فى مدة حياته ، ولهذا قال : ﴿ **رب ارجعون لعلى أعمل عمل صالحا فيما تركت** ﴾ كقوله : ﴿ **ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **وترى الظالمون لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل** ﴾ الآية ، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار ، ويوم النشور ووقت العرض على الجبار . وهم فى غمرات عذاب

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم والترمذى والنسائى وقال الترمذى : حسن صحيح .

الجحيم ، وقوله ههنا : ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾ كلا حرف ردع وزجر أى لا نجيبه إلى ما طلب ولا تقبل منه . وقوله تعالى : ﴿ إنها كلمة هو قائلها ﴾ قال ابن أسلم : أى لابد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم ، ويحتم أن يكون ذلك علة لقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ أى سؤاله الرجوع ليعمل صالحا هو كلام منه وقول لا عمل معه ، لو رد لما عمل صالحا ولكان يكذب فى مقالته هذه ، كما قال تعالى : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ قال قتادة : والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ، ولا بأن يجمع الدنيا ويقضى الشهوات ، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل ، فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار . وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة : إذا قال الكافر رب ارجعون لعلى أعمل صالحا يقول الله تعالى : كلا كذبت ، وكان العلاء بن زياد يقول لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه

فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى . وقال قتادة : والله ما تمنى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله ، فانظروا أمنية الكافر المفرط ، فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله ، وعن أبى هريرة قال : إذا وضع – يعنى الكافر – فى قبره فيرى مقعده من النار ، قال فيقول رب ارجعون أتوب وأعمل صالحاً ، قال : فيقال عمرت ما كنت تعمر قال : فيضيق عليه قبره ويلتئم فهو كالمنقوش ينام ويفزع تهوى إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها[1] . وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ويل لأهل المعاصى من أهل القبور ، تدخل عليهم فى قبورهم حيات سود ، أو دُهْم . حية عند رأسه وحية عند رجليه ، يقرصانه حتى يلتقيا فى وسطه . فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال الله تعالى : ﴿ ومن وراهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾[2] . قال مجاهد : البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة . وقال محمد بن كعب : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة فهم مقيمون إلى يوم يبعثون . وفى قوله تعالى : ﴿ ومن ورائهم برزخ ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ ، كما قال تعالى : ﴿ من ورائهم

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة موقوفا .
(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن عائشة موقوفاً .

جهنم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أى يستمر به العذاب إلى يوم البعث كما جاء فى الحديث : « فلا يزال معذبا فيها » أى فى الأرض .

الأنساب تنقطع يوم القيامة إلا نسب النبى ﷺ :

قال الله تعالى : ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُم يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۞ فَمَن ثَقُلَت مَوَازِينُهُ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَن خَفَّت مَوَازِينُهُ فَأُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۞ تَلفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُم فِيهَا كَالِحُونَ** ﴾ (المؤمنون : ١٠١ - ١٠٤)

يخبر تعالى أنه إذا نفخ فى الصور نفخة النشور ، وقام الناس من القبور ﴿ **فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ أى لا تنفع الإنسان يومئذ قرابة ولا يرثى والد لولده ولا يلوى عليه ، قال الله تعالى : ﴿ **ولا يسأل حميم حميماً يبصرونهم** ﴾ أى لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره ، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره ، ولو كان أعز الناس عليه فى الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضه ، قال الله تعالى : ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه** ﴾ الآية . وقال ابن مسعود : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد : ألا من كان له مظلمه فليجيء فليأخذ حقه ، قال : فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا . ومصداق ذلك فى كتاب الله ، قال الله تعالى : ﴿ **فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتسائلون** ﴾[1] . وروى الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « فاطمة بضعة مني يغيظنى ما يغيظها وينشطنى ما ينشطها . وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبى وسبي وصهرى » ، وهذا الحديث له أصل فى الصحيحين : « فاطمة بضعة منى يريبنى ما يريبها ويؤذينى ما آذاها » . وقد ذكرنا فى مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من طرق متعددة عنه رضى الله عنه أنه لما تزوج (أم كلثوم) بنت على بن أبى

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن مسعود .

طالب رضى الله عنهما قال : أما والله ما بى إلا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل سبب ونسب فإنه منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي »[1] . وروى الحافظ ابن عساكر عن ابن عمر قال ، قال رسول الله ﷺ : « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهرى » .

وقوله تعالى : ﴿ **فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون** ﴾ أى من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة قال ابن عباس ﴿ **فأولئك هم المفلحون** ﴾ أى الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة ، ﴿ **ومن خفت موازينه** ﴾ أى ثقلت سيئاته على حسناته فأولئك الذين خسروا أنفسهم أى خابوا وهلكوا وباءوا بالصفقة الخاسرة ، عن أنس بن مالك يرفعه قال : إن لله ملكا موكلاً بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتى الميزان ، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمعه الخلائق : سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا ، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق : شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً[2] . قال تعالى : ﴿ **فى جهنم خالدون** ﴾ أى ماكثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون ﴿ **تلفح وجوههم النار** ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ **وتغشى وجوههم النار** ﴾ . وقال تعالى . ﴿ **لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم** ﴾ الآية . عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن جهنم لما سيق لها أهلها ، تلقاهم لهبها ثم تلفحهم لفحة فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب[3] . وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قال ، قال رسول الله ﷺ فى قول الله تعالى : ﴿ **تلفح وجوههم النار** ﴾ قال : تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم[4] . وقوله تعالى : ﴿ **وهم فيها كالحون** ﴾ قال ابن عباس : يعنى عابسون ، قال ابن مسعود ﴿ **وهم فيها كالحون** ﴾ قال : ألم تر إلى الرأس المشيط الذى قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه ، وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ

(١) رواه الطبرانى والبزار والبيهقى والحافظ الضياء فى المختارة وذكر أنه أصدقها أربعين ألفا إعظاما وإكراما .

(٢) رواه الحافظ البزار وفى إسناده ضعف .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة .

(٤) أخرجه ابن مردوية عن أبى الدرداء .

قال : « وهم فيها كالحون » قال تشوية النار ، فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه . وتسترخى شفته السفلى حتى تبلغ سرته »[1] .

آخر كلام أهل النار : قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِى تُتلَىٰ عَلَيكم فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبت شِقوَتُنا وَكُنَّا قومًا ضَآلِينَ * رَبَّنَا أخرِجنَا مِنهَا فَإن عُدنَا فَإنَّا ظَالِمُونَ * (المؤمنون : ١٠٥ - ١٠٧)

هذا تقريع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم ، والمحارم والعظائم التى أوبقتهم فى ذلك فقال تعالى : ﴿ **ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون** ﴾ أى قد أرسلت إليهم الرسل وأنزلت إليكم الكتاب وأزلت شبهكم ولم يبق لكم حجة ، كما قال تعالى : ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾ ، وقال : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ ولهذا قال : ﴿ **ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين** ﴾ أى قد قامت علينا الحجة ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها فضللنا عنها ولم نرزقها ، ثم قالوا : ﴿ **ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون** ﴾ أى أردنا إلى الدنيا فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة ، كما قال : ﴿ **فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل** ﴾ ؟ أى لا سبيل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون .

جواب الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار :

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ اخسَئُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاغفِر لَنَا وَارحَمنَا وَأَنتَ خيرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذتُمُوهُم سِخرِيًّا حَتَّىٰ أنسَوكُمْ ذِكرِى وَكُنتُم مِنهُم تضحَكُونَ * إنى جَزَيتُهُمُ اليَومَ بِمَا صَبَرُوا أنَّهُم هُمُ الفَآئِزُونَ ﴾ (المؤمنون : ١٠٨ - ١١١)

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار ، والرجعة إلى هذه الدار ، يقول : ﴿ **اخسأوا فيها** ﴾ أى امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء

(١) أخرجه أحمد والترمذى ، وقال الترمذى : حسن غريب .

﴿ **ولا تكلمون** ﴾ أى لا تعودوا إلى سؤالكم هذا فإنه لا جواب لكم عندى ، قال ابن عباس ﴿ **اخسأوا فيها ولا تكلمون** ﴾ قال : هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه . وروى ابن أبى حاتم : عن عبد الله بن عمرو قال : إن أهل جهنم يدعون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً ، ثم يرد عليهم إنهم ماكثون ، قال : هانت دعوتهم والله على (مالك) ورب (مالك) ؛ ثم يدعون ربهم فيقولون : ﴿ **ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون** ﴾ قال : فسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ، ثم يرد عليهم : ﴿ **اخسأوا فيها ولا تكلمون** ﴾ قال : فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة ، وما هو إلا الزفير والشهيق فى نار جهنم . قال : فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق ، وقال عبد الله بن مسعود : إذا أراد الله تعالى أن لا يخرج منهم أحداً يعنى من جهنم غير وجوههم وألوانهم ، فيجيء الرجل من المؤمنين فيشفع فيقول : يارب . فيقول الله من عرف أحداً فليخرجه ، فيجيء الرجل من المؤمنين فينظر ، فلا يعرف أحداً فيناديه الرجل : يافلان أنا فلان . فيقول ما أعرفك ، قال : فعند ذلك يقولون : ﴿ **ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون** ﴾ فعند ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **اخسأوا فيها ولا تكلمون** ﴾ فإذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منها أحد[1] ، ثم قال تعالى مذكرا لهم بذنوبهم فى الدنيا وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنون وأوليائه ، فقال تعالى : ﴿ **إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ٭ فاتخذتموهم سخريا** ﴾ أى فسخرتم منهم فى دعائهم إياى وتضرعهم إلىَّ ﴿ **حتى أنسوكم ذكرى** ﴾ أى حملكم بغضهم على أن أنسيتم معاملتى ﴿ **وكنتم منهم تضحكون** ﴾ أى من صنيعهم وعبادتهم ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون** ﴾ أى يلمزونهم استهزاءا ، ثم أخبر تعالى عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين ، فقال تعالى : ﴿ **إنى جزيتهم اليوم بما صبروا** ﴾ أى على أذاكم لهم واستهزائكم بهم ﴿ **أنهم هم الفائزون** ﴾ أى جعلتهم من الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن مسعود موقوفا .

أهل النار أضاعوا العمر القصير فى عصيان الكبير :

قال الله تعالى : ﴿ **قَالَ كَم لَبِثْتُم فِي الأَرضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثنَا يَومًا أو بَعضَ يَومٍ فسئَلِ العَآدِينَ * قَالَ إن لَّبِثْتُم إلَّا قَلِيلًا لَّو أنَّكُم كُنتُم تَعلَمُونَ * أفَحَسِبتُم أنمَا خلَقنَاكُم عَبَثاً وَأنَّكُم إلَينَا لَا تُرجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ لَآ إلَـٰهَ إلَّا هُوَ رَبُّ العَرشِ الكَرِيمِ** ﴾ (المؤمنون : ١١٢ - ١١٦)

يقول تعالى منبها لهم على ما أضاعوه فى عمرهم القصير فى الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده ولو صبروا فى مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون ، ﴿ **قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين** ﴾ أى كم كانت إقامتكم فى الدنيا ؟ ﴿ **قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين** ﴾ أى الحاسبين ، ﴿ **قال إن لبثتم إلا قليلا** ﴾ أى مدة يسيرة على كل تقدير ﴿ **لو أنكم كنتم تعلمون** ﴾ أى لما آثرتم الفانى على الباقى ، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء ، ولا استحققتم من الله سخطه فى تلك المدة اليسيرة ، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا ، وفى الحديث : « إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأدخل أهل النار النار قال : ياأهل الجنة كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم . قال : لنعم ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم ، رحمتى ورضوانى وجنتى امكثوا فيها خالدين مخلدين ، ثم قال : ياأهل النار كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم ، فيقول بئس ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم ، نارى وسخطى امكثوا فيها خالدين مخلدين »[١] . وقوله تعالى : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا** ﴾ أى فظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا ؟ وقيل : للعبث لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لاثواب لها ولا عقاب ، وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل : ﴿ **وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ أى لا تعودون فى الدار الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾ يعنى هملاً ، وقوله : ﴿ **فتعالى الله الملك الحق** ﴾ أى

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن أيقع بن عبد الكلاعى مرفوعا .

تقدس أن يخلق شيئا عبثا فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك ، ﴿ **لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ، ووصفه بأنه كريم أى حسن المنظر بهى الشكل ، كما قال تعالى : ﴿ **وأنبتنا فيها من كل زوج كريم** ﴾ .

(٥٤) جحود أهل النار :

﴿ **يَوْمَ تَشهَدُ عَلَيهِم أَلسِنَتُهُم وَأَيدِيهِم وَأَرجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعمَلُونَ ۝ يَومَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ** ﴾

(النور : ٢٤ - ٢٥) .

قال الله تعالى : ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾ ، عن ابن عباس قال : إنهم يعنى المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة ، قالوا : تعالوا حتى نجحد فيجحدون فيختم على أفواههم ، وتشهد أيديهم وأرجلهم ، ولا يكتمون الله حديثاً .

وروى ابن أبى حاتم عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبى ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال : « أتدرون ممَّ أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « من مجادلة العبد ربه ، يقول : يارب ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول : لا أجير عليَّ شاهداً إلا من نفسى ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام عليك شهوداً ،

فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعداً لكنَّ وسحقاً ، فعنكن كنت أناضل[1] وقال قتادة : ابن آدم ، والله إن عليك لشهوداً غير متهمة من بدنك فراقبهم ، واتق الله فى سرك وعلانيتك ، فإنه لا يخفى عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء ، والسر عنده علانية ، فمن استطاع أن يموت ، وهو بالله حسن الظن فليفعل ولا قوة إلا بالله . وقوله

---

(١) رواه مسلم والنسائى .

تعالى : ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾ ، قال ابن عباس : ﴿ دينهم ﴾ أى حسابهم ، وكذا قال غير واحد ، وقوله : ﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ أى وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذى لا جور فيه .

(٥٥) تغيظ النار عند رؤية أهلها :

قال الله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِالسَّاعَةِ وَأَعتَدنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً * إِذَا رَأَتْهُم مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً * وَإِذَا أُلْقُوا مِنهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَواْ هُنَالِكَ ثُبُوراً * لَّا تَدْعُواْ اليَوْمَ ثُبُورًا وَاحِداً وَادعُواْ ثُبُورًا كَثِيراً ﴾ (الفرقان : ١١ - ١٤) .

وقوله تعالى : ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ أى إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً ، لأنهم يطلبون ذلك تبصرا واسترشاداً ، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قوم ما يقولونه من هذه الأقوال ، ﴿ وأعتدنا ﴾ أى أرصدنا ﴿ لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾ أى عذاباً أليماً حاراً لا يطاق فى نار جهنم ، وقوله : ﴿ إذا رأتهم ﴾ أى جهنم ﴿ من مكان بعيد ﴾ يعنى فى مقام المحشر ، قال السدى : من مسيرة مائة عام ﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ أى حنقاً عليهم . كما قال تعالى : ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها تغيظا وزفيراً ﴾ أى حنقاً عليهم . كما قال تعالى : ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهو تفور تكاد تميز من الغيظ ﴾ أى يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله ، عن أبى وائل قال : خرجنا مع عبد الله بن مسعود ومعنا الربيع بن خيثم ، فمروا على حداد ، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة فى النار ، وينظر الربيع بن خيثم إليها ، فتمايل الربيع ليسقط ، فمر عبد الله على أتون على شاطىء الفرات ، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب فى جوفه قرأ هذه الآية : ﴿ إذ رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ﴾ فصعق ، يعنى الربيع ، وحملوه إلى أهل بيته ، فرابطه عبد الله إلى الظهر ، فلم يفق رضى الله عنه ، وعن مجاهد بإسناده إلى ابن عباس قال : إن الرجل ليجر إلى النار فتنزوى وتنقبض بعضها إلى بعض فيقول لها الرحمن : مالك ؟ قالت : إنه يستجير منى ، فيقول : أرسلوا عبدى ، وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول : يارب ما كان هذا الظن بك ، فيقول :

فما كان ظنك ، فيقول : أن تسعنى رحمتك ، فيقول : أرسلوا عبدى . وإن الرجل ليجر إلى النار فتشهق إليه النار شهقة البغلة إلى الشعير ، وتزفره زفرة لا يبقى أحد إلا خاف[1] وقال عبيد عن عمير فى قوله : ﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ قال : إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا خر لوجهه ، ترتعد فرائصه ، حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثوا على ركبتيه ، ويقول : رب لا أسألك اليوم إلا نفسى[2] ، وقوله : ﴿ وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين ﴾ قال : « والذى نفسى بيده إنهم ليستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط» .وقوله : ﴿ مقرنين ﴾ يعنى مكتفين ﴿ دعوا هنالك ثبورا ﴾ أى بالويل والحسرة والخيبة ، ﴿ لا تدعوا اليوم ثبورا واحداً ﴾ الآية . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : أول من يكسى حلة من النار إبليس ، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه ، وذريته من بعده ، وهو ينادى : ياثبوراه ، وينادون : ياثبورهم ، حتى يقفوا على النار ، فيقول ياثبوراه ، ويقولون : ياثبورهم ، فيقال لهم : ﴿ لا تدعوا اليوم ثبورا واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾ عن ابن عباس أى لا تدعوا اليوم ويلاً واحدا وادعوا ويلا كثيراً ، وقال الضحاك : الثبور الهلاك ، والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار ، كما قال موسى لفرعون : ﴿ وإنى لأظنك يافرعون مثبوراً ﴾ أى هالكا .

(٥٦) عذاب النار دائم:

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصرِف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَاءَت مُستَقَرًّا وَمُقَاماً ﴾ (الفرقان : ٦٥ ، ٦٦) .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ﴾ أي ملازما دائماً كما قال الشاعر :

إن يعذب يكن غراماً وإن يعط جزيلًا فإنه لا يبالي

(١) ذكره ابن جرير رحمه الله فى تفسيره وقال ابن كثير : إسناده صحيح .
(٢) أخرجه عبد الرازق ...

ولهذا قال الحسن في قوله : ﴿ إن عذابها كان غراماً ﴾ : كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام اللازم ما دامت الأرض والسماوات ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ أي بئس المنزل منزلاً وبئس المقيل مقاماً . وروى ابن حاتم عن مجاهد عن عبيد بن عمير قال : إن في النار لجباباً فيها حيات أمثال البخت . وعقارب أمثال البغال الدهم فإذا قذف بهم في النار خرجت إليهم من أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم . فكشطت لحومهم إلى أقدامهم فإذا وجدت حر النار رجعت . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن عبداً في جهنم لينادي ألف سنة : ياحنان يامنان ، فيقول الله عز وجل لجبريل اذهب فأتني بعبدي هذا ، فينطلق جبريل ، فيجد أهل النار مكبين يبكون فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره فيقول الله عز وجل : ائتني به فإنه في مكان كذا وكذا ، فيجيء به ، فيوقفه على ربه عز وجل ، فيقول له : ياعبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول : يارب شر مكان وشر مقيل ، فيقول الله عز وجل : ردوا عبدي ، فيقول : يارب ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها ، فيقول الله عز وجل : دعوا عبدي » أخرجه الإمام أحمد في المسند .

(٥٧) عنق النار :

قال الله تعالى : ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۝ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ۝ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

(الشعراء : ٩١ – ١٠٤)

قوله تعالى : ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴾ أي أظهرت وكشف عنها ، وبدت منها عنق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر ، وقيل لأهلها تقريعاً

وتوبيخاً : ﴿ **أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون** ﴾ ؟ أي ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئاً ، ولا تدفع عن أنفسها ، فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون ، وقوله : ﴿ **فكبكبوا فيها هم والغاوون** ﴾ قال مجاهد : يعني فدهوروا فيها ، والمراد أنه ألقي بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك ، ﴿ **وجنود إبليس أجمعون** ﴾ أي ألقوا فيها عن آخرهم ، ﴿ **قالوا وهم فيها يختصمون ۝ تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين** ﴾ أي يقول الضعفاء للذين استكبروا وقد عادوا على أنفسهم بالملامة : ﴿ **تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين** ﴾ أي نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين وعبدناكم مع رب العالمين ، ﴿ **وما أضلنا إلا المجرمون** ﴾ أي ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ، ﴿ **فما لنا من شافعين** ﴾ قال بعضهم يعني من الملائكة ، كما يقولون ﴿ **فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا** ﴾ ؟ وكذا قالوا : ﴿ **فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم** ﴾ أى قريب ، قال قتادة : يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحاً نفع ، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع ﴿ **لو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين** ﴾ ، وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون ، والله تعالى يعلم أنهم لو ردوا إلى دار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ، وقد أخبر الله تعالى عن تخاصم أهل النار ، ثم قال تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾ أي إن فى محاجة إبراهيم لقومه وإقامة الحجج عليهم فى التوحيد ﴿ **لآية** ﴾ أي لدلالة واضحة جلة على أن لا إله إلا الله ، ﴿ **وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ .

(٥٨) صراخ أهل النار :

قال الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُم نَارُ جَهَنَّم لَا يُقضَى عَلَيهِم فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنهُم مِن عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝ وَهُم يَصطَرِخُونَ فِيهَا**

رَبَّنَا أَخرِجنَا نَعمَل صَالِحاً غَيرَ الَّذِى كُنَّا نَعمَلُ إِوَ لَم نُعَمِركُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾

(فاطر : ٣٦ -- ٣٧)

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء شرع فى بيان ما للأشقياء فقال : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون » ، وقال عز وجل : ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾ فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ ، وقال عز وجل : ﴿ إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون ، لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ﴾ ، وقال جل وعلا ، ﴿ كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ ، ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ كذلك نجزى كل كفور ﴾ أي هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق ، وقوله جلت عظمته : ﴿ وهم يصطرخون فيها ﴾ أي ينادون فيها يجأرون إلى الله عز وجل بأصواتهم : ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل ﴾ أي يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول ، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا ﴿ لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم ، ولذا قال ههنا : ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾ ؟ أي أو ما عشتم في الدنيا أعماراً ، لو كنتم ممن ينتفع بالحق لا نتفعتم به فى مدة عمركم ؟ وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد ههنا ، فروي أنه مقدار سبع عشرة سنة[1] ، وقال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة فنعوذ بالله أن نعير بطول العمر ، قد نزلت هذه الآية : ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة ، وقال وهب ابن منبه ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ قال :

---

(١) هذا قول على بن الحسين زين العابدين رضى الله عنهما .

عشرين سنه ، وقال الحسن : أربعين سنة ، وقال مسروق : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله عز وجل[١] .

وروى ابن جرير عن مجاهد قال : سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول : العمر الذي أعذر الله تعالى لابن آدم ﴿ **أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر** ﴾ أربعون سنة ، وهذا هو اختيار ابن جرير ، ثم روي عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : العمر الذى أعذر الله فيه لابن آدم في قوله : ﴿ **أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر** ﴾ ستون سنة ، فهذه الرواية أصح عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضاً لما ثبت في ذلك من الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : لقد أعذر الله تعالى إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة ، لقد أعذر الله تعالى إليه ، لقد أعذر الله تعالى إليه «[٢] وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أعذر الله عز وجل إلى امرىء آخر عمره حتى بلغ ستين سنة » ، وفى رواية : « من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله عز وجل إليه فى العمر «[٣] وذكر بعضهم أن العمر الطبيعى عند الأطباء مائة وعشرون سنة ، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين ، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهرم .

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى إلى عباده به ، ويزيح به عنهم العلل ، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة ، كما ورد بذلك الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك «[٤] وقوله تعالى : ﴿ **وجاءكم النذير** ﴾ روى عن ابن عباس وعكرمة وقتادة أنهم قالوا : يعنى الشيب ، وقال السدى وعبد الرحمن بن زيد : يعنى به رسول الله ﷺ ، وقرأ ابن زيد : ﴿ **هذا نذير من النذر الأولى** ﴾ وهذا هو الصحيح عن قتادة أنه قال : احتج عليهم بالعمر

---

(١) وهذه رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما .
(٢) أخرجه الإمام أحمد وفى لفظ للنسائى « من عمره الله تعالى ستين سنة فقد أعذر إليه فى العمر » .
(٣) أخرجه ابن أبى حاتم والإمام أحمد .
(٤) أخرجه الترمذى وابن ماجه وقال الترمذى : حديث حسن غريب .

والرسل ، وهذا اختيار ابن جرير وهو الأظهر ، لقوله تعالى : ﴿ لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ أي لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل فأبيتم وخالفتم ، وقال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . وقالوا بلى قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ أي فذوقوا عذاب النار ، جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم ، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه ، من العذاب والنكال والأغلال .

(٥٩) شجرة الزقوم غذيت من النار ومنها خلقت :

قال الله تعالى : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ * إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ (الصافات : ٦٢ - ٦٠)

يقول الله تعالى أهذا الذى ذكر من نعيم الجنة ، وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح ، وغير ذلك من الملاذ خير ضيافة وعطاء ﴿ أم شجرة الزقوم ﴾ أي التي في جهنم ؟ وقوله عز وجل : ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ ، قال قتادة : ذكرت شجرة الزقوم ، فافتتن بها أهل الضلالة ، وقالوا : صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة والنار تأكل الشجرة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴾ غذيت من النار ومنها خلقت ، وقال مجاهد : ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ . قال أبو جهل لعنه الله : إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه ؟ قلت : ومعنى الآية : إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم ، اختباراً نختبر به الناس ، من يصدق منهم ممن يكذب ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنها شجرة تخرج فى أصل

الجحيم ﴾ أي أصل منبتها في قرار النار : ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ تبشيع لها وتكريه لذكرها ، وإنما شبهها برؤوس الشياطين ، وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين ، لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر ، وقوله تعالى : ﴿ فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ﴾ ، ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة ، التى لا أبشع منها ولا أقبح من منظرها ، مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع ، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها ، لأنهم لا يجدون إلا إياها وما هو في معناها ، كما قال تعالى : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ﴾ ، روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال : « اتقوا الله حق تقاته ، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ؟[1] .

وقوله تعالى : ﴿ ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ﴾ ، قال ابن عباس : يعنى شرب الحميم على الزقوم ، وعنه : ﴿ شوباً من حميم ﴾ مزجا من حميم ، وقال غيره : يعني يمزج لهم الحميم بصديد وغساق مما يسيل من فروجهم وعيونهم ، عن أبي أمامة الباهلى رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول : يقرب يعنى إلى أهل النار - ماء فيتكرهه ، فإذا أدنى منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه فيه ، فإذا شربه قطع أمعاءه ، حتى يخرج من دبره »[2] وروى ابن أبى حاتم ، عن سعيد بن جبير قال : إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم ، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم ، فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم لعرفهم بوجوههم فيها ، ثم يصب عليهم العطش ، فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل ، وهو الذي قد انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم . التي سقطت عنها الجلود ويصهر ما فى بطونهم فيمشون تسيل أمعاؤهم ، وتتساقط جلودهم ثم يضربون بمقامع من حديد فيسقط كل عضو على حياله يدعون بالثبور »[3] ، وقوله عز وجل : ﴿ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾ أي ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج ،

---

(١) أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجة وقال الترمذى : حسن صحيح .
(٢) أخرجه ابن أبى حاتم .
(٣) هذا حديث موقوف أخرجه ابن أبى حاتم .

وجحيم تتوقد ، وسعير تتوهج ، كما قال تعالى : ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية ، وهو تفسير حسن قوي ، وكان عبد الله[1] رضى الله عنه يقول : والذي نفسي بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، ثم قرأ : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ﴾ أي إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة ، فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان ، ولهذا قال : ﴿ فهم على آثارهم يهرعون ﴾ قال مجاهد : شبيه بالهرولة ، وقال سعيد بن جبير يسفهون .

(٦٠) أهل النار يعذبون بالشيء وضده :

قال الله تعالى : ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَئَابٍ * جَهَنَّمَ يَصلَوْنَهَا فَبِئسَ المِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ * هَذَا فَوجٌ مُّقتَحِمٌ مَّعَكُم لَا مَرحَبًا بِهِم إِنَّهُم صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَل أَنتُم لَا مَرحَبًا بِكُم أَنتُم قَدَّمتُمُوهُ لَنَا فَبِئسَ القَرَارُ * قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدهُ عَذَابًا ضِعفًا فِي النَّارِ * وَقَالُواْ مَالَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِنَ الأَشرَارِ * أَتَّخَذنَٰهُم سِخرِيًّا أَم زَاغَت عَنهُمُ الأَبصَارُ * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ (ص : ٥٥ - ٦٤)

لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء ، ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم ، فقال عز وجل : ﴿ هذا وإن للطاغين ﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله عز وجل ، المخالفون لرسل الله ﷺ ﴿ لشر مآب ﴾ أي لسوء منقلب ومرجع ، ثم فسره بقوله جل وعلا : ﴿ جهنم يصلونها ﴾ أي يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿ فبئس المهاد ، هذا فليذوقوه حميم وغساق ﴾ أما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره ، وأما الغساق فهو ضده وهو البارد الذى لا يستطاع من شدة برده المؤلم ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ أي

---

(١) المراد به ابن مسعود رضى الله عنه وهى رواية السدي عنه .

وأشياء من هذا القبيل ، الشيء وضده يعاقبون بها ، عن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن دلوا من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا »[1] . وقال كعب الأحبار ﴿ غساق ﴾ عين في جهنم يسيل إليها حمة كل ذات حمة من حية ، وعقرب وغير ذلك فيستنقع ، فيؤتى بالآدمي ، فيغمس فيها غمسة واحدة فيخرج : وقد سقط جلده ولحمه عن العظام ، ويتعلق جلده ولحمه في كعبيه وعقبيه ، ويجر لحمه كله كما يجر الرجل ثوبه[2] ، وقال الحسن البصري ﴿ وآخر من شكلة أزواج ﴾ : ألوان من العذاب ، كالزمهرير ، والسموم ، وشرب الحميم ، وأكل الزقوم ، والصعود والهوي ، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة والجميع مما يعذبون به .

ويهانون بسببه ، وقوله عز وجل : ﴿ هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ﴾ ، هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض ، كما قال تعالى : ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ يعنى بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون ، ويكفر بعضهم ببعض ، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى ، إذا أقبلت مع الخزنة من الزبانية ﴿ هذا فوج مقتحم ﴾ أي داخل ﴿ معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ﴾ أي لأنهم من أهل جهنم ، ﴿ قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم ﴾ أي فيقول لهم الداخلون ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا ﴾ أي أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ، ﴿ فبئس القرار ﴾ أي فبئس المنزل والمستقر والمصير ﴿ قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار ﴾ ، كما قال عز وجل : ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار . قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ أي لكل منكم عذاب بحسبه ، ﴿ وقالوا مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار ، أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ ؟ هذا إخبار عن الكفار في النار ، أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة ، وهم المؤمنون فى زعمهم قالوا : مالنا لا نراهم معنا فى النار ؟ قال مجاهد : هذا قول أبي

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه الترمذى وابن جرير .

(٢) رواه ابن أبى حاتم عن كعب الأحبار .

جهل يقول : مالى لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً ؟ وهذا ضرب مثل ، وإلا فكل الكفار هذا حالهم ، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار ، فلما دخل الكفار النار ، افتقدوهم فلم يجدوهم ، فقالوا : ﴿ **مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار . أتخذناهم سخرياً** ﴾ أى في الدار الدنيا ﴿ **أم زاغت عنهم الأبصار** ﴾ ؟ يسلون أنفسهم بالمحال ، يقولون : أو لعلهم معنا في جهنم ، ولكن لم يقع بصرنا عليهم ، فعند ذلك يعرفون أنهم فى الدرجات العاليات وهو قوله عز وجل : ﴿ **ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **إن ذلك لحق تخاصم أهل النار** ﴾ ، أي إن هذا الذى أخبرناك به يا محمد ، من تخاصم أهل النار بعضهم فى بعض ، ولعن بعضهم لبعض ، لحق لا مرية فيه ولا شك .

(٦١) أهل النار يتقون العذاب بوجوههم لا بأيديهم :

قال الله تعالى : ﴿ **أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ العَذَابِ يَومَ القِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذوقُوا مَا كُنتُم تَكسِبُونَ * كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم فَأَتَاهُمُ العَذَابُ مِن حَيثُ لَا يَشعُرُونَ * فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الخِزيَ فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا وَلَعَذَابُ الأَخِرَةِ أَكبَرُ لَو كَانُوا يَعلَمُونَ** ﴾ (الزمر : ٢٤ – ٢٦) .

يقول الله تعالى : ﴿ **أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة** ﴾ ويقرع فيقال له ولأمثاله من الظالمين ، ﴿ **ذوقوا ما كنتم تكسبون** ﴾ كمن يأتي آمنا يوم القيامة ؟ كما قال الله عز وجل : ﴿ **أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أمن يمشى سوياً على صراط مستقيم** ﴾ ؟ وقال تبارك وتعالى : ﴿ **أفمن يلقى في النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة** ﴾ ، واكتفى في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر ، وقوله جلت عظمته : ﴿ **كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾ يعنى القرون الماضية المكذبة للرسل أهلكهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ، وقوله جل وعلا ﴿ **فأذاقهم الله الخزى في الحياة الدنيا** ﴾ أي بما أنزل بهم من العذاب والنكال ، وتشفى المؤمنين منهم ، فليحذر المخاطبون من ذلك فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل وخاتم الأنبياء ﷺ ،

والذى أعده الله جل جلاله لهم فى الآخرة من العذاب الشديد ، أعظم مما أصابهم في الدنيا ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ **ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون** ﴾ .

(٦٢) أهل النار وجوههم مسودة :

قال الله تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾ (الزمر : ٦٠) .

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه وتبيض فيه وجوه ، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، قال تعالى : ﴿ **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله** ﴾ أي في دعواهم له شريكاً وولداً ﴿ **وجوههم مسودة** ﴾ أي بكذبهم وافترائهم ، وقوله تعالى : ﴿ **أليس في جهنم مثوى للمتكبرين** ﴾ ، أي أليست جهنم كافية سجناً وموئلا ، لهم فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم عن الانقياد للحق ؟ وفي الحديث : « إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار ، حتى يدخلوا سجناً من النار في واد يقال له (بولس) من نار الأنيار ، ويسقون من عصارة أهل النار ومن طينة الخبال[1] .

(٦٣) نفخة الصور ونفخة القيام :

قال الله تعالى : ﴿ **وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكِتَابُ وَجِاْىٓءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَت كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَت وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفعَلُونَ** ﴾ (الزمر : ٦٨ — ٧٠)

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن عمرو بن شعيب .

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة ، فقوله تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله** ﴾ هذه النفخة هي الثانية وهي ﴿ **نفخة الصعق** ﴾ وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله كما جاء مصرحاً به مفسراً فى حديث الصور المشهور ، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً ، وهو الباقى آخراً بالديمومة والبقاء ، ويقول : ﴿ **لمن الملك اليوم** ﴾ ؟ ثلاث مرات ، ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾ أنا الذى كنت وحدي ، وقد قهرت كل شيء ، وحكمت بالفناء على كل شيء ، ثم يحيى أول من يحيى إسرافيل ، ويأمره أن ينفخ فى الصور أخرى وهى النفخة الثالثة ﴿ **نفخة البعث** ﴾ قال الله عز وجل : ﴿ **ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ أي أحياء بعد ما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ **فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون** ﴾ .

روى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، قال رسول الله ﷺ « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث فيهم أربعين – لا أدرى أربعين يوماً ، أو أربعين عاماً ، أو أربعين ليلة[1] ويبعث الله تعالى عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه (عروة بن مسعود الثقفى) . فيظهر فيهلكه الله تعالى ، ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله تعالى ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقى أحد فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، إن أحدهم لو كان فى كبد جبل لدخلت عليه » ، وقال : سمعنا من رسول الله ﷺ : « ويبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، قال : فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها ، وهم فى ذلك دارة أرزاقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ فى الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً ، وأول من يسمعه رجل يلوط

---

(١) الشك من الروي وليس من لفظ النبوه فتنبه .

حوضه فيصعق ، ثم لا يبقى أحد إلا صعق ، ثم يرسل الله تعالى – أو ينزل الله عز وجل – مطراً كأنه الظل أو الطل – شك نعمان – فتنبت منه الناس . ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال ، أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ **وقفوهم إنهم مسؤولون** ﴾ قال ، ثم يقال : أخرجوا بعث النار ، فيقال : كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، فيومئذ تبعث الولدان شيباً ويومئذ يكشف عن ساق »[1] .

وروى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : ما بين النفختين أربعون » قالوا : ياأبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال رضى الله تعالى عنه : أبيت ، قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيت قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ، ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق[2] .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها** ﴾ أي أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء ، ﴿ **ووضع الكتاب** ﴾ قال قتادة : كتاب الأعمال ، ﴿ **وجيء بالنبيين** ﴾ قال ابن عباس : يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم ، ﴿ **والشهداء** ﴾ أي الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ﴿ **وقضى بينهم بالحق** ﴾ أي بالعدل ، ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ **فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ ، وقال جل وعلا : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة** ﴾ ولهذا قال : ووفيت كل نفس ما عملت أى من خير أو شر ، ﴿ **وهو أعلم بما يفعلون** ﴾ .

كيف يساق أهل النار إلى النار :

قال الله تعالى : ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ**

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم فى صحيحه واللفظ له .

(٢) أخرجه البخارى عن أبى هريرة وعجب الذنب : العصص .

رَبِّكُم وَيُنذِرُونَكُم لِقَآءَ يَومِكُم هَـٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَـٰكِن حَقَّت كَلِمَةُ العَذَابِ عَلَى الكَافِرِينَ * قِيلَ ادخُلُوٓاْ أَبوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئسَ مَثوَى المُتَكَبِّرِينَ ﴾
(الزمر : ١١ — ١٢)

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار ، كيف يساقون إلى النار سوقاً عنيفاً ، بزجر وتهديد ووعيد ، كما قال عز وجل : ﴿ **يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً** ﴾ أي يدفعون إليها دفعاً وهم عطاش ظماء كما قال جل وعلا في الآية الأخرى : ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً . ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً** ﴾ ، وهم في تلك الحال صم وبكم وعمي ؛ كما قال تعالى : ﴿ **ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً** ﴾ ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها** ﴾ أي بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبواب سريعاً لتعجل لهم العقوبة ، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى ، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل : ﴿ **ألم يأتكم رسل منكم** ﴾ ؟ أي يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ، ﴿ **وينذرونكم لقاء يومكم هذا** ﴾ أي ويحذرونكم من شر هذا اليوم ، فيقول الكفار لهم ﴿ **بلى** ﴾ أي قد جاءونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين ، ﴿ **ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين** ﴾ أي ولكن كذبناهم وخلفناهم لما سبق لنا من الشقوة ، كما قال عز وجل : ﴿ **كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها** ﴾ لم يسند هذا القول إلى قائل معين بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه ، بما حكم العدل الخبير عليهم به ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ **قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها** ﴾ أي ماكثين فيها ولا خروج لكم منها ولا زوال لكم عنها ، ﴿ **فبئس مثوى المتكبرين** ﴾ أي فبئس المصير وبئس المقيل لكم بسبب تكبركم فى الدنيا وإبائكم عن اتباع الحق ، فبئس الحال وبئس المآل .

(٦٤) أهل النار فى قبورهم : أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساءً فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار :

قال الله تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (غافر : ٤٦)

قوله تعالى : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ . وقد روى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود ، وهي تقول : أشعرت أنكم تفتنون فى قبوركم ؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال : إنما يفتن يهود » قالت عائشة : فلبثنا ليالى ثم قال رسول الله ﷺ : « ألا إنكم تفتنون فى القبور » ، قالت عائشة رضى الله عنها فكان رسول الله ﷺ بعد ، يستعيذ من عذاب القبر[1] وروى البخارى عن عائشة رضى الله عنها : أن يهودية دخلت عليها فقالت : نعوذ بالله من عذاب القبر ، فسألت عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ ، عن عذاب القبر فقال ﷺ : « نعم عذاب القبر حق » قالت عائشة رضى الله عنها : فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر[1] وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً .

وقال قتادة ﴿ غدواً وعشياً ﴾ : صباحاً ومساء ما بقيت الدنيا ، يقال لهم : يا آل فرعون هذه منازلكم ، توبيخاً ونقمة وصغاراً لهم ، وقال ابن زيد : هم فيها يغدى بهم ويراح إلى يوم تقوم الساعة ، وقال ابن أبى حاتم ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : إن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر تسرح بهم فى الجنة حيث شاءوا وإن أرواح ولدان المؤمنين في أجواف عصافير تسرح في الجنة حيث شاءت ، فتأوي إلى قناديل معلقة فى العرش ، وإن أرواح آل فرعون فى أجواف طيور سود تغدو على جهنم وتروح عليها ، فذلك عرضها[2] وفى حديث الإسراء عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال فيه : ثم انطلق بى

---

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن مسعود مرفوعاً .

إلى خلق كثير من خلق الله رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم ، مصفدون على سابلة آل فرعون ، وآل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشياً ﴿ **ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ وآل فرعون كالإبل المسمومة يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون » ، وروى ابن أبى حاتم ، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله تعالى قال ، قلنا : يارسول الله ! ما إثابة الله الكافر ؟ فقال : « إن كان قد وصل رحمه أوتصدق بصدقة أو عمل حسنة أثابه الله تبارك وتعالى المال والولد والصحة وأشباه ذلك ، قلنا فما إثابته فى الآخرة ؟ قال ﷺ : « عذاباً دون العذاب ، وقرأ : ﴿ **أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾[1] وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إليه يوم القيامة »[2] .

تخاصم أهل النار :

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذ يَتَحَاجُّونَ فِى النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ استَكبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُم تَبَعًا فَهَل أَنتُم مُّغنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ استَكبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ اللهَ قَد حَكَمَ بَيْنَ العِبَادِ * وَقَالَ الَّذِينَ فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادعُواْ رَبَّكُم يُخَفِّف عَنَّا يَومًا مِّنَ العَذَابِ * قَالُوٓاْ أَوَ لَم تَكُ تَأتِيكُم رُسُلُكُم بِالبَيِّنَاتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَادعُواْ وَمَا دُعَاؤُا الكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ ﴾

(غافر : ٤٧ – ٤٨)

يخبر تعالى عن تحاجّ أهل النار وتخاصمهم وفرعون وقومه من جملتهم ﴿ **فيقول الضعفاء** ﴾ وهم الأتباع ﴿ **للذين استكبروا** ﴾ وهم القادة والسادة والكبراء

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم والبزار .

(٢) أخرجه الشيخان والإمام أحمد .

﴿ **إنا كنا لكم تبعاً** ﴾ أي أطعناكم فيما دعوتمونا إليه فى الدنيا من الكفر والضلال ، ﴿ **فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار** ﴾ أي قسطاً تتحملونه عنا ﴿ **قال الذين استكبروا إنا كل فيها** ﴾ أي لا نتحمل عنكم شيئاً كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال ﴿ **إن الله قد حكم بين العباد** ﴾ أي فقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا كما قال تعالى : ﴿ **قال لكل ضعف ولكنَ لا تعلمون** ﴾ ، ﴿ **وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب** ﴾ لما علموا أن الله عز وجل لا يستجيب منهم ، ولا يستمع لدعائهم بل قد قال : ﴿ **اخسأوا فيها ولا تكلمون** ﴾ سألوا الخزنة وهم كالسجانين لأهل النار أن يدعوا لهم الله تعالى فى أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحداً من العذاب فقالت لهم الخزنة رادين عليهم : ﴿ **أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات** ﴾ ؟ أي أو ما قامت عليكم الحجج فى الدنيا على ألسنه الرسل ؟ ﴿ **قالوا بلى قالوا فادعوا** ﴾ أى أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ، ثم نخبركم أنه لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم ، ولهذا قالوا ﴿ **وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال** ﴾ أي لا يقبل ولا يستجاب .

(٦٥) **عذاب النار لا يخفف :**

قال الله تعالى : ﴿ إنَّ المُجرمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنهُمْ وَهُم فِيهِ مُبلِسُونَ * وَمَا ظَلَمنَاهُم وَلَـٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَينَا رَبُّكَ قَالَ إنَّكُم مَّاكِثُونَ * لَقَد جِئنَاكُم بِالحِقِ وَلَـٰكِنَّ أَكثَرَكُم لِلحَقِ كَارِهُونَ * أَم أَبرَمُوٓا أَمراً فَإنَّا مُبرِمُونَ * أَم يَحسَبُونَ أَنَّا لَا نَسمَعُ سِرَّهُم وَنَجوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيهِم يَكتُبُونَ ﴾

(الزخرف : ٧٤ — ٨٠)

لما ذكر تعالى حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال : ﴿ **إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم** ﴾ أي ساعة واحدة ﴿ **وهم فيه مبلسون** ﴾ أي آيسون من كل خير ، ﴿ **وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين** ﴾ أي بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسل إليهم

كذبوا وعصوا فجوزوا بذلك جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد ، ﴿ ونادوا يا مالك ﴾ وهو خازن النار ، ﴿ ليقض علينا ربك ﴾ أي يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه ، فإنهم كما قال تعالى : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ ، وقال عز وجل : ﴿ ثم لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ ، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك ﴿ قال إنكم ماكثون ﴾ قال ابن عباس : مكث ألف سنة ، ثم قال : ﴿ إنكم ماكثون ﴾ أي لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها ، ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال : ﴿ لقد جئناكم بالحق ﴾ أي بيناه لكم ووضحناه وفسرناه ، ﴿ ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ أي ولكن كانت سجايكم لا تقبله ولا تقبل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه ، وتصد عن الحق وتأباه فعودوا على أنفسكم بالملامة ، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة ، ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون ﴾ ، قال مجاهد : أرادوا كيد شر فكدناهم ، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون فى رد الحق بالباطل بحيل ومكر ، يسلكونه ، فكادهم الله تعالى ورد وبال ذلك عليهم ، ولهذا قال : ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ﴾ ، أي سرهم وعلانيتهم ﴿ بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ أي نحن نعلم ما هم عليه ، والملائكة أيضاً يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها .

(٦٦) النار تغمر أهلها من جميع الجهات :

قال الله تعالى : ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ * يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ * ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ (الطور : ١١ - ١٦)

قوله تعالى : ﴿ فويل يومئذ للمكذبين ﴾ أى ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله ، ﴿ الذين هم فى خوض يلعبون ﴾ أي هم فى الدنيا يخوضون فى الباطل ويتخذون دينهم هزواً ولعباً ﴿ يوم يدعون ﴾ أي يدعون ويساقون ﴿ إلى نار جهنم دعا ﴾ ، قال مجاهد والسدي : يدفعون فيها دفعاً

﴿ هذه النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ أي تقول لهم الزبانية ذلك تقريعاً وتوبيخاً ، ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها ﴾ أي ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿ فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم ﴾ ، أي سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا ، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها : ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أي ولا يظلم الله أحداً بل يجازى كلا بعمله .

(٦٧) لا تسأل الملائكة عن أهل النار بل يعرفونهم بعلامات تظهر عليهم :

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ۞ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ (الرحمن : ٣٧-٤٥)

يقول تعالى : ﴿ فإذا انشقت السماء ﴾ يوم القيامة كما دلت عليه الآيات الواردة في معناها ، كقوله تعالى : ﴿ وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ﴾ ، وقوله : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ ، وقوله : ﴿ إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فكانت وردة كالدهان ﴾ أي تذوب كما يذوب الدردى[1] والفضة فى السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها ، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم . عن أنس بن مالك قال ، قال رسول الله ﷺ : « يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش عليهم »[2] قال الجوهرى : الطش المطر الضعيف ، وقال ابن عباس : ﴿ وردة كالدهان ﴾ كالأديم الأحمر ، وعنه كالفرس الورد ، وقال أبو صالح ، كالبرذون

---

(١) الدردى ما يركد فى أسفل كل مائع كالشراب والدهان .

(٢) رواه الإمام أحمد ......

الورد ، ثم كانت بعد كالدهان ، وقال الحسن البصري : تكون ألواناً ، وقال السدي ، تكون كلون البغلة الوردة ، وتكون كالمهل كدردى الزيت ، وقال مجاهد : ﴿ **كالدهان** ﴾ كألوان الدهان ، وقال عطاء الخراساني : كلون دهن الورد فى الصفرة وقال قتادة : هي اليوم خضراء ويومئذ لونها إلى الحمرة يوم ذى ألوان ، وقال أبو الجوزاء ، فى صفاء الدهن ، وقال ابن جريج : تصير السماء كالدهان الذائب ، وذلك حين يصيبها حر جهنم ، وقوله تعالى : ﴿ **فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان** ﴾ ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ **هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون** ﴾ فهذا فى حال ، و « ثمَّ » في حال ، يسأل الخلائق عن جميع أعمالهم ، قال الله تعالى : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾ ، ولهذا قال قتادة ﴿ **فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان** ﴾ ، قال : قد كانت مسألة ثم ختم على أفواه القوم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون قال ابن عباس : لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول : لم عملتم كذا وكذا ، فهذا قول ثان ، وقال مجاهد فى هذه الآية : لا تسأل الملائكة عن المجرمين بل يعرفون بسيماهم ، وهذا قول ثالث ، وكأن هذا بعد ما يؤمر بهم إلى النار فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم ، بل يقادون إليها ويلقون فيها كما قال تعالى : ﴿ **يعرف المجرمون بسيماهم** ﴾ أي بعلامات تظهر عليهم ، وقال الحسن وقتادة يعرفون باسوداد الوجوه وزرقة العيون ، (قلت) : وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء .

وقوله تعالى : ﴿ **فيؤخذ بالنواصي والأقدام** ﴾ أي يجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ويلقونه فى النار كذلك ، وقال ابن عباس : فيؤخذ بناصيته وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب فى التنور ، وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه فى سلسلة من وراء ظهره ، وقال السدي : يجمع بين ناصية الكافر وقدميه ويفتل ظهره ، وقوله تعالى : ﴿ **هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون** ﴾ أي هذه النار التى كنتم تكذبون بوجودها ، ها هى حاضرة تشاهدونها عياناً يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً ، وقوله تعالى : ﴿ **يطوفون بينها وبين حميم آن** ﴾ أي تارة يعذبون في الجحيم ، وتارة يسقون من الحميم ، وهو الشراب الذي هو كالنحاس

العذاب يقطع الأمعاء والأحشاء ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ آن ﴾ أي حار قد بلغ الغاية فى الحرارة قال ابن عباس : قد أنتهى عليه واشتد حره ، وقال محمد بن كعب القرظى : يوخذ العبد فيحرك بناصيته فى ذلك الحميم ، حتى يذوب اللحم ويبقى العظم والعينان فى الرأس ، وهى كالتى يقول الله تعالى : ﴿ في الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾ فقوله ﴿ حميم آن ﴾ أي حميم حار جداً ولما كان معاقبة العصاة المجرمين ، وتنعيم المتقين من فضله ورحمته ، وكان إنذاره لهم عن عذابه وبأسه مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصى ، قال ممتناً بذلك على بريته : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ؟

(٦٨) أهل النار لا يروون من الحميم أبداً :

قال الله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِن يَحْمُومٍ * لَّابَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ ءَابَآؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْأَخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّآلُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾

(الواقعة : ٤١-٥٦)

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين ، عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال فقال : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴾ أي أىُّ شيء هم فيه أصحاب الشمال ؟ ثم فسر ذلك فقال : ﴿ فى سموم ﴾ وهو الهواء الحار ، ﴿ وحميم ﴾ وهو الماء الحار ، ﴿ وظل من يحموم ﴾ قال ابن عباس : ظل الدخان[1] وهذه كقوله تعالى : ﴿ انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل

(١) وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وغيرهم .

ولا يغني من اللهب ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ وظل من يحموم ﴾ وهو الدخان الأسود ﴿ لا بارد ولا كريم ﴾ أى ليس طيب الهبوب، ولا حسن المنظر ﴿ ولا كريم ﴾ أى ولا كريم المنظر ، وقال الضحاك : كل شراب ليس بعذب فليس بكريم ، قال ابن جرير : العرب تتبع هذه اللفظة فى النفى ، فيقولون : هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم ، هذا اللحم ليس بسمين ولا كريم ، ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك فقال تعالى : ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ﴾ أي كانوا فى الدار الدنيا منعمين ، مقبلين على لذات أنفسهم ، ﴿ وكانوا يصرون ﴾ أي يقيمون ولا ينوون توبة ﴿ على الحنث العظيم ﴾ ، وهو الكفر بالله ، قال ابن عباس : الحنث العظيم : الشرك ، وقال الشعبى : هو اليمين الغموس ﴿ وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أوآباؤنا الأولون ﴾ يعنى أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه ، قال الله تعالى : ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ أى هو موقوت بوقت محدود لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ، لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ﴾ ، وذلك أنهم يقبضون ويسجرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم حتى يملأوا منها بطونهم ، ﴿ فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ﴾ وهى الإبل العطاش واحدها أهيم والأنثى هيماء ، ويقال : هائم وهائمة ، قال ابن عباس ومجاهد : الهيم الإبل العطاش الظماء ، وقال السدى : الهيم داء يأخذ الإبل فلا تروى أبداً حتى تموت ، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبداً ، ثم قال تعالى : ﴿ هذا نزلهم يوم الدين ﴾ أي هذا الذى وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم كما قال تعالى فى حق المؤمنين (٢) ﴿ كانت لهم جنات الفردوس نزلاً ﴾ أي ضيافة وكرامة .

(٦٩) وصف الحائط الذى هو بين الجنة والنار :

قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِس مِن نُورِكُمْ قِيلَ ارجِعُوا وَرَآءَكُم فَالتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَينَهُم بِسُورٍ لَّهُ

---

(٢) وكذا قال مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة .

بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ ٭ يُنَادُونَهُم أَلَم نَكُن مَّعَكُم قَالُوا بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُم فَتَنتُم أَنفُسَكُم وَتَرَبَّصتُم وَارتَبتُمْ وَغَرَّتكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمرُ اللهِ وَغَرَّكُم باللهِ الغَرُورُ ٭ فَاليَوْمَ لَا يُؤخَذُ مِنكُم فِديَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَولَاكُم وَبِئسَ المَصِيرُ ﴾ (الحديد : ١٣ — ١٥)

﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقون للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة فى العرصات من الأهوال المزعجة ، والزلازل العظيمة ، والأمور الفظيعة ، وأنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله وعمل بما أمر الله به ، وترك ما عنه زجر .

روى ابن أبى حاتم ، عن سليم بن عامر قال : خرجنا على جنازة فى باب دمشق ، ومعنا (أبو أمامة الباهلى) فلما صلى على الجنازة وأخذوا فى دفنها قال أبو أمامة : أيها الناس ، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر ، وهو هذا — يشير إلى القبر — بيت الوحدة وبيت الظلمة ، وبيت الدود ، وبيت الضيق ، إلا ما وسع الله ، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة ، فإنكم فى بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله ، فتبيض وجوه ، وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر ، فيغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور ، فيعطى المؤمن نوراً ، ويترك الكافر والمنافق ، فلا يعطيان شيئاً ، وهو المثل الذى ضربه الله تعالى فى كتابه فقال : ﴿ أو كظلمات فى بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ فلا يستضىء الكافر والمنافق بنور المؤمن ، كما لا يستضىء الأعمى ببصر البصير ، ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾ وهى خدعة الله التى خدع بها المنافقون حيث قال : ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ ، فيرجعون إلى المكان الذى قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم . وقد

ضرب بينهم بسور له باب ﴿ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ الآية ، ويقول سليم بن عامر : فما يزال المنافق مغتراً حتى يقسم النور ، ويميز الله بين المنافق والمؤمن[1] ، وقال ابن عباس : بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نورا فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه ، وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم ، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ : ﴿ انظروا نقتبس من نوركم ﴾ فإنا كنا معكم فى الدنيا قال المؤمنون ﴿ ارجعوا وراءكم ﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور ، وروى الطبرانى عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم ستراً منه على عباده ، وأما عند الصراط ، فإن الله تعالى يعطى كل مؤمن نوراً وكل منافق نوراً ، فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات ، فقال المنافقون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وقال المؤمنون : ربنا أتمم لنا نورنا فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً .

وقوله تعالى : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ قال الحسن وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار ، وقال عبد الرحمن بن زيد ، هو الذي قال الله تعالى : ﴿ وبينهما حجاب ﴾ وهكذا روى عن مجاهد وهو الصحيح ﴿ باطنه فيه الرحمة ﴾ أى الجنة وما فيها ﴿ وظاهره من قبله العذاب ﴾ أى النار ، والمراد بذلك سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه ، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب ، وبقى المنافقون من ورائه فى الحيرة والظلمة والعذاب ، كما كانوا فى الدار الدنيا فى كفر وشك وحيرة ، ﴿ ينادونهم ألم نكن معكم ﴾ أى ينادى المنافقون المؤمنين : أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات ؟ ونصلي معكم الجماعات ؟ ونقف معكم بعرفات ؟ ونحضر معكم الغزوات ؟ ونؤدى معكم سائر الواجبات ؟ قالوا : بلى ، أي فأجاب المؤمنون

---

(١) رواه ابن أبى حاتم .

المنافقين قائلين : بلى قد كنتم معنا ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني ﴾ ، قال بعض السلف : أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات ﴿ وتربصتم ﴾ أى أخرتم التوبة من وقت إلى وقت ، وقال قتادة : ﴿ تربصتم ﴾ بالحق وأهله ، ﴿ وارتبتم ﴾ أي بالبعث بعد الموت ، ﴿ وغرتكم الأماني ﴾ أي قلتم : سيغفر لنا ، وقيل غرتكم الدنيا ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ أي ما زلتم فى هذا حتى جاءكم الموت ، ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ أى الشيطان ، وقال قتادة : كانوا على خدعة من الشيطان والله مازالوا عليها حتى قذفهم الله فى النار ، ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين : إنكم كنتم معنا أى بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلا ، وهذا القول من المؤمنين لا ينافى قولهم الذى أخبر الله تعالى به عنهم حيث يقول : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم فى سقر ﴾ ؟ فهذا إنما خرج منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ ، ثم قال تعالى : ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ﴾ أى لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ما قبل منه ، وقوله تعالى : ﴿ مأواكم النار ﴾ أى هى مصيركم وإليها منقلبكم وقوله تعالى : ﴿ هى مولاكم ﴾ أى هى أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم وبئس المصير .

(٧٠) قوا أنفسكم وأهليكم ناراً :

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ (التحريم : ٦ – ٧)

قال على رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ يقول أدبوهم وعلموهم ، وقال ابن عباس : اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصى الله وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار ، وقال مجاهد : اتقوا الله وأوصوا

أهليكم بتقوى الله ، وقال قتادة : تأمرهم بطاعة الله وتنهاهم عن معصية الله ، وأن تقوم عليهم بأمر الله وتساعدهم عليه فإذا رأيت لله معصية قذعتهم عنها وزجرتهم عنها ، وقال الضحاك : حق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه ، وفي معنى هذه الآية الحديث الشريف : « مروا الصبى بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها »[1] ، قال الفقهاء : وهكذا فى الصوم ليكون ذلك تمرينا له على العبادة لكى يبلغ ، وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر ، وقوله تعالى : ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ وقودها : أى حطبها الذي يلقى فيها جثث بنى آدم . ﴿ والحجارة ﴾ قيل : المراد بها الأصنام التى تعبد لقوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ ، وقال ابن مسعود ومجاهد : هى حجارة من كبريت ، أنتن من الجيفة ، وقوله تعالى : ﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد ﴾ أى طباعهم غليظة قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ﴿ شداد ﴾ أى تركيبهم فى غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج . كما روى ابن حاتم عن عكرمة أنه قال : إذا وصل أول أهل النار إلى النار ، وجدوا على الباب أربعمائة ألف من خزنة جهنم سود وجوههم ، كالحة أنيابهم ، قد نزع الله من قلوبهم الرحمة ، ليس فى قلب واحد منهم مثقال ذرة من الرحمة ، لو طير الطير من منكب أحدهم لطار شهرين قبل أن يبلغ منكبه الآخر ، ثم يجدون على الباب التسعة عشر ، عرض مد أحدهم سبعون خريفاً ، ثم يهوون من باب إلى باب خمسمائة سنة ، ثم يجدون على كل باب منها مثل ما وجدوا على الباب الأول حتى ينتهوا إلى آخرها[1] ، وقوله : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ أى مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه ، لا يتأخرون عنه طرفة عين ، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه ، وهؤلاء هم الزبانية .

وقوله تعالى : ﴿ يأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أى يقال للكفرة يوم القيامة لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم .

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى .

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن عكرمة موقوفاً .

(٧١) النار تغلي بأهلها كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير :

قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

(الملك : ٦ - ١١)

يقول تعالى وأعتدنا : ﴿ للذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ أي بئس المآل والمنقلب ، ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً ﴾ يعني الصياح ، ﴿ وهي تفور ﴾ قال الثوري : تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير ، وقوله تعالى : ﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ أي تكاد ينفصل بعضها من بعض ، من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم ؛ ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ، قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾ ، يذكر تعالى عدله في خلقه ، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ ، وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة ، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة ، فقالوا : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ ، أي لو كانت لنا عقول ننتفع بها لما كنا على ما كنا عليه ، من الكفر بالله والاغترار به ، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم ، قال الله تعالى : ﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ ، وفي الحديث : لن يهلك الناس حتى يعذروا من

أنفسهم﴿ ١ ﴾ ، وفي حديث آخر : « لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة » .

(٧٢) أهل النار لا يستطيعون السجود يوم القيامة :

قال الله تعالى : ﴿ يَومَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدعُونَ إلَى السُّجُودِ فَلَا يَستَطِيعُونَ ، خَاشِعَةً أبصَارُهُم تَرهَقُهُم ذِلَّةٌ وَقَد كَانُوا يُدعَونَ إلَى السُّجُودِ وَهُم سَالِمُونَ ﴾ (ن : ٤٢ – ٤٣)

لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم ، بين متى ذلك كائن وواقع فقال تعالى : ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ يعنى يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأهوال ، والبلاء والامتحان والأمور العظام ، روى البخارى عن أبي سعيد الخدرى قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً »[٢] . وقال ابن عباس : هو يوم القيامة يوم كرب وشدة . وعن ابن مسعود ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ قال : عن أمر عظيم ، كقول الشاعر : شالت الحرب عن ساق[٣] وقال ابن جرير عن مجاهد : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ قال شدة الأمر وجده وقال ابن عباس قوله : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ هو الأمر الشديد الفظيع من الهول يوم القيامة ، وقول العوفى ، عن ابن عباس قوله : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ يقول : حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال ، وكشفه دخول الآخرة ، وروى عن النبى ﷺ قال : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ يعنى عن نور عظيم يخرون له سجداً[٤] ، وقوله تعالى : ﴿ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ﴾ أى فى الدار الآخرة وتكبرهم فى الدنيا ، فعوقبوا بنقيض

---

(١) رواه الإمام أحمد من حديث أبي البختر الطائى .

(٢) أخرجه الشيخان وغيرهما من طرق وله ألفاظ وهو حديث مشهور .

(٣) رواه عنهما ابن جرير رحمه الله .

(٤) أخرجه ابن جرير عن أبي بردة بن أبي موسى مرفوعاً ، ورواه أبو يعلى وفيه رجل مبهم .

ما كانوا عليه ، ولما دعوا إلى السجود فى الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم ، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه فى الآخرة ، إذا تجلى الرب عزّ وجلّ فيسجد له المؤمنون ، ولا يستطيع أحد من الكافرين أو المنافقين أن يسجد ، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً ، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لقفاه .

(٧٣) أهل النار يعطون كتبهم بشمائلهم :

قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَن أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَم أُوتَ كِتَابِيه * وَلَم أَدرِ مَا حِسَابِيَه * يَالَيْتَهَا كَانَتِ القَاضِيَةَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَه * هَّلَكَ عَنِي سُلطَانِيَه * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلسِلَةٍ ذَرعُهَا سَبعُونَ ذِرَاعاً فَاسلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤمِنُ بِاللهِ العَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ المِسكِينِ * فَلَيسَ لَهُ اليَومَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غِسلِينٍ * لَّا يَأكُلُهُ إِلَّا الخَاطِئُونَ ﴾ (الحاقة : ٢٥ - ٣٧)

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطي أحدهم كتابه فى العرصات بشماله فحينئذ يندم غاية الندم ، ﴿ فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . ياليتها كانت القاضية ﴾ قال الضحاك : يعنى موتة لا حياة بعدها . وقال قتادة : تمنّى الموت ولم يكن شيء فى الدنيا أكره إليه منه . ﴿ ما أغني عني ماليه . هلك عني سلطانيه ﴾ أى لم يدفع عنى مالى ولا جاهي عذاب الله وبأسه ، بل خلص الأمر إلىّ وحدي ، فلا معين لى ولا مجير فعندها يقول الله عزّ وجل : ﴿ خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلّوه ﴾ أى يأمر الزبانية أن تأخذه عنفاً من المحشر فتغله ، أى تضع الأغلال فى عنقه ، ثم تورده إلى جهنم فتصليه إيّاها ، أى تغمره فيها : عن المنهال بن عمرو قال : إذا قال الله تعالى : خذوه ، ابتدره سبعون ألف ملك ، إن الملك منهم ليقول : هكذا ، فيلقى سبعين ألفاً فى النار[1] ، وقال الفضيل بن عياض إذا قال الرب عزّ وجلّ ﴿ خذوه فغلوه ﴾ ابتدره سبعون ألف ملك أيهم يجعل الغل فى عنقه ، ﴿ ثم الجحيم صلوه ﴾ أى أغمروه فيها ، وقوله تعالى :

---

(١) رواه ابن أبى حاتم .

﴿ ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ﴾ قال كعب الاحبار : كل حلقة منها قدر حديد الدنيا ، وقال ابن عباس : بذراع الملك ، وقال العوفى عن ابن عباس : يسلك فى دبره حتى يخرج من منخريه حتى لا يقوم على رجليه ، روى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن عمرو قال ، قال رسول الله ﷺ : « لو أن رضاضة مثل هذه – وأشار إلى جمجمة – أرسلت من السماء إلى الأرض وهى مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها »[1] . وقوله تعالى : ﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أى لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ، ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم ، فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى ، ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وقبض النبى ﷺ وهو يقول : ﴿ الصلاة ، وما ملكت أيمانكم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فليس له اليوم ههنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ أى ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله تعالى ، لا ﴿ حميم ﴾ وهو القريب ، ولا ﴿ شفيع ﴾ يطاع ، ولا طعام له ههنا ﴿ إلا من غسلين ﴾ قال قتادة : هو شر طعام أهل النار ، وقال الضحاك : هو شجرة فى جهنم ، وقال ابن عباس : ما أدرى ما الغسلين ؟ ولكنى أظنه الزقوم[2] ، وقال عكرمة عنه : الغسلين : الدم والماء يسيل من لحومهم ، وعنه : الغسلين صديد أهل النار .

(٧٤) النار (سقر) لا تبقى من الدم والعظم واللحم شيئاً :

قال الله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (المدثر : ٢٦ – ٣٠)

قال الله تعالى : ﴿ لواحة للبشر ﴾ قال مجاهد : أى للجلد ، وقال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل ، وقال ابن عباس : تحرق بشرة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذى ، وقال : حديث حسن .
(٢) أخرجه ابن أبى حاتم .

الإنسان ، وقوله تعالى : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ أى من مقدمى الزبانية عظيم خلقهم ، غليظ خُلُقهم : روى ابن أبى حاتم ، عن البراء قوله تعالى : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ قال : إن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ عن خزنة جهنم ، فقال : الله ورسوله أعلم ، فجاء رجل فأخبر النبى ﷺ ، فأنزل الله تعالى عليه ساعتئذ ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ فأخبر أصحابه[1] .

وروى الحافظ البزار عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يامحمد ، غلب أصحابك ، فقال : « بأي شيء » ؟ قال : سألتهم يهود : هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار ؟ قالوا : لا نعلم حتى نسأل نبينا ﷺ ، قال رسول الله ﷺ : « أفغلب قوم يسألون عما لا يعلمون فقالوا : لا نعلم ، حتى نسأل نبينا ﷺ ؟ عليَّ بأعداء الله ، لكنهم قد سألوا نبيهم أن يريهم الله جهرة » ، فأرسل إليهم فدعاهم ، قالوا : يا أبا القاسم كم عدة خزنة أهل النار ؟ قال : « هكذا » وطبّق كفيه مرتين وعقد واحدة ، وقال لأصحابه : « إن سئلتم عن تربة الجنة فهي الدرمك » فلما سألوه فأخبرهم بعدة خزنة أهل النار ، قال لهم رسول الله ﷺ : « ما تربة الجنة » فنظر بعضهم إلى بعض ، فقالوا : خبزة يا أبا القاسم ، فقال : « الخبز من الدرمك »[2] .

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَآئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوٓا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ * كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَالَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ (المدثر : ٣٢ - ٣٧)

---

(١) رواه ابن أبى حاتم .

(٢) رواه البزار وأحمد والترمذى .

يقول تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار ﴾ أي خزانها ﴿ إلا ملائكة ﴾ أى زبانية غلاظاً شداداً ؛ وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة ، فقال أبو جهل : يامعشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ، فقال الله تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ أي شديدى الخلق لا يقاومون ولا يغلبون ، وقد قيل : إن (أبا الأشدين) قال : يا معشر قريش أكفونى منهم اثنين ، وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر إعجاباً منه بنفسه ، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ، ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه ، فيتمزق الجلد ، ولا يتزحزح عنه ، قال السهيلي : وهو الذي دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته وقال : إن صرعتني آمنت بك ، فصرعه النبي ﷺ مراراً فلم يؤمن[1] ، وقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ أى إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منا للناس ، ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ﴾ أي يعلمون أن هذا الرسول حق ، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله ، وقوله تعالى : ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ أى إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم ﷺ ، ﴿ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض ﴾ أي من المنافقين ، ﴿ والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ ؟ أي يقولون ما الحكمة فى ذكر هذا ههنا ؟ قال الله تعالى : ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، وقوله تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ أي ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى ، لئلا يتوهم أنهم تسعة عشر فقط ، وقد ثبت فى حديث الإسراء فى صفة البيت المعمور الذى فى السماء السابعة : « فإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم[1] » .

وروى الإمام أحمد ، عن أبى ذر قال ، قال رسول الله ﷺ : « إنى أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطّت السماء ، وحق لها أن تئط ، ما فيها

---

(١) نسب ابن إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد ، قال ابن كثير : ولا منافاة بين ما ذكراه والله أعلم .

(١) أخرجاه فى الصحيحين .

موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد ، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبيكتم كثيراً ولا تلذذتم بالنساء على الفرشات ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى » فقال أبو ذر : والله لوددت أني شجرة تعضد[1] ، وعن جابر بن عبد الله قال ، قال رسول الله ﷺ : « ما في السموات السبع ، موضع قدم ولا شبر ولا كف ، إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع ، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئاً »[2] . وعن ابن مسعود أنه قال : إن من السماوات سماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماه قائم ، ثم قرأ : ﴿ وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون ﴾[3] . وروى محمد بن نصر ، عن عباد بن منصور قال : سمعت عدى بن أرطأة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال : سمعت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : « إن لله تعالى ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته ، ما منهم ملك تقطر منه دمعة من عينه إلا وقعت على ملك يصلي ، وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق الله السماوات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة ، فإذا رفعوا رؤوسهم نظروا إلى وجه الله عزَّ وجلَّ قالوا : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك »[4] . وقوله تعالى : ﴿ وما هي إلا ذكرى للبشر ﴾ أي النار التي وصفت ﴿ إلا ذكرى للبشر ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ كلا والقمر * والليل إذ أدبر ﴾ أي ولى ﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ أي أشرق ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ أي العظائم يعني النار ، قاله ابن عباس ومجاهد ، ﴿ نذيراً للبشر * لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ أي لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدى للحق ، أو يتأخر عنها ويولى ويردها .

أهل النار ما عبدوا ربهم ولا أحسنوا إلى خلقه :

قال الله تعالى : ﴿ **كُلُّ نَفسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصحَابَ اليَمِينِ * فِى جَنَّاتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ المُجرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا لَم نَكُ مِنَ**

(١) أخرجه أحمد والترمذى وابن ماجة ، وقال الترمذى : حسن غريب (٢) أخرجه الحافظ الطبرانى .
(٣) أخرجه محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة .
(٤) أخرجه محمد بن نصر ، قال ابن كثير : إسناده لا بأس به .

الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ (المدثر : ٣٨ - ٤٧)

يقول تعالى مخبراً أن ﴿ كل نفس بما كسبت رهين ﴾ أى معتقلة بعملها يوم القيامة ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ فإنهم ﴿ فى جنات يتساءلون عن المجرمين ﴾ أى يسألون المجرمين وهم فى الغرفات ، وأولئك فى الدركات قائلين لهم ﴿ ما سلككم فى سقر ، قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين ﴾ أى ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا ، ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أى نتكلم فيما لا نعلم ، وقال قتادة : كلما غوى غاو غوينا معه ، ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ يعنى الموت .

(٧٥) شرر النــار :

قال الله تعالى : ﴿ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغنِى مِنَ اللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرمِى بِشَرَرٍ كَالقَصرِ * كَأَنَّهُ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ * وَيلٌ يَومَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ ﴾ (المرسلات : ٣٠ - ٣٤)

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء أنهم يقال لهم يوم القيامة ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب ﴾ يعنى لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان ، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب ، ﴿ لا ظليل ولا يغنى من اللهب ﴾ أي ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو فى نفسه ﴿ ولا يغنى من اللهب ﴾ يعنى ولا يقيهم حر اللهب وقوله تعالى : ﴿ إنها ترمى بشرر كالقصر ﴾ أي يتطاير الشرر من لهبها كالقصر ، قال ابن مسعود كالحصون ، وقال ابن عباس ومجاهد : يعنى أصول الشجر ﴿ كأنه جمالة صفر ﴾ أي كالإبل السود ، قاله مجاهد والحسن واختاره ابن جرير ، وعن ابن عباس ﴿ جمالة صفر ﴾ يعنى حبال السفن ، وعنه ﴿ جمالة صفر ﴾ : قطع نحاس ، عن عبد الرحمن بن عابس قال ، سمعت ابن عباس رضى الله عنهما ﴿ إنها ترمى بشرر كالقصر ﴾ قال : كنا نعمد إلى الخشبة ثلاث أذرع ، وفوق

ذلك فنرفعه للبناء ، فنسميه القصر ﴿ **كأنه جمالة صفر** ﴾ حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال[1] ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ .

(٧٦) جهنم معدة :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً * لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً * جَزَآءً وِفَاقًا * إِنَّهُم كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَاباً * وَكَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُم إِلَّا عَذَابًا** ﴾ (عم : ٢١ - ٣٠)

قال تعالى : ﴿ **إن جهنم كانت مرصاداً** ﴾ أى مرصدة معدة ﴿ **للطاغين** ﴾ وهم المردة العصاة المخالفون للرسل ﴿ **مآبا** ﴾ أى مرجعاً ومنقلباً ومصيراً ونزلاء . وقال الحسن وقتادة : لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز النار ، فإن كان معه جواز نجا وإلا احتبس ، وقوله تعالى : ﴿ **لابثين فيها أحقاباً** ﴾ أي ماكثين فيها أحقاباً وهى جمع حقب وهو المدة من الزمان ، وقد اختلفوا فى مقداره ، فقال ابن جرير ، قال على بن أبى طالب لهلال الهجرى : ما تجدون الحقب فى كتاب الله المنزل ؟ قال : نجده ثمانين سنة ، كل سنة اثنا عشر شهراً ، كل شهر ثلاثين يوماً ، كل يوم ألف سنة ، وعن الحسن والسدي : سبعون سنة وعن عبد الله بن عمرو : الحقب أربعون سنة . كل يوم منها كألف سنة مما تعدون[2] ، وقال بشير بن كعب : ذكر لى أن الحقب الواحد ثلثمائة سنة ، اثنا عشر شهراً ، كل حقب سبعون سنة ، كل سنة ثلثمائة وستون يوماً ، كل يوم كألف سنة مما تعدون ، وقال خالد بن معدان هذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ فى أهل التوحيد[3] : قال ابن جرير : والصحيح أنها لا انقضاء لها ، كما روي عن سالم : سمعت الحسن يسأل عن قوله تعالى : ﴿ **لابثين فيها أحقاباً** ﴾ قال أما الأحقاب فليس لها عدة إلا الخلود فى النار ، ولكن ذكروا أن الحقب سبعون سنة ، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون ، وقال

---

(١) أخرجه البخارى (٢) رواهما ابن أبى حاتم (٣) أخرجه ابن جرير أيضاً

قتادة ، قال الله تعالى : ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ وهو ما لا انقطاع له وكلما مضى حقب جاء حقب بعده ، وقال الربيع بن أنس : ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله عز وجل ، وذكر لنا أن الحقب الواحد ثمانون سنة ، والسنة ثلثمائة وستون يوماً ، كل يوم كألف سنة مما تعدون[1] .

وقوله تعالى : ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ﴾ أي لا يجدون في جهنم برداً لقلوبهم ، ولا شرابا طيباً يتغذون به ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إلا حميماً وغساقاً ﴾ ، وقال أبو العالية : استثنى من البرد الحميم ، ومن الشراب الغساق ، قال الربيع بن أنس : فأما الحميم فهو الحار الذى قد انتهى حره وحموه ، والغساق هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم ، فهو بارد لا يستطاع من برده ولا يواجه من نتنه ، وقوله تعالى : ﴿ جزاءاً وفاقاً ﴾ أي هذا الذى صاروا إليه من هذه العقوبة ، وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها فى الدنيا ، ثم قال تعالى : ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ أي لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجاوزن فيها ويحاسبون ، ﴿ وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾ .

أي وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التى أنزلها على رسله ﷺ فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة ، وقوله ﴿ كذاباً ﴾ أى تكذيباً ، وهو مصدر من غير الفعل ، وقوله تعالى : ﴿ وكل شىء أحصيناه كتاباً ﴾ أي وقد علمنا أعمال العباد وكتبناها عليهم وسنجزيهم على ذلك إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وقوله تعالى : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ أي يقال لأهل النار ذوقوا ما أنتم فيه فلن تزيدكم إلا عذاباً من جنسه وآخر من شكله أزواج ، قال قتادة : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ فهم فى مزيد من العذاب أبداً .

---

(١) أخرجه ابن جرير .

(٧٧) الغاشية من أسماء يوم القيامة :

قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ (الغاشية : ١ — ٧) .

الغاشية من أسماء يوم القيامة ، لأنها تغشى الناس وتعمهم ، روي عن عمرو بن ميمون أنه قال : مر النبي ﷺ على امرأة تقرأ : ﴿ **هل أتاك حديث الغاشية** ﴾ فقام يستمع ، ويقول : « نعم قد جاءنى » . وقوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ خاشعة** ﴾ أى ذليلة ، وقال ابن عباس : تخشع ولا ينفعها عملها ، وقوله تعالى : ﴿ **عاملة ناصبة** ﴾ أي قد عملت عملاً كثيراً ونصبت فيه ، وصليت يوم القيامة ناراً حامية ، عن أبى عمران الجونى قال : مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بدير راهب ، قال فناداه : ياراهب ، فأشرف ، قال ، فجعل عمر ينظر إليه ويبكى ، فقيل له : ياأمير المؤمنين ما يبكيك من هذا ؟ قال : ذكرت قول الله عز وجل في كتابه : ﴿ **عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية** ﴾ فذاك الذى أبكانى ، قال ابن عباس : ﴿ **عاملة ناصبة** ﴾ النصاري ، وعن عكرمة والسدي : عاملة فى الدنيا بالمعاصي ، ناصبة فى النار بالعذاب والإهلاك ، قال ابن عباس : ﴿ **تصلى ناراً حامية** ﴾ أى حارة شديدة الحر ، ﴿ **تسقى من عين آنية** ﴾ أي قد انتهى حرها وغليانها[1] ، وقوله تعالى : ﴿**ليس لهم طعام إلا من ضريع** ﴾ قال ابن عباس : شجر من النار ، وقال سعيد بن جبير : هو الزقوم ، وعنه أنها الحجارة ، وقال البخارى ، قال مجاهد : الضريع نبت يقال له الشبرق يسميه أهل الحجاز الضريع إذا يبس ، وهو سم ، وقال قتادة : ﴿ **ليس لهم طعام إلا من ضريع** ﴾ من شر الطعام وأبشعه وأخبثه ، وقوله تعالى : ﴿ **لا يسمن ولا يغنى من جوع** ﴾ يعنى لا يحصل به مقصود ، ولا يندفع به محذور .

---

(١) وهو قول ابن عباس ومجاهد والحسن والسدى .

(٧٨) النار مطبقة على أهلها فلا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها :

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُم أَصحَابُ المَشئَمَةِ * عَلَيْهِم نَارٌ مُؤصَدَةٌ ﴾ (البلد : ١٩ - ٢٠)

﴿ **والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة** ﴾ أي أصحاب الشمال ، ﴿ **عليهم نار مؤصدة** ﴾ أى مطبقة عليهم فلا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها ، قال أبو هريرة : ﴿ **مؤصدة** ﴾ أى مطبقة ، وقال ابن عباس : مغلقة الأبواب ، وقال مجاهد : أصد الباب أى أغلقه وقال الضحاك : ﴿ **مؤصدة** ﴾ حيط لا باب له ، وقال قتادة ﴿ **مؤصدة** ﴾ ، مطبقة فلا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج منها آخر الأبد ، وقال أبو عمران الجونى : إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار وكل شيطان ، وكل من كان يخاف الناس فى الدنيا شره ، فأوثقوا بالحديد ، ثم أمر بهم إلى جهنم ثم أوصدوها عليهم أي أطبقوها ، وقال : فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبداً ، ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبداً ، ولا والله لا تلتقي جفون أعينهم على غمض نوم أبداً ، ولا والله لا يذوقون فيها بارد شراب أبداً أخرجه ابن أبى حاتم .

[**فائدة**] ذكر ابن كثير أيضا رحمه الله تعالى فى سورة الهمزة ﴿ **فى عمد ممددة** ﴾ ذكر ما يلى : أي عمد من حديد ، وقال السدى : من نار : قال ابن عباس : ﴿ **فى عمد ممددة** ﴾ يعنى الأبواب هى الممدة ، وعنه : أدخلهم فى عمد ممددة عليهم بعماد ، فى أعناقهم السلاسل ، فسدت بها الأبواب . وقال قتادة : كنا نحدث أنهم يعذبون بعمد فى النار ، واختاره ابن جرير ، وقال أبو صالح : ﴿ **فى عمد ممددة** ﴾ يعنى القيود الثقال .

(٧٩) من الذى يدخل النار :

قال الله تعالى : ﴿ فَأَنذَرتُكُم نَارًا تَلَظَّىٰ * لَا يَصلَاهَا إِلَّا الأَشقَى * الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتقَى * الَّذِى يُؤتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ

﴿ مِن نِعمَةٍ تُجزَىٰ * إِلَّا ابتِغَآءَ وَجهِ رَبِهِ الأَعلَىٰ * وَلَسَوفَ يَرضَىٰ ﴾
(الليل : ١٤ - ٢١)

قوله تعالى : ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى ﴾ قال مجاهد : أي توهج ، وفي الحديث : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه » أخرجه البخارى ، وفي رواية لمسلم : إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلى المرجل ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً »[١] . وقوله تعالى : ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى ﴾ أي لا يدخلها إلا الأشقى ، ثم فسره فقال : ﴿ الذى كذب ﴾ أي بقلبه ﴿ وتولى ﴾ أي عن العمل بجوارحه وأركانه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل النار إلا شقى » قيل ، ومن الشقى ؟ قال : « الذى لا يعمل بطاعة ، ولا يترك لله معصية »[٢] وقال رسول الله ﷺ : « كل أمتى تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى » ، قالوا : ومن يأبى يارسول الله ؟ قال : « من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى »[٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ أى وسيزحزح عن النار التقى النقى الأتقى ، ثم فسره بقوله : ﴿ الذى يؤتى ماله يتزكى ﴾ أي يصرف ماله فى طاعة ربه ليزكى نفسه ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ أى ليس بذله فى مكافأة من أسدى إليه معروفاً ، وإنما دفعه ذلك ﴿ ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ أي طمعاً فى أن يحصل له رؤيته فى الدار الآخرة فى روضات الجنات ، قال الله تعالى : ﴿ ولسوف يرضى ﴾ أى ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات ...

خاتمة : روى أبو هريرة عن النبى ﷺ قال : «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع » خرجه النسائى والترمذى وقال صحيح .

﴿ ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴾

---

(١) أخرجه مسلم عن النعمان بن بشير .
(٢) أخرجه الإمام أحمد .
(٣) أخرجه البخارى وأحمد عن أبى هريرة .

الجنة وما يقرب إليها من قول أو عمل
« اللهم إنا نسألك الفردوس الأعلى »

(١) ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء :

قال الله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُم جَنَّاتٍ تَجرِى مِن تَحتِهَا الأنهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنهَا مِن ثَمَرَةٍ رِزقًا قَالُواْ هَذَا الَّذِى رزقنا مِن قَبلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُم فِيهَآ أَزوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُم فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة : ٢٥)

لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال ، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة ، وهذا معنى تسمية القرآن مثانى على أصح أقوال العلماء كما سنبسطه فى موضعه ، وهو أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر أو عكسه ، أو حال السعداء ثم الأشقياء أو عكسه ، وحاصله ذكر الشيء ومقابله . وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه كما سنوضحه إن شاء الله . فلهذا قال تعالى : ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ ، فوصفها بأنها تجرى من تحتها الأنهار أى من تحت أشجارها وغرفها وقد جاء فى الحديث أن أنهارها تجرى فى غير أخدود . وقوله تعالى : ﴿ **كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل** ﴾.

قال السدى فى تفسيره : إنهم أتوا بالثمرة فى الجنة فلما نظروا إليها قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل فى الدنيا . وقال عكرمة : ﴿ **قالوا هذا الذى رزقنا من قبل** ﴾ معناه مثل الذى كان بالأمس ، وقال آخرون : ﴿ **هذا الذى رزقنا من قبل** ﴾ من ثمار الجنة لشدة مشابهة بعضه بعضا لقوله تعالى : ﴿ **وأتوا به متشابها** ﴾ . وعن يحيى بن أبى كثير قال : يؤتى أحدهم بالصحفة من الشيء

فيأكل منها ، ثم يؤتى بأخرى فيقول هذا الذى أتينا به من قبل ، فتقول الملائكة : كُلْ فاللون واحد ، والطعم مختلف .

وقال ابن جرير بإسناده فى قوله تعالى : ﴿ **وأتوا به متشابها** ﴾ يعنى فى اللون والمرأى وليس يشبه الطعم . وهذا اختيار ابن جرير ، وقال عكرمة ﴿ **وأتوا به متشابها** ﴾ قال : يشبه ثمر الدنيا غير أن ثمر الجنة أطيب ، وعن ابن عباس « لا يشبه شيء مما فى الجنة ما فى الدنيا إلا فى الأسماء، وفى رواية « ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء » .

وقوله تعالى : ﴿ **ولهم فيها أزواج مطهرة** ﴾ قال ابن عباس : مطهرة من القذر والأذى . وقال مجاهد : من الحيض والغائط والبول والبزاق والمنى والولد . وقال قتادة : مطهرة من الأذى والإثم ، وعن أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ **ولهم فيها أزواج مطهرة** ﴾ قال : من الحيض والغائط والنخاعة والبزاق[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **وهم فيها خالدون** ﴾ هذا هو تمام السعادة ، فإنهم مع النعيم فى مقام أمين ، من الموت والانقطاع فلا آخر له ، ولا انقضاء بل فى نعيم سرمدى أبدى على الدوام ... والله المسؤول أن يحشرنا فى زمرتهم إنه جواد كريم ، برٌ رحيم .

(٢) قصة آدم عليه السلام وشجرة الخلد :

قال الله تعالى : ﴿ **وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسكُن أنتَ وَزَوجُكَ الجَنَّةَ وَكُلَا مِنها رَغَدًا حَيثُ شِئتُما وَلَا تَقرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيطَانُ عَنهَا فَأَخرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلنَا اهبِطُوا بَعضُكُم لِبَعضٍ عَدُوٌّ وَلَكُم فِي الأَرضِ مُستَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ (البقرة : ٣٥ - ٣٦)

يقول الله تعالى إخبارا عما أكرم به آدم ، بعد أن أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس أباحة الجنة يسكن منها حيث يشاء ويأكل منها ما شاء (رغداً) أى هينئا واسعاً ، طيباً ، وقد اختلف فى الجنة التى أسكنها أدم هى فى السماء أم فى الأرض ؟ فالأكثرون على الأول ، وحكى القرطبى عن المعتزلة

(١) رواه ابن مردوية والحاكم فى المستدرك قال ابن كثير : والأظهر أن هذا من كلام قتادة كما تقدم .

والقدرية القول بأنها فى الأرض ، وسيأتى تقرير ذلك فى سورة الأعراف إن شاء الله تعالى ، وسياق الآية يقتضى أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة ، ويقال : إن خلق حواء كان بعد دخول الجنة كما قال السدى فى خبر ذكره عن ابن عباس وعن ناس من الصحابة « أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة ، فكان يمشى فيها وحيداً ليس له زوج يسكن إليه ، فنام نومه فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه ، فسألها : ما أنت ؟ قالت : امرأة ، قال : ولم خلقت ؟ قالت لتسكن إلىّ ، قالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه : ما اسمها ياآدم ؟ قال : حواء ، قالوا : ولم حواء ؟ قال : إنها خلقت من شىء حى » .

وأما قوله : ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾ فهو اختيار من الله تعالى وامتحان لآدم . وقد اختلف فى هذه الشجرة ما هى ؟ فقال السدى عن ابن عباس : الشجرة التى نهى عنها آدم عليه السلام هى الكرم ، وتزعم يهود أنها الحنطة . وقال ابن جرير عن ابن عباس : الشجرة التى نهى عنها آدم عليه السلام هى السنبلة ، وقال ابن جرير بسنده : حدثنى رجل من بنى تميم أن أبى عباس كتب إلى أبى الجلد يسأله عن الشجرة التى أكل منها آدم وهى السنبلة ، والشجرة التى تاب عندها آدم ، فكتب إليه أبو الجلد . سألتنى عن الشجرة التى نهى عنها آدم وهى السنبلة ، وسألتنى عن الشجرة التى تاب عندها آدم وهى الزيتونة . وقال سفيان الثورى عن أبى مالك ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾ : النخلة ، وقال ابن جرير عن مجاهد ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾ التينة

قال الإمام العلامة أبو جعفر ابن جرير رحمه الله : والصواب فى ذلك أن يقال : إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين ، لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة . وقد قيل : كانت شجرة البر ، وقيل : كانت شجرة العنب ، وقيل : كانت شجرة التين . وجائز أن تكون واحدة منها وذلك علم إذ علم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ **فأزلهما الشيطان عنها** ﴾ يصح أن يكون الضمير فى قوله (عنها) عائداً إلى الجنة ، فيكون معنى الكلان فأزلهما أى من قبل الزلل ، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿ **فأزلهما الشيطان عنها** ﴾ أى بسببها ، كما قال تعالى : ﴿ **يؤفك عنه من أفك** ﴾ أى يصرف بسببه من هو مأفوك ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فأخرجهما مما كانا فيه** ﴾ أى من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة . ﴿ **وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾ أى إلى وقت مقدر ومقدار معين ثم تقوم القيامة ، وقد ذكر المفسرون من السلف كالسدى بأسانيده ، وأبى العالية ، ووهب بن منبه وغيرهم ، هنا أخبار إسرائيلية عن قصة الحية وإبليس ، وكيف جرى من دخول إبليس إلى الجنة ووسوسته ، وسنبسط ذلك إن شاء الله فى سورة الأعراف فهناك القصة أبسط منها هنا والله الموفق(١) .

فإن قيل : فإذا كانت جنة آدم التى أخرج منها فى السماء كما يقوله الجمهور من العلماء فكيف تمكن إبليس من دخول الجنة وقد طرد من هناك ؟ وأجاب الجمهور بأجوبة ، أحدها أنه منع من دخول الجنة مكرماً ، فأما على وجه السرقة والإهانة فلا يمتنع . ولهذا قال بعضهم – كما فى التوراه – إنه دخل فى فم الحية إلى الجنة : وقد قال بعضهم يحتمل أنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة . وقال بعضهم : يحتمل أنه وسوس هنا وهو فى الأرض وهما فى السماء . ذكرها الزمخشرى وغيره . وقد أورد القرطبى ههنا أحاديث فى الحيات وقتلهن . وبيان حكم ذلك فأجاد وأفاد .

﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾

قيل : إن هذه الكلمات مفسره بقوله تعالى : ﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ . وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى : ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب**

---

(١) راجع تفسير هذه القصة فى سورة الأعراف من كتاب مختصر تفسير ابن كثير للصابونى أثابه الله تعالى جـ٢ صـ٧ : ١٣ .

عليه ﴾ ، قال : إن آدم لما أصاب الخطيئة قال : أرأيت يارب إن تبت وأصلحت ؟ قال الله : « إذا أدخلك الجنة » فهى الكلمات ، ومن الكلمات أيضاً : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ . وعن مجاهد أنه كان يقول فى قول الله تعالى : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ الكلمات : « اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إنى ظلمت نفسى فارحمنى إنك خير الراحمين » ، « اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إنى ظلمت نفسى فتب علىَّ إنك أنت التواب الرحيم » ، وقوله تعالى : ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ أى إنه يتوب على من تاب إليه وأناب كقوله : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ ، وقوله : ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ ومن تاب وعمل صالحاً ﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ، ويتوب على من يتوب ، وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده ، لا إله إلا هو التواب الرحيم .

﴿ قُلْنَا اهبِطُواْ مِنهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَایَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيهِم وَلَا هُم يَحزَنُونَ ﴾ (البقرة : ٣٨)

يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة ، والمراد الذرية : إنه سينزل الكتب ، ويبعث الأنبياء والرسل ، كما قال أبو العالية : الهدى الأنبياء والرسل والبينات والبيان . وقال مقاتل بن حيان : الهدى محمد ﷺ ، وقال الحسن : الهدى القرآن ، وهذان القولان صحيحان . وقول أبى العالية أعم . ﴿ فمن تبع هداى ﴾ أى من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ أى فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا كما قال فى سورة طه : ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ . قال ابن عباس : فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ كما قال هنا : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أى مخلدون فيها لا محيد لهم عنها ولا محيص . قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون

فيها ولا يحيون ، ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم فأماتتهم إماته حتى إذا صاروا فحماً أذن فى الشفاعة » رواه مسلم .

وذُكرُ هذا الإهباط الثانى لما تعلق به ما بعده من المعنى المغاير للأول ، وزعم بعضهم أنه تأكيد وتكرير كما يقال قم قم ، وقال آخرون : بل الإهباط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا ، والثانى من سماء الدنيا إلى الأرض والصحيح الأول ، والله أعلم .

(٣) الجنــــة والبــلاء :

قال الله تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُم أَن تَدخُلُواْ الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبلِكُم مَّسَّتهُمُ البَأْسَآءُ وَالضَّرَّآءُ وَزُلزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ مَتَىٰ نَصرُ اللهِ أَلَآ إِنَّ نَصرَ اللهِ قَرِيبٌ** ﴾ (البقرة : ٢١٤)

يقول تعالى : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة** ﴾ قبل أن تبتلوا وتختبروا وتتمحنوا ، كما فعل الذين من قبلكم من الأمم ولهذا قال : ﴿ **ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء** ﴾ وهى الأمراض والأسقام والآلام ، والمصائب والنوائب . قال ابن مسعود : ﴿ **البأساء** ﴾ الفقر ، ﴿ **الضراء** ﴾ السقم ، ﴿ **وزلزلوا** ﴾ خوفوا من الأعداء زلزالاً شديداً وامتحنوا امتحاناً عظيماً ، كما جاء الحديث عن خباب بن الأرت قال : قلنا يارسول الله ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو الله لنا فقال : « إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدمية ، لا يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه ، لا يصرفه ذلك عن دينه » ، ثم قال : « والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون » . رواه البخارى .

وقال تعالى : ﴿ **ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾ وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة رضى الله تعالى عنهم فى

يوم الأحزاب ، كما قال تعالى : ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ . ولما سأل هرقل أبا سفيان هل قاتلتموه قال : نعم ، قال : فكيف كانت الحرب بينكم ؟ قال : سجالاً يدال علينا وندال عليه ، قال : كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة .

وقوله تعالى : ﴿ مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾ أى سننهم كما قال تعالى : ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين ﴾ ، وقوله : ﴿ وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ أى يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة . قال الله تعالى : ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾ ، كما قال : ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾ ، وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها ولهذا قال : ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾ .

(٤) الجنة أعدت للمتقين :

قال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغفِرَةٍ مِن رَّبِكُم وَجَنَّةٍ عَرضُهَا السَّمَواتُ والأَرْضُ أُعِدَّت لِلمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّآءِ والضَّرَّآءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ المُحسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَو ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُم ذَكَرُوا الله فَاستَغفَرُواْ لِذُنُوبِهِم وَمَن يَغفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَم يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُم يَعلَمُونَ * أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغفِرَةٌ مِن رَّبِهِم وَجَنَّاتٌ تَجرِى مِن تَحتِهَا الأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعمَ أَجرُ العَامِلِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٣ - ١٣٦)

قوله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ أى كما أعدت النار للكافرين . وقد قيل : إن فى معنى قوله : ﴿ عرضها السموات والأرض ﴾ تنبيهاً على اتساع طولها ، كما قال فى صفة فرش الجنة : ﴿ بطائنها من إستبرق ﴾ أى فما ظنك بالظهائر ، وقيل : بل عرضها كطولها لأنها قبة تحت العرش ، والشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله ،

وقد دل على ذلك ما ثبت فى الصحيح : « إذا سألتم الله الجنة فاسأوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنها الجنة ، وسقفها عرش الرحمن » . وهذه الآية كقوله فى (سورة الحديد) : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض** ﴾ الآية . وقد روينا فى مسند الإمام أحمد أن (هرقل) كتب إلى النبى ﷺ إنك دعوتنى إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال النبى ﷺ : « فأين الليل إذا جاء النهار » . .

وهذا يحتمل معنيين ، (أحدهما) : أن يكون المعنى فى ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون فى مكان ، وإن كنا لا نعلمه ، وكذلك النار تكون حيث شاء الله عزّ وجل ، وهذا أظهر ، (الثانى) : أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب ، فإن الليل يكون من الجانب الآخر ، فكذلك الجنة فى أعلى عليين فوق السماوات تحت العرش وعرضها ، كما قال الله عز وجل : ﴿ **عرضها السموات والأرض** ﴾ والنار فى أسفل سافلين ، فلا تنافى بين كونها كعرض السماء والأرض وبين وجود النار ، والله أعلم .

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال : ﴿ **الذين ينفقون فى السراء والضراء** ﴾ أى فى الشدة والرخاء ، والمنشط والمكره ، والصحة والمرض . وفى جميع الأحوال ، كما قال : ﴿ **والذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية** ﴾ ، والمعنى : أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق فى مراضيه ، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر ، وقوله تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس** ﴾ ، أى إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه ، وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم ، وقد ورد فى بعض الآثار : ﴿ **يقول تعالى يابن آدم اذكرنى إذا غضبت أذكرك إذا غضبت فلا أهلكك فيمن أهلك** »[1] .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »[2] وقال الإمام أحمد ،

(١) رواه ابن أبى حاتم . (٢) أخرجه الإمام أحمد .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله » ، قالوا : يارسول الله مامنا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه ، قال : « اعلموا أنه ليس منكم أحد إلا مال وارثه أحب إليه من ماله ، مالك من مالك إلا ما قدمت ومال وارثك إلا ما أخرت » قال : وقال رسول الله ﷺ : « ما تعدون الصرعة فيكم ! قلنا الذى لا تصرعه الرجال ، قال : « لا ، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب » . قال ، وقال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما الرقوب » قلنا : الذى لاولد له ، قال : لا ، ولكن الرقوب الذى لا يقدم من ولده شيئاً »[٣] .

(حديث آخر) : قال الإمام أحمد ، عن سهل بن معاد بن أنس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أى الحور شاء » .

(حديث آخر) : عن أبى هريرة رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ أن النبى ﷺ قال : « من كظم غيظاً وهو قادر على إنفاذه ملأ الله جوفه أمنا وإيماناً » .

فقوله تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ أى لا يعملون غضبهم فى الناس بل يكفون عنهم شرهم ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل ، ثم قال تعالى : ﴿ **والعافين عن الناس** ﴾ أى مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم فى أنفسهم ، فلا يبقى فى أنفسهم موجدة على أحد ، وهذا أكمل الأحوال ولهذا قال : ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ فهذا من مقامات الإحسان . وفى الحديث : « ثلاث أقسم عليهن ، ما نقص مال من صدقه ، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه الله » . وروى الحاكم فى مستدركه ، عن أبى بن كعب ، أن رسول الله ﷺ قال : « ومن سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات ، فليعف عمن ظلمه ، ويعط من حرمه ، ويصل من قطعه » . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد يقول : أين العافون

---

(٣) رواه أحمد وأخرجه البخارى (النص الأول منه) .

عن الناس ، هلموا إلى ربكم ، وخذوا أجوركم ، وحق على كل امرىء مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم** ﴾ أى إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار . قال الإمام أحمد ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « إن رجلاً أذنب ذنباً فقال : رب إنى أذنبت ذنباً فاغفره لى ، فقال الله عز وجل : عبدى عمل ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى ، ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إنى عملت ذنباً فاغفره ، فقال تبارك وتعالى : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى ، ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إنى عملت ذنباً فاغفر لى : فقال عزّ وجلّ : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى ، ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إنى عملت ذنبا فاغفره فقال الله عز وجل عبدى علم أنه له رباً يغفر الذنب ويأخذ به أشهدكم أنى قد غفرت لعبدى فليعمل ما شاء» . وعن على رضى الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثا نفعنى الله بما شاء منه، وإذا حدثنى عنه غيره استحلفته، فإذا حلف لى صدقته ، وإن أبا بكر رضى الله عنه حدثنى ، وصدق أبو بكر ، أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ ويحسن الوضوء ثم يصلى ركعتين فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له »[2] . ومما يشهد لصحة هذا الحديث ما رواه مسلم فى صحيحيه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ – أو فيسبغ – الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » . عن أنس رضى الله عنه قال : بلغنى أن إبليس حين نزلت هذه الآية : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفر لذنوبهم** ﴾ بكى .

وعن أبى بكر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منهما فإن إبليس قال : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكونى

(١) أخرجه ابن مردوية .   (٢) رواه أحمد وأهل السنن وابن حبان .

بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنه مهتدون »[1] . وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : « قال إبليس : يارب وعزتك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الله تعالى : وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما ستغفرونى » . وقوله تعالى : ﴿ **ومن يغفر الذنوب إلا الله** ﴾ أى لا يغفرها أحد سواه ، وقوله : ﴿ **ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾ أى تابوا من بعد ذنوبهم ورجعوا إلى الله عز وجل عن قريب ، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليهم غير مقلعين عنها ، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه ، كما قال رسول الله ﷺ : « ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة »[2] ، ﴿ **وهم يعلمون** ﴾ أن من تاب تاب الله عليه وهذا كقوله تعالى : ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده** ﴾ ، وكقوله : ﴿ **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً** ﴾ ونظائر هذا كثيرة جداً . ثم قال تعالى بعد وصفهم بما وصفهم به : ﴿ **أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم** ﴾ أى جزاؤهم على هذه الصفات ﴿ **مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ أى من أنواع المشروبات ، ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أى ماكثين فيها ، ﴿ **ونعم أجر العاملين** ﴾ يمدح تعالى الجنة .

(٥) من عدل فى وصيته دخل الجنة :

قال الله تعالى : ﴿ **تِلكَ حُدُودُ الله وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ يُدخِلُه جَنَّاتٍ تَجرى مِن تَحتِها الأنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الفوز العَظِيمُ * وَمَن يَعصِ الله وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدخِلهُ نَارًا خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ** ﴾

(النساء : ١٣ - ١٤)

أى هذه الفرائض والمقادير التى جعلها الله للورثة ، بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه ، هى حدود الله فلا تعتدوها

---

(١) رواه الحافظ أبو يعلى .
(٢) أخرجه أبو داود والترمذى والبزار .

ولا تجاوزوها ، ولهذا قال : ﴿ **ومن يطع الله ورسوله** ﴾ أى فيها فلم يزد بعض الورثة ، ولم ينقص بعضهم بحيلة ووسيلة بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته : ﴿ **يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين** ﴾ أى لكونه غير ما حكم الله به ، وضاد الله فى حكمه ، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به . ولهذا يجازيه بالإهانة فى العذاب الأليم المقيم ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى وحاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » ، قال ، ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : ﴿ **تلك حدود الله** ﴾ إلى قوله ﴿ **عذاب مهين** ﴾ وقال أبو داود فى باب الإضرار فى الوصية عن شهر بن حوشب أن أبا هريرة حدثه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الرجل ليعمل أو المرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضران فى الوصية فتجب لهما النار » : وقال : قرأ علىّ أبو هريرة من هنا : ﴿ **من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار – حتى بلغ – ذلك الفوز العظيم** ﴾ .

(٦) مآل السعداء فى الجنة :

قال الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدخِلُهُم جَنَّاتٍ تَجرى مِن تَحتِها الأنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدخِلُهُم ظَلًّا ظَلِيلاً** ﴾ (النساء : ٥٧)

وقوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً** ﴾ هذا اخبار عن مآل السعداء فى جنات عدن التى تجرى فيها الأنهار فى جميع فجاجها ومحالها وأرجائها حيث شاءوا ، وأين أرادوا ، وهم خالدون فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ولا يبغون عنها حولاً وقوله : ﴿ **لهم فيها أزواج مطهرة** ﴾ أى من الحيض ، والنفاس ،

والأذى ، والأخلاق الرذيلة ، والصفات الناقصة كما قال ابن عباس : مطهرة من الأقذار والأذى ، وقال مجاهد : مطهرة من البول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد ، وقال قتادة : مطهرة من الأذى والمآثم ، ولا حيض ولا كلف . وقوله : ﴿وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ أى ظلاً عميقاً كثيراً طيباً أنيقاً ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن فى الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها – شجرة الخلد » رواه ابن جرير وأخرجه الشيخان بنحوه .

(٧) من أحب النبى ﷺ كان معه فى الجنة :

قال الله تعالى : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰئِكَ رَفِيقًا * ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ عَلِيماً** ﴾ (النساء : ٦٩ – ٧٠)

قوله تعالى : ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا** ﴾ أى من عمل بما أمر الله به ورسوله وترك ما نهاه الله عنه ورسوله ، فإن الله عزَّ وجلَّ يسكنه دار كرامته ، ويجعله مرافقا للأنبياء ثم لمن بعدهم فى الرتبة ، وهم الصديقون ، ثم الشهداء ، ثم عموم المؤمنين ، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم ، ثم أثنى عليهم تعالى فقال : ﴿ **وحسن أولئك رفيقا** ﴾ . وقال البخارى عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من نبى يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة » ، وكان فى شكواه التى قبض فيها أخذته بحة شديدة ، فسمعته يقول : ﴿ **مع الذين أنعم الله عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين** ﴾ فعلمت أنه خُيِّر . وهذا معنى قوله ﷺ فى الحديث الآخر : « اللهم الرفيق الأعلى » ثلاثاً ثم قضى ، عليه أفضل الصلاة والتسليم .

ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة :

روى ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون ، فقال له النبى ﷺ : « يافلان مالى أراك محزوناً » ؟ فقال : يانبى الله شيء فكرت فيه ، فقال ما هو ؟ قال : نحن نغدو ونروح ننظر

إلى وجهك ونجالسك ، وغدا ترفع مع النبيين ، فلا نصل إليك ، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئا ، فأتاه جبريل بهذه الآية : ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين** ﴾ الآية ، فبعث النبي ﷺ فبشره ، وعن عائشة ، قالت : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله ! إنك لأحب إلىَّ من نفسى ، وأحب إلىَّ من أهلى ، وأحب إلىَّ من ولدى ، وإنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى أتيك فأنظر إليك ، وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك ، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه : ﴿ **ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا** ﴾.

وثبت فى صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمى أنه قال : كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته ، فقال لى : سل . فقلت يارسول الله أسألك مرافقتك فى الجنة ، فقال : « أو غير ذلك ؟ » قلت : هو ذلك ، قال : « فأعنى على نفسك بكثرة السجود » . وقال الإمام أحمد عن عمرو بن مرة الجهنى ، قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله شهدت أن لا إلّه إلا الله ، وأنك رسول الله ، وصليت الخمس ، وأديت زكاة مالى وصمت شهر رمضان ، فقال رسول الله ﷺ : « من مات على ذلك كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا — ونصب أصبعيه — ما لم يعقَّ والديه » تفرد به أحمد . وروى الترمذى عن أبى سعيد قال ، قال رسول الله ﷺ : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء » . وقد ثبت فى الصحيح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، فقال : « المرء مع من أحب » . قال أنس : فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث ، وفى رواية عن أنس أنه قال : إنى لأحب رسول الله ﷺ وأحب أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، وأرجو أن الله يبعثنى معهم ، وإن لم أعمل كعملهم . قال الإمام مالك بن أنس عن أبى سعيد الخدرى قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق

أو المغرب لتفاضل بينهم » ، قالوا : يارسول الله ﷺ تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال : « بلى ، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين »[1] .

قال تعالى : ﴿ **ذلك الفضل من الله** ﴾ أى من عند الله برحمته ، وهو الذى أهلهم لذلك لا بأعمالهم ، ﴿ **وكفى بالله عليما** ﴾ أى هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق .

(٨) عطاء العلام لخير الأنام ﷺ :

قال الله تعالى : ﴿ **إِن تُعَذِّبهُم فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغفِر لَهُم فَإِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ** ﴾ (المائدة : ١١٨)

قوله تعالى : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عزَّ وجلَّ ، فإنه الفعال لما يشاء الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ويتضمن التبرى من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله ، وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب ، وقد ورد فى الحديث أن النبى ﷺ قام ليلة حتى الصباح يرددها ، قال الإمام أحمد عن أبى ذر رضى الله عنه قال : صلى النبى ﷺ ذات ليلة ، فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ فلما أصبح ، قلت : يارسول الله مازلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال : « إنى سألت ربى عز وجل الشفاعة لأمتى فأعطانيها وهى نائلة إن شاء الله لمن لم يشرك بالله شيئاً » . وقال ابن أبى حاتم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ تلا قول عيسى ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ فرفع يديه فقال : « اللهم أمتى » وبكى ، فقال الله : ياجبريل اذهب إلى محمد – وربك أعلم – فاسأله ما يبكيه !

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم .

فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم ، فقال الله : ياجبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك . وقال الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان قال غاب عنا رسول الله ﷺ يوماً فلم يخرج، حتى ظننا أن لن يخرج ، فلما خرج سجد سجدة ، ظننا أن نفسه قد قبضت فيها ، فلما رفع رأسه قال : « إن ربى عزَّ وجلَّ استشارنى فى أمتى ماذا أفعل بهم ؟ فقلت : ما شئت أى رب خلقك وعبادك ، فاستشارنى الثانية فقلت له : كذلك ، فقال لى : لا أخزيك فى أمتك يامحمد ، وبشرنى أن أول من يدخل الجنة من أمتى معى سبعون ألفاً مع كل ألف سبعون ألفا ليس عليهم حساب ، ثم أرسل إلىَّ فقال : ادع تجب وسل تعطى ، فقلت لرسوله : أو معطى ربى سؤالى ؟ فقال : ما أرسلنى إليك إلا ليعطيك ؟ ولقد أعطانى ربى – ولا فخر – وغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر . وأنا أمشى حياً صحيحاً ، وأعطانى ألا تجوع أمتى ولا تغلب ، وأعطانى الكوثر وهو نهر فى الجنة يسيل فى حوضى ، وأعطانى العز ، والنصر ، والرعب يسعى بين يدى أمتى شهرا ، وأعطانى أنى أول الأنبياء يدخل الجنة ، وطيب لى ولأمتى الغنيمة ، وأحل لنا كثيراً مما شدد على من قبلنا ، ولم يجعل علينا فى الدين من حرج[1] .

(٩) يوم ينفع الصادقين صدقهم :

قال الله تعالى : ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

(المائدة : ١١٩ – ١٢٠)

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام فيما أنهاه إليه من التبرى من النصارى الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله ، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربهم عزَّ وجلَّ ، فعند ذلك يقول الله تعالى : ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين

---

(١) الحديث وإن كان ضعيف السند ففى أحاديث الشفاعة ما يؤيده ويؤكده .

صدقهم ﴾ قال ابن عباس : يوم ينفع الموحدين توحيدهم ﴿ لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ﴾ أى ماكثين فيها لا يحولون ولا يزولون رضى الله عنهم ورضوا عنه ، كما قال تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ . وسيأتى ما يتعلق بتلك الآية من الحديث ، وروى ابن أبى حاتم عن أنس مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ فيه : « ثم يتجلى لهم الرب جل جلاله فيقول : سلونى سلونى أعطكم – قال – فيسألونه الرضا فيقول : رضاى أحلكم دارى ، وأنالكم كرامتى ، فسلونى أعطكم فيسألونه الرضا – قال فيشهدهم أنه قد رضى عنهم . سبحانه وتعالى » ، وقوله : ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ أى هذا الفوز الكبير الذى لا أعظم منه ، كما قال تعالى : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ ، وكما قال : ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير ﴾ أى هو الخالق للأشياء المالك لها ، المتصرف فيها ، القادر عليها ، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته وفى مشيئته ، فلا نظير له ولا وزير ولا عديل ولا والد ولا صاحبة ، ولا إله غيره ولا رب سواه . قال ابن وهب : آخر سورة أنزلت سورة المائدة .

(١٠) قول أهل الجنة : الحمد لله الذى هدانا لهذا :

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفسًا إِلَّا وُسعَهَآ أُولَـٰٓئِكَ أَصحَابُ الجَنَّةِ هُم فِيهَا خَالِدُونَ * وَنَزَعنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِن غِلٍّ تَجرِى مِن تَحتِهِم الأَنهَارُ وَقَالُوا الحَمدُ لله الَّذِى هَدَانَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهتَدِىَ لَولَآ أَن هَدَانَا اللهُ لَقَد جَآءَت رُسُلُ رَبِّنَا بِالحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلكُمُ الجَنَّةُ أُورِثتُموهَا بِمَا كُنتُم تَعمَلُونَ ﴾ (الأعراف : ٤٢ – ٤٣)

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء فقال : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أى آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله واستكبروا عنها نبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل لأنه تعالى قال : ﴿ لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب

الجنة هم فيها خالدون . ونزعنا ما فى صدورهم من غل ﴾ أى من حسد وبغض ، كما جاء فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال ، قال رسول الله ﷺ : « إذا خلص المسلمون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا ، أذن لهم فى دخول الجنة فو الذى نفسى بيده إن أحدهم بمنزله فى الجنة أدل منه بمسكنه فى الدنيا » .
وقال السدى فى الآية : إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة ، فى أصل ساقها عينان ، فشربوا من إحداهما ، فينزع ما فى صدورهم من غل فهو الشراب الطهور ، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم ، فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبداً ، وقال على رضى الله عنه : إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ **ونزعنا ما فى صدورهم من غل** ﴾[1] . وروى النسائى وابن مردوية عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول : لولا أن الله هدانى فيكون له شكرا ، وكل أهل النار يرى مقعده فى الجنة فيقول : لو أن الله هدانى فيكون له حسرة »[2] . ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا أن تلكم الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون ، أى بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم ، وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت فى الصحيحين عنه ﷺ : « واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة » ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ! قال : « ولا أنا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل »[3] .

نداء أصحاب الجنة أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً :

قال الله تعالى : ﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ** ﴾ (الأعراف : ٤٤ — ٤٥)

---

(١) رواه ابن جرير عن قتادة عن على كرم الله وجهه .
(٢) أخرجه ابن مردوية والنسائى عن أبى هريرة مرفوعاً .
(٣) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة مرفوعاً .

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على التقريع والتوبيخ إذ استقروا فى منازلهم ﴿ **أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً** ﴾ « أن » ههنا مفسرة للقول المحذوف ، و « قد » للتحقيق ، أى قالوا لهم : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ! قالوا : نعم كما أخبر تعالى فى سورة الصافات عن الذى كان له قرين من الكفار ، فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ﴿ **قال تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين** ﴾ أى ينكر عليه مقالته التى يقولها فى الدنيا ويقرعه بما صار عليه أهل العذاب والنكال ، وكذلك تقرعهم الملائكة يقولون لهم : ﴿ **هذه النار التى كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون** ﴾ ، وكذلك قرع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر فنادى : « ياأبا جهل بن هشام ، وياعتبة ، بن ربيعة ، وياشيبة بن ربيعة — وسمى رؤوسهم — هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا . وقال عمر يارسول الله تخاطب قوماً قد جيفوا ؟ فقال : « والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا »(٤) ، وقوله تعالى : ﴿ **فأذن مؤذن بينهم** ﴾ أى أعلم معلم ونادى مناد ﴿ **أن لعنة الله على الظالمين** ﴾ أى مستقرة عليهم ، ثم وصفهم بقوله : ﴿ **الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً** ﴾ أى يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء ، ويبغون أن تكون السبل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد ، ﴿ **وهم بالآخرة كافرون** ﴾ أى وهم بلقاء الله فى الدار الآخرة كافرون أى جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به ، لهذا لا يبالون بما يأتون من منكر القول والعمل لأنهم لا يخافون حسابا عليه ولا عقاباً ، فهم شر الناس أقوالاً وأعمالاً .

أصحاب الأعراف يحيون أهل الجنة بالسلام لم يدخلوها ، وهم يطمعون أن يدخلوها وهم داخلون إن شاء الله :

---

(٤) الحديث مروى فى الصحيحين .

قال الله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُم وَنَادَوا أَصحَابَ الجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيكُمْ لَم يَدخُلُوهَا وَهُم يَطمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَت أَبصَارُهُم تِلقَآءَ أَصحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجعَلنَا مَعَ القَومِ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأعراف : ٤٦ - ٤٧)

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار ، نبه أن بين الجنة والنار حجاباً ، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة ، قال ابن جرير : وهو السور الذى قال الله تعالى فيه ﴿ فضرب بينهم بسور له باب ﴾ وهو الأعراف الذى قال الله تعالى فيه : ﴿ وعلى الأعراف رجال ﴾ ، ثم روى بإسناده عن السدى أنه قال فى قوله تعالى : ﴿ وبينهما حجاب ﴾ هو السور وهو الأعراف ، وقال مجاهد : الأعراف حجاب بين النار والجنة سور له باب . قال ابن جرير والأعراف جمع عرف ، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفاً ، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه . وعن ابن عباس : هو سور بين الجنة والنار ، وقال السدى : إنما سمى الأعراف أعرافاً لأن أصحابه يعرفون الناس ، واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد ، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم[1] . وقد جاء فى حديث مرفوع رواه الحافظ ابن مردوية عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله ﷺ عمن استوت حسناته وسيئاته ، فقال : « أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون » . وقال ابن جرير عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف ، قال فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وخلفت بهم حسناتهم عن النار . قال : فوقفوا هنا على السور حتى يقضى الله فيهم .

---

(١) قال بذلك حذيفة وابن مسعود وغير واحد من السلف .

وعن ابن مسعود قال : يحاسب الناس يوم القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر من سيئاته بواحدة دخل النار ، ثم قرأ قول الله : ﴿ **فمن ثقلت موازينه** ﴾ الآيتين ، ثم قال : الميزان يخف بمثقال حبة ، ويرجح ، قال : ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم ، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم ونظروا إلى أهل النار ﴿ **قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾ تعوذوا بالله من منازلهم ، قال : فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نور يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة ، فلما رأى أهل الجنة ما لقى المنافقون قالوا : ﴿ **ربنا أتمم لنا نورنا** ﴾ ، وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان بأيديهم لم ينزع ، فهنالك يقول الله تعالى : ﴿ **لم يدخلوها وهم يطمعون** ﴾ فكان الطمع دخولاً ، قال : فقال ابن مسعود إن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر ، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة ، ثم يقول : هلك من غلبت آحاده عشراته[1] . وسئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف ؟ قال : « هم آخر من يفصل بينهم من العباد ، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد ، قال أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ، ولم تدخلوا الجنة ، فأنتم عتقائى ، فارعوا من الجنة حيث شئتم »[2] .

وقد حكى القرطبي وغيره فيهم اثنى عشر قولاً ، وقوله تعالى : ﴿ **يعرفون كلا بسيماهم** ﴾ قال ابن عباس : يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه ، وقال العوفى عن ابن عباس : أنزلهم الله بتلك المنزلة ليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ويتعوذون بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين ، وهم فى ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام ولم يدخلوها وهم يطمعون قال : والله ما جعل ذلك الطمع فى قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم ، وقال قتادة : قد أنبأكم الله بمكانهم من

---

(١) رواه ابن جرير عن ابن مسعود موقوفاً .

(٢) قال ابن كثير هذا مرسل حسن .

الطمع ، وقوله : ﴿ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس : إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . وقال السدى : وإذا مروا بهم يعنى أصحاب الأعراف بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . وقال عكرمة : تجدد وجوههم للنار ، فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم ، وقال ابن أسلم فى قوله : ﴿ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار ﴾ فرأوا وجوههم مسودة وأعينهم مزرقة ﴿ قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ .

﴿ وَنَادَىٰ أصحَابُ الأعَرافِ رِجَالاً يَعرِفُونَهُم بِسِيمَاهُم قَالُوا مَآ أَغنَىٰ عَنكُم جَمعُكُم وَمَا كُنتُم تَستَكبِرُونَ * أَهَؤُلَآءِ الَّذِينَ أَقسمتُم لَا يَنالُهمُ اللهُ بِرَحمَةَ ادخُلُوا الجَنَّةَ لَا خَوفٌ عَلَيكُم وَلَآ أَنتُم تَحزَنُونَ ﴾

(الأعراف : ٤٨ – ٤٩)

يقول الله تعالى إخباراً عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم فى النار بسيماهم ﴿ ما أغنى عنكم جمعكم ﴾ أى كثرتكم ، ﴿ وما كنتم تستكبرون ﴾ أي لا تنفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله بل صرتم إلى ما أنتم من العذاب والنكال ، ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ﴾ ، قال ابن عباس يعنى أصحاب الأعراف ﴿ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ وقال ابن جرير عن ابن عباس ﴿ قالوا ما أغنى عنكم جمعكم ﴾ الآية ، قال : فلما قالوا لهم الذى قضى الله أن يقولوا يعنى أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار ، قال الله لأهل التكبر والأموال : ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ .

طعام أهل الجنة محرم على الكافرين :

قال الله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ أَصحَابُ النَّارِ أَصحَابَ الجَنَّةِ أَن أَفِيضُواْ عَلَينَا مِنَ المَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوٓاْ إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِينَ * الَّذِينَ

اتَّخَذوا دِينَهُم لَهوًا وَلَعِبًا وَغرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنيَا فَاليَومَ نَنساهُم كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَومِهِم هَذَا وَمَا كَانُواْ بِأَيَاتِنَا يَجحَدُونَ ﴾ (الأعراف : ٥٠ - ٥١)

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك ، قال السدى : ﴿ أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ﴾ يعنى الطعام ، وقال ابن أسلم : يستطعمونهم ويستسقونهم ، وقال سعيد بن جبير : ينادى الرجل أباه أو أخاه فيقول له : قد احترقت ، فأفض علىَّ من الماء ، فيقول لهم أجيبوهم ، فيقولون : ﴿ إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ : يعنى طعام الجنة وشرابها وسئل ابن عباس أى الصدقة أفضل ؟ فقال ، قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصدقة الماء ، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة ، قالوا : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله »(١) ؟ ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه فى الدنيا باتخاذهم الدين لهوا ولعبا ، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل بالآخرة ، وقوله : ﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ أى يعاملهم معاملة من نسيهم ، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه كما قال تعالى : ﴿ لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ ، وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ ، وقال : ﴿كذلك آتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ ، وقال ابن عباس : نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر ، وعنه : نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا ، وقال مجاهد : نتركهم فى النار ، وقال السدى : نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا ، وفى الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى ، فيقول : أظننت أنك ملاقىَّ ! فيقول : لا ، فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتنى .

---

(١) رواه ابن أبى حاتم .

(١١) منزلة الشهداء فى هذه الدار وفى دار القرار :

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران : ١٦٩ – ١٧١)

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم ، وإن قتلوا فى هذه الدار ، فإن أرواحهم حية مرزوقة فى دار القرار ، روى ابن جرير بسنده عن أنس بن مالك فى قصة أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبى الله إلى أهل (بئر معونة) قال : لا أدرى أربعين أو سبعين ، وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفرى ، فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ حتى أتوا غارا مشرفاً على الماء فقعدوا فيه ، ثم قال بعضهم لبعض : أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ ، هذا الماء ؟ فقال – أراه أبو ملحان الأنصارى – أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ فخرج حتى أتى حول بيتهم فاجتثى أمام البيوت ثم قال :

ياأهل بئر معونة إنى رسول رسول الله إليكم ، إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فآمنوا بالله ورسوله ، فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضربه فى جنبه حتى خرج من الشق الآخر ، فقال : الله أكبر فزت ورب الكعبة ، فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه فى الغار فقتلهم أجمعين (عامر بن الطفيل) .

وقال ابن إسحاق : حدثنى أنس بن مالك أن الله أنزل فيهم قرآنا ، بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه ، ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناها زماناً ، وأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ ، وقد قال مسلم فى صحيحه ، عن مسروق قال : سألنا عبد الله عن هذه الآية : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : « أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل

معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربهم اطلاعه فقال : هل تشتهون شيئا ؟ فقالوا : أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يارب نريد أن تردَّ أرواحنا فى أجسادنا حتى نُقتل فى سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا » .

(حديث آخر) : عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : « ما من نفس تموت لها عند الله خير ، يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد ، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ فرحين بما آتاهم الله ﴾ إلى آخر الآية : أى الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله أحياء عند ربهم ، وهم فرحون بما آتاهم فيه من النعمة والغبطة ، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم فى سبيل الله أنهم يقدمون عليهم ، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم ، نسأل الله الجنة . وقال محمد بن إسحاق : ﴿ ويستبشرون ﴾ أى ويسرون بلحوق من لحقهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم ، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذى أعطاهم . قال السدى : يؤتى الشهيد بكتاب فيه يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، ويقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، فيسر بذلك كما يسر أهل الدنيا بغائبهم إذا قدم ، قال سعيد بن جبير : لما دخلوا الجنة رأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا : ياليت إخواننا الذين فى الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة ، فإذا شهدوا القتال باشروها بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير ، فأخبر رسول الله ﷺ بأمرهم وما هم فيه من الكرامة ، وأخبرهم – أى ربهم – أنى قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أنتم فاستبشروا بذلك ، فذلك قوله : ﴿ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾ الآية .

---

(١) رواه أحمد وأخرجه مسلم .

وقد ثبت فى الصحيحين عن أنس فى قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قتلوا فى غداة واحدة ، وقنت رسول الله ﷺ يدعو على الذين قتلوهم ويلعنهم ، قال أنس : ونزل فيهم قرآن قرآناه حتى رفع : « أن بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا » .

ثم قال تعالى : ﴿ **يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين** ﴾ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهيد وغيرهم ، وقلما ذكر الله فضلاً ذكر به الأنبياء وثواباً أعطاهم الله إياه إلا ذكر الله ما أعطى المؤمنين من بعدهم .

عقد الرحمن :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُم وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعدًا عَلَيهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالقُرءَانِ وَمَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيعِكُمُ الَّذِى بَايَعتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيمُ** ﴾ (التوبة : ١١١)

يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم - إذ بذلوها فى سبيله - بالجنة ، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه . فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له . ولهذا قال الحسن البصرى وقتادة : بايعهم فأغلى ثمنهم ، وقال شمر بن عطية : ما من مسلم إلا ولله عز وجل فى عنقه بيعة وفى بها أو مات عليها ، ثم تلا هذه الآية ، وقال (عبد الله بن رواحة) رضى الله عنه لرسول الله ﷺ يعنى ليلة العقبة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال : « أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم ، قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : « الجنة » ، قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم** ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ **يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون** ﴾ أى سواءً قَتَلوا أو قُتلوا ، أو اجتمع لهم هذا وهذا ، فقد وجبت لهم الجنة ، ولهذا جاء فى الصحيحين : « تكفل الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى

وتصديق برسلي بأن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة » ، وقوله : ﴿ **وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن** ﴾ تأكيدا لهذا الوعد ، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسله فى كتبه العظيمة وهى (التوراة) المنزلة على موسى ، و (الإنجيل) المنزل على عيسى ، و (القرآن) المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وقوله : ﴿ **ومن أوفى بعهده من الله** ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد ، وكذا كقوله : ﴿ **ومن أصدق من الله حديثاً** ﴾ ، ﴿ **ومن أصدق من الله قيلاً** ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ **فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ أى فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ، ووفى بهذا العهد ، بالفوز العظيم والنعيم المقيم .

من هو المجاهد فى سبيل الله :

قال الله تعالى : ﴿ **التَّآئِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالمَعرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ وَالحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ المُؤمِنِينَ** ﴾ (التوبة : ١١٢)

هذا نعت المؤمنين الذين اشتروا الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة ، ﴿ **التائبون** ﴾ من الذنوب كلها ، التاركون للفواحش ، ﴿ **العابدون** ﴾ أى القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها ، ومن أخصها الحمد لله ، ولهذا قال : ﴿ **الحامدون** ﴾ ، ومن أفضل الأعمال الصيام ، وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع ، وهو المراد بالسياحة ههنا ، قال : ﴿ **السائحون** ﴾ كما وصف أزواج النبى ﷺ بذلك فى قوله تعالى : ﴿ **سائحات** ﴾ أى صائمات ، وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة ، ولهذا قال : ﴿ **الراكعون الساجدون** ﴾ ، وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، مع العلم بما ينبغى فعله ويجب تركه ، وهو حفظ حدود الله فى تحليله وتحريمه علماً وعملاً ، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق ، ولهذا قال : ﴿ **وبشر المؤمنين** ﴾ لأن الإيمان

يشمل هذا كله ، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به ، والسياحة يراد بها الصيام فقد سئل النبى ﷺ عن السائحين ؟ فقال : « هم الصائمون » ، وهذا أصح الأقوال وأشهرها . وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد ، وهو ما رواه أبو داود فى سننه من حديث أبى أمامه أن رجلا قال : يارسول الله ائذن لى فى السياحة ، فقال النبى ﷺ : « سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله » وعن عكرمة أنه قال : هم طلبة العلم ، وقال ابن أسلم : هم المهاجرون ، وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة فى الأرض ، والتفرد فى شواهق الجبال ، والكهوف والبرارى ، فإن هذا ليس بمشروع إلا فى أيام الفتن والزلازل فى الدين ، كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال[1] ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » ، وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ قال : القائمون بطاعة الله ، وكذا قال الحسن البصرى ، وعنه قال : لفرائض الله ، والقائمون على أمر الله .

الله ينمى أعمال الشهداء :

﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ (محمد : ٤ – ٦)

قوله تعالى : ﴿ **والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم** ﴾ أى لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها ، ومنهم من يجرى عليه عمله طول برزخه ، كما ورد بذلك الحديث عن المقدام بن معد يكرب الكندى رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن للشهيد عند الله ست خصال : أن يغفر له فى أول دفقة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحلى حلة الإيمان ، ويزوج من الحور العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصع بالدار والياقوت ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنين

(١) شعف الجبال : أى رؤوس الجبال .

وسبعين من الحور العين ، ويشفع فى سبعين إنسانا من أقاربه »[1] . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « يغفر للشهيد كل شىء إلا الدين »[2] ، وفى الصحيح : « يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته »[3] والأحاديث فى فضل الشهيد كثيرة جداً .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ سيهديهم ﴾ أى إلى الجنة ﴿ ويصلح بالهم ﴾ أى أمرهم وحالهم ، ﴿ ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ أى عرفهم بها وهداهم إليها ، وقال مجاهد : يهتدى أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها ، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، وقال محمد بن كعب : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة ، وقال مقاتل : بلغنا أن الملك الذى كان وكل بحفظ عمله فى الدنيا يمشى بين يديه فى الجنة ، ويتبعه ابن آدم حتى يأتى أقصى منزل هو له فيعرفه كل شىء أعطاه الله تعالى فى الجنة ، فإذا انتهى إلى أقصى منزله فى الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه ، وقد ورد الحديث الصحيح بذلك عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاضون مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة ، والذى نفسى بيده إن أحدهم بمنزله فى الجنة أهدى منه بمنزله الذى كان فى الدنيا » أخرجه البخارى فى صحيحه .

(١٢) رضا الله عن أهل الجنة أعظم من نعيم الجنة :

قال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة : ٧٢) .

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذى وصححه . (٢) أخرجه مسلم .
(٣) أخرجه أبو داود عن أبى الدرداء مرفوعاً .

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم فى ﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ أى ماكثين فيها أبداً ، ﴿ ومساكن طيبة ﴾ أى حسنة البناء طيبة القرار ، كما جاء فى الصحيحين : « جنتان من ذهب آنيتها وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » ، وقال ﷺ : « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن »[1] . وقال رسول الله ﷺ : « إن أهل فى الجنة ليتراءون الغرف فى الجنة كما يتراءون الكواكب فى السماء » أخرجاه فى الصحيحين . وفى مسند الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلنا يارسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال : « لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، وملاطها المسك ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم لا ييأس ، ويخلد لا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه » ، وعند الترمذى عن على رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها » فقام أعرابى فقال : يارسول الله لمن هى ؟ فقال : « لمن طيَّب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام ، وعن أسامة بن زيد قال ، قال رسول الله ﷺ : « ألا هل من مشمر إلى الجنة ؟ فإن الجنة لا حظر لها ، هى ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام فى أبد فى دار سليمة ، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة ، فى محلة عالية بهية » ، قالوا : نعم يارسول الله نحن المشمرون لها ، قال : « قولوا إن شاء الله : فقال القوم : إن شاء الله » رواه الشيخان ومالك .

وقوله تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ أى رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم ، مما هم فيه من النعيم ، كما قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يقول

---

(١) أخرجه الشيخان عن أبى هريرة .

لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم فيقولون : وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يارب وأى شيء أفضل من من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً)[1] .

(١٣) رضا الله عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين :

قال الله تعالى : ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنهُم وَرَضُوا عَنهُ وَأَعَدَّ لَهُم جَنَّاتٍ تَجرِى تَحتَهَا الأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ** ﴾ (التوبة : ١٠٠)

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، ورضاهم بما أعد لهم من جنات النعيم ، قال الشعبى : السابقون الأولون من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية ، وقال الحسن وقتادة : هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ ، فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار . والذين اتبعوهم بإحسان ، فياويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم ، ولاسيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعنى الصديق الأكبر ، والخليفة الأعظم (أبا بكر) رضى الله عنه ، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم ، عياذاً بالله من ذلك ؟ وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة ، وقلوبهم منكوسة ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضى الله عنهم ، وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضى الله عنه ، ويسبون من سبه الله ورسوله ، ويوالون من يوالى الله ، ويعادون من يعادى الله ، وهم متبعون لا مبتدعون ، ويقتدون ولا يبتدون ، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون .

---

(١) رواه الشيخان ومالك عن أبى سعيد الخدرى .

(١٤) أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِم رَبُّهُم بِإِيمَانِهِم تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُم فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُم فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُم أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾

(يونس : ١٠)

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أمروا به ، فعملوا الصالحات ، بأنه سيهديهم بإيمانهم ، أى بسبب إيمانهم فى الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة ، ويحتمل أن تكون للاستعانة ، كما قال مجاهد فى قوله : ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ قال : يكون لهم نوراً يمشون به ، وقال ابن جريج : فى الآية يمثل له عمله فى صورة حسنة إذا قام من قبره يبشره بكل خير ، فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك ، فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة ، فذلك فى قوله تعالى : ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ والكافر يمثل له عمله فى صورة سيئة وريح منتنة ، فيلزم صاحبه حتى يقذفه فى النار .

وقوله تعالى : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ أى هذا حال أهل الجنة ، قال ابن جريج : أخبرت أنه إذا مر بهم الطير يشتهونه قالوا : سبحانك اللهم ، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه ، فيسلم عليهم فيردون عليه ، فذلك قوله : ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ ، قال : فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم ، فذلك قوله : ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ ، وقال مقاتل : إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قد أحدهم : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ قال : فيقول على أحدهم عشرة آلاف خادم مع كل خادم صحفة من ذهب فيها طعام ليس فى الأخرى ، قال : فيأكل منهن كلهن ، وهذه الآية فيها شبه من قوله : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ ، وقوله : ﴿ إلا قيلا سلاماً سلاماً ﴾ وقوله : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ ، وقوله : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ﴾

الآية ، وقوله : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً ، المعبود على طول المدى ، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه ، وفى ابتداء كتابه ، وعند ابتداء تنزيله ، حيث يقول تعالى : ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب** ﴾ ، ﴿ **الحمد لله الذى خلق السموات والأرض** ﴾ إلى غير ذلك من الأحوال التى يطول بسطها ، وأنه المحمود فى الأولى والآخرة فى جميع الأحوال ، ولهذا جاء فى الحديث : « إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس » ، وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم ، فتكرر وتعاد وتزداد ، فليس لها انقضاء ولا أمد ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

(١٥) نظر أهل الجنة إلى وجه الرحمن :

قال الله تعالى : ﴿ **لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحُسنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرهَقُ وُجُوهَهُم قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ (يونس : ٢٦) .

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل فى الدنيا بالإيمان والعمل الصالح ، ﴿ **الحسنى** ﴾ فى الدار الآخرة ، ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ ؟ وقوله : ﴿ **وزيادة** ﴾ هى تضعيف ثواب الأعمال ويشمل ما يعطيهم الله فى الجنة من القصور والحور والرضا عنهم ، وما أخفاه لهم من قرة أعين ، وأفضل من ذلك وأعلاه ، النظر إلى وجه الكريم ، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته ، وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم الجمهور من السلف والخلف ، روى الإمام أحمد عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ ، وقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، نادى مناد : يأهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ألم يثقل موازيننا ؟ ألم يبيض وجوهنا ؟ ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ - قال :

فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم[1] .

وعن أبي موسى الأشعرى ، عن رسول الله ﷺ : « إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادى : يا أهل الجنة – بصوت يسمع أولهم وآخرهم – إن الله وعدكم الحسنى وزيادة ، فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن عز وجل »[2] . وسئل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ قال : « الحسنى : الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل » . وقوله تعالى : ﴿ **ولا يرهق وجوههم قتر** ﴾ أى قتام وسواد في عرصات المحشر ، كما يعترى وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة ، ﴿ **ولا ذلة** ﴾ أى هوان وصغار ، بل هم كما قال تعالى في حقهم : ﴿ **فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً** ﴾ أى نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم ، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين .

(١٦) نعيم الجنة لا يزول :

قال الله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ** ﴾ (هود : ١٠٨) .

يقول تعالى : ﴿ **وأما الذين سعدوا** ﴾ وهم أتباع الرسل ﴿ **ففى الجنة** ﴾ أى فمأواهم الجنة ، ﴿ **خالدين فيه** ﴾ أى ماكثين فيها أبداً ، ﴿ **ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك** ﴾ معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته ، بل هو موكول إلى مشيئته الله تعالى ، فله المنه عليهم دائماً ، وعقب ذلك بقوله : (**عطاء غير مجذوذ**) أى غير مقطوع[3] ، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاع أو لبس أو شيء ، بل حتم له بالدوام

---

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم وجماعة من الأئمة .

(٢) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم .

(٣) قاله مجاهد وابن عباس وأبو العالية وغير واحد .

وعدم الانقطاع ، ﴿ **إن ربك فعال لما يريد** ﴾ ، كقوله : ﴿ **لا يسئل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ ، وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله ﴿ **عطاء غير مجذوذ** ﴾ . وقد جاء فى الصحيحين : « يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقال ياأهل الجنة خلود بلا موت ، ويأهل النار خلود بلا موت » ، وفى الصحيح أيضاً : فيقول : يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً » .

(١٧) أهل الجنة يجمع الله بينهم وبين أحبابهم من الآباء والأهلين ممن هو صالح لدخول الجنة :

قال تعالى : ﴿ **جَنَّاتُ عَدنٍ يَدخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِم وَأَزوَاجِهِم وَذُرِّيَّاتِهِم وَالمَلَائِكَةُ يَدخُلُونَ عَلَيهِم مِن كُلِ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيكُم بِمَا صَبَرتُم فَنِعمَ عُقبىَ الدَّارِ** ﴾ (الرعد : ٢٣ - ٢٤)

﴿ **جنات عدن** ﴾ والعدن : الإقامة ، أى جنات إقامة يخلدون فيها . وقال الضحاك فى قوله : ﴿ **جنات عدن** ﴾ مدينة الجنة فيها الرسل والأنبياء والشهداء، وأئمة الهدى والناس حولهم بعد والجنات حولها، وقوله: ﴿ **ومن صلح من أبائهم وأزواجهم وذرياتهم** ﴾ أى يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين لتقر أعينهم بهم ، حتى أنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتنانا من الله ، وإحسانا من غير تنقيص للأعلى عن درجته ، كما قال تعالى : ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم** ﴾ الآية . وقوله : ﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ أى وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام ، والإقامة فى دار السلام ، فى جوار الصديقين والنبيين والرسل الكرام .

روى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته ائتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء ونسلم عليهم ؟ فيقول إنهم كانوا عبادا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا وتسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره ، لا يستطيع لها قضاء - قال - فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ » . ورواه أبو القاسم الطبرانى ، عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال : « أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره ، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا ، وإن كانت منهم حاجة إلى سلطان لم تقض حتى يموت وهى فى صدره ، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها فيقول : أين عبادى الذى قاتلوا فى سبيلى وأوذوا فى سبيلى وجاهدوا فى سبيلى ؟ أدخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب ، وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون : ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار ونقدس لك ، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟ فيقول الرب عز وجل : هؤلاء عبادى الذين جاهدوا فى سبيلى ، وأوذوا فى سبيلى ، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ » ، وقد جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء فى رأس كل حول فيقول لهم : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ ، وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان .

(١٨) الجنة مستقر القلب المطمئن بذكر الله :

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُم وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ (الرعد : ٢٨ - ٢٩) .

قوله تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله** ﴾ أى تطيب وتركن إلى جانب الله وتسكن عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيرا ، ولهذا قال : ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ أى هو حقيقى بذلك ، وقوله : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب** ﴾ ، وقال ابن عباس : فرح وقرة عين ، وقال عكرمة : نعم مالهم ، وقال الضحاك : غبطة لهم . وقال إبراهيم النخعى : خير لهم ، وقال قتادة : يقول الرجل : طوبى لك ، أى أصبت خيرا ، وقيل : حسنى لهم ، و ﴿ **حسن مآب** ﴾ أى مرجع ، وهذه الأقوال لا منافاة بينها ، وروى السدى عن عكرمة : طوبى لهم هى الجنة ، وبه قال مجاهد .

وروى ابن جرير ، عن شهر بن حوشب قال : طوبى شجرة فى الجنة كل شجر الجنه منها أغصانها ، وهكذا روى غير واحد من السلف أن طوبى شجرة فى الجنة فى كل دار منها غصن منها ، وذكر بعضهم أن الرحمن تبارك وتعالى غرسها بيده من حبة لولؤة وأمرها أن تمتد ، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى ، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة من عسل وخمر وماء ولبن . وروى البخارى ومسلم عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها » ، قال فحدثت بها النعمان بن أبى عياش الزرقى فقال : حدثنى أبو سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « إن فى الجنة شجرة يسر الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها . وفى صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ **وظل ممدود** ﴾ قال : « فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها » .

(١٩) فواكه الجنة ومطاعمها لا تنقطع :

قال الله تعالى : ﴿ **مَّثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ تَجرِى مِن تَحتِهَا الأَنهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلكَ عُقبَىَ الَّذِينَ اتَّقَوا ..** ﴾ (الرعد : ٣٥)

قوله تعالى : ﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون** ﴾ أى صفتها ونعتها ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ أى سارحة فى أرجائها وجوانبها ، وحيث شاء أهلها يفجرونها

تفجيراً ، أى يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا ، كقوله : ﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن** ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ **أكلها دائم وظلها** ﴾ أى فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء . وفى الصحيحين من حديث ابن عباس فى صلاة الكسوف ، وفيه قالوا : يارسول الله رأيناك تناولت شيئا فى مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت ، فقال : « إنى رأيت الجنة – أو أوريت الجنة – فتناولت منه عنقودا – ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » : وقال الحافظ أبو يعلى ، عن جابر قال : بينما نحن فى صلاة الظهر ، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا ، ثم تناول شيئا ليأخذه ثم تأخر ، فلما قضى الصلاة قال له أبى بن كعب : يارسول الله صنعت اليوم فى الصلاة شيئا ما رأيناك كنت تصنعه ، فقال : « إنى عرضت على الجنة ما فيها من الزهرة والنضرة ، فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم به فحيل بينى وبينه ، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه » .

وروى الإمام أحمد والنسائى عن زيد بن أرقم قال : جاء رجل من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم ، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ قال : « نعم ، والذي نفس محمد بيده إن الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل فى الأكل والشرب والجماع والشهوة » ، قال : إن الذى يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس فى الجنة الأذى ، قال : « تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كريح المسك فيضمر بطنه » : وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال ، قال لى رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فيخر بين يديك مشوياً » ، وجاء فى بعض الأحاديث أنه إذا فرغ منه عاد طائراً كما كان بإذن الله تعالى ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة** ﴾ ، وقال : ﴿ **ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً** ﴾ ، وكذلك ظللها لا يزول ولا يقلص كما قال تعالى : ﴿ **لهم فيها أزواج مطهرة ونبدخلهم ظلاً ظليلاً** ﴾ وقد تقدم فى الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع فى ظلها مائة عام لا يقطعها » ثم قرأ : ﴿ **وظل ممدود** ﴾ وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ليرغب فى الجنة ويحذر من النار .

(٢٠) لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله ما فى صدره من غل :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ * وَنَزَعنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِن غِلّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسسُّهُم فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِنهَا بِمُخرَجِينَ * نَبِّئ عِبَادِىَ أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ** ﴾ (الحجر : ٤٥ - ٥٠)

لما ذكر تعالى حال أهل النار ، عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم فى جنات وعيون وقوله : ﴿ **ادخلوها بسلام** ﴾ أى سالمين من الآفات مسلم عليكم ، ﴿ **آمنين** ﴾ أي من كل خوف وفزع ، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء . وقوله : ﴿ **ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين** ﴾ عن أبى أمامة قال : لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله ما فى صدره من غل حتى ينزع منه مثل السبع الضاري ، وهذا موافق لما فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة » . وقال ابن جرير : دخل عمران بن طلحة على علي رضى الله عنه بعد ما فرغ من أصحاب الجمل فرحب به وقال : إنى لأرجو أن يجعلنى الله وإياك من الذين قال الله ﴿ **ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين** ﴾ . وعن أبى حبيبة مولى لطلحة قال : دخل عمران بن طلحة على علي رضى الله عنه بعد ما فرغ من أصحاب الجمل فرحب به وقال : إنى لأرجو أن يجعلنى الله وإياك من الذين قال الله : ﴿ **ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين** ﴾ قال : ورجلان جالسان إلى ناحية البساط ، فقالا : الله أعدل من ذلك تقتلهم بالأمس وتكونون إخواناً ، فقال على رضى الله عنه : قوما أبعد أرض وأسحقها ، فمن هم إذاً إن لم أكن أنا وطلحة ؟ وفى رواية : فقام رجل من همدان فقال : الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين ، قال :

فصاح به علي صيحة ، فظننت أن القصر تدهده لها ، ثم قال ، إذا لم نكن نحن فمن هم ؟ وقال سفيان الثوري ، جاء (ابن جرموز) ، قاتل الزبير ، يستأذن على علي رضى الله عنه فحجبه طويلاً ، ثم أذن له : فقال له : أما أهل البلاء فجفوهم ، فقال علي : بفيك التراب ، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله : ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين** ﴾ ، وقال الحسن البصرى ، قال علي : فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية : ﴿ **ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين** ﴾ . وقال الثورى فى قوله : ﴿ **إخواناً على سرر متقابلين** ﴾ قال ، هم عشرة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زايد وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم أجمعين ، وقوله : ﴿ **متقابلين** ﴾ قال مجاهد : لا ينظر بعضهم في قفا بعض ، وفيه حديث مرفوع .

قال ابن أبى حاتم ، عن زيد بن أبي أوفى قال ، خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية : ﴿ **إخواناً على سرر متقابلين** ﴾ في الله ينظر بعضهم إلى بعض[1] وقوله : ﴿ **لا يمسهم فيها نصب** ﴾ يعنى المشقة والأذى ، كما جاء الصحيحين : (إن الله أمرنى أن أبشر خديجة ببيت فى الجنة لا صخب فيه ولا نصب) .

(٢١) السحاب تمطر على أهل الجنة ما يشتهونه :

قال الله تعالى : ﴿ **وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيرٌ وَلَنِعمَ دَارُ المُتَّقِينَ * جَنَّاتُ عَدنٍ يَدخُلُونَهَا تَجرِى مِن تَحتِهَا الأَنهَارُ لَهُم فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَلِكَ يَجزِى اللهُ المُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيكُمُ ادْخُلُواْ الجَنَّةَ بِمَا كُنتُم تَعمَلُونَ** ﴾ (النحل : ٣٠ - ٣٢) .

---

(١) فى اللباب : أخرج ابن أبى حاتم عن على بن الحسين : أن هذه الآية : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم ﴾ نزلت فى أبى بكر وعمر ، قيل : وأى غل ؟ قال : غل الجاهلية ، إن نبى تيم وبنى عدى وبنى هاشم كانوا أعداء ، فلما أسلموا تحابوا فأخذت أبا بكر الخاصرة ، فجعل على يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبى بكر ، فنزلت هذه الآية .

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء ، فإن أولئك قيل لهم : ﴿ **ماذا أنزل ربكم** ﴾ قالوا : معرضين عن الجواب ، لم ينزل شيئاً إنما هذا أساطير الأولين وهؤلاء قالوا : خيراً أى أنزل خيراً ، أي رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به ، ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله ، فقال : ﴿ **للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة** ﴾ الآية ، كقوله تعالى : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** ﴾ أى من أحسن عمله فى الدنيا أحسن الله إليه عمله فى الدنيا والآخرة ، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير ، أي من الحياة الدنيا والجزاء أتم من الجزاء فى الدنيا ، كقوله : ﴿ **وما عند الله خير للأبرار** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **والآخرة خير وأبقى** ﴾ ، وقال لرسوله ﷺ : ﴿ **وللآخرة خير لك من الأولى** ﴾ ، ثم وصف الدار الآخرة فقال : ﴿ **ولنعم دار المتقين** ﴾ . جنات عدن أي مقام يدخلونها ، ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ أى بين أشجارها وقصورها ، ﴿ **لهم فيها ما يشاءون** ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ **وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون** ﴾ ، وفى الحديث : « إن السحابة لتمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شرابهم ، فلا يشتهى أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليه ، حتى إن منهم لمن يقول : أمطرينا كواعب أتراباً فيكون ذلك ، ﴿ **كذلك يجزى الله المتقين** ﴾ أي كذلك يجزى الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله ، ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون ، أى مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء ، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة ، كقوله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون** ﴾ .

(٢٢) أهل الجنة يحلون فيها أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ٭ أُولَـٰئِكَ لَهُم جَنَّاتُ عَدنٍ تَجرِى مِن تَحتِهِمُ الأَنهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضرًا مِن سُندُسٍ وَإِستَبرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَآئِكِ نِعمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَت مُرتَفَقًا** ﴾ (الكهف : ٣٠ - ٣١) .

لما ذكر تعالى حالى الأشقياء ، ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فما جاءوا به وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة ، فلهم جنات عدن ، والعدن الإقامة ، ﴿ **تجرى من تحتهم الأنهار** ﴾ أي من تحت غرفهم ومنازلهم ، قال فرعون ﴿ **وهذه الأنهار تجرى من تحتى** ﴾ الآية : ﴿ **يحلون** ﴾ أي من الحلية ﴿ **فيها من أساور من ذهب** ﴾ وقال فى المكان الآخر ﴿ **ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير** ﴾ وفصله ههنا فقال ﴿ **ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق** ﴾فالسندس ثياب رقاق كالقمصان وما جرى مجراها ، وأما الإستبرق فغليظ الديباج ، وفيه بريق : وقوله : ﴿ **متكئين فيها على الآرائك** ﴾ الاتكاء : قيل : الاضجاع ، وقيل : التربع فى الجلوس ، وهو أشبه بالمراد هنا - ومنه الحديث الصحيح : « أما أنا فلا آكل متكئاً » ، والأرائك جمع أريكة وهى السرير تحت الحجلة ، عن قتادة ﴿ **على الآرائك** ﴾ قال : هي الحجال ، وقال غيره : السر فى الحجال ، وقوله : ﴿ **نعم الثواب وحسنت مرتفقاً** ﴾ : أى الجنة ثواباً على أعمالهم : ﴿ **وحسنت مرتفقاً** ﴾ أى حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً ، كما قال فى النار : ﴿ **بئس الشراب وساءت مرتفقاً** ﴾ ، وهكذا قابل بينهما فى سورة الفرقان فى قوله : ﴿ **إنها ساءت مستقراً ومقاماً** ﴾ ثم ذكر صفات المؤمنين فقال : ﴿ **خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً** ﴾ ..

(٢٣) أهل الجنة كلما ازدادوا فيها مكثاً ازدادوا لها حباً :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَت لَهُم جَنَّاتُ الفِردَوسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبغُونَ عَنهَا حِوَلاً** ﴾ (الكهف : ١٠٧ - ١٠٨)

يخبر تعالى عن عباده السعداء ، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به ، أن لهم جنات الفردوس ، قال مجاهد : هو البستان بالرومية ، وقال الضحاك ، هو البستان الذى فيه شجر الأعناب ، وقال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها ، وقد روى عن النبى ﷺ : « الفردوس ربوة الجنة أوسطها وأحسنها » وفي الصحيحين : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه

الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة » ، وقوله تعالى : ﴿ نزلاً ﴾ أى ضيافة فإن النزل الضيافة ، وقوله : ﴿ خالدين فيها ﴾ أى مقيمين ساكنين فيها ، لا يظعنون عنها أبداً ، ﴿ لا يبغون عنها حولاً ﴾ أى لا يختارون عنها غيرها ، ولا يحبون سواها ، كما قال الشاعر :

فحلت سويدا القلب لا أنا باغياً سواها ، ولا عن حبها أتحول

وفى قوله تعالى : ﴿ لا يبغون عنها حولا ﴾ تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها ، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم فى المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يمله فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدى لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً ، ولا ظعناً ولا رحلة ولا بدلاً .

(٢٤) التائبون فى جنات وعيون :

قال الله تعالى : ﴿ **إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا** ﴾ (مريم : ٦٠)

أى إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات ، فإن الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولهذا قال : ﴿ **فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً** ﴾ ذلك لأن التوبة تجب ما قبلها ، وفي الحديث الآخر « التائب من الذنب كمن لا ذنب له »[1] ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التى عملوها شيئاً ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوا بعدها لأن ذلك ذهب هدراً وترك نسياً ، وذهب مجاناً من كرم الكريم وحلم الحليم ، وهذا الاستثناء هنا كقوله فى سورة الفرقان : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق - إلى قوله - وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ .

---

(١) أخرجه ابن ماجة عن ابن مسعود والحكيم الترمذى عن أبى سعيد الخدرى .

(٢٥) الجنة دار السلام ليس فيها كلام ساقط تافه :

قال الله تعالى : ﴿ جَنَّاتِ عَدنٍ الَّتي وَعَدَ الرَّحمَٰنُ عِبَادَهُ بِالغَيبِ إِنَّهُ كَانَ وَعدُهُ مَأْتِيًّا * لَّا يَسمَعُونَ فِيهَا لَغوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُم رِزقُهُم فِيهَا بُكرَةً وَعَشِيًّا * تِلكَ الجَنَّةُ الَّتي نُورِثُ مِن عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ (مريم : ٦١ - ٦٣)

يقول تعالى : الجنات التي يدخلها التائبون هي ﴿ جنات عدن ﴾ أي إقامة ﴿ التي وعد الرحمن عباده ﴾ بظهر الغيب أى هى من الغيب الذى يؤمنون به وما رأوه ، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم ، وقوله : ﴿ إنه كان وعده مأتيا ﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره ، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله ، كقوله : ﴿ كان وعده مفعولا ﴾ أي كائناً لا محالة ، وقوله هنا « مأتياً » أي العباد صائرون إليه وسيأتونه ، ومنهم من قال ﴿ مأتياً ﴾ بمعنى آتياً ، لأن كل ما أتاك فقد أتيته ، كما تقول العرب : أتت على خمسون سنة وأتيت على خمسين سنة كلاهما بمعنى واحد ، وقوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ ، أي هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له ، كما قد يوجد فى الدنيا ، وقوله : ﴿ إلا سلاماً ﴾ استثناء منقطع ، كقوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قليلاً سلاماً سلاماً ﴾ وقوله : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ أى فى مثل وقت البكرات ووقت العشيات ، لا أن هناك ليلاً ونهاراً ولكنهم فى أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار ، كما قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ولا يتمخطون فيها ، ولا يتغوطون ، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، يسبحون الله بكرة وعشياً[(١)] وعن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة ، فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً[(٢)] قال : مقادير الليل والنهار ، وقال ابن جرير ، عن الوليد

(١) الحديث أخرجه البخارى ومسلم ورواه أحمد عن أبى هريرة مرفوعاً .

(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند .

ابن أسلم قال : سألت زهير بن محمد عن قول الله تعالى : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ قال : ليس في الجنة ليل ، هم في نور أبداً ولهم مقدار الليل والنهار ، برفع الحجب وبفتح الأبواب ، وقال قتادة : فيها ساعتان بكرة ولا عشي ، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا ، وقوله : ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين ، وهم المطيعون لله عز وجل في السراء والضراء ، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس ، وكما قال تعالى في سورة المؤمنين : ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ .

(٢٦) عشر آيات من أقامهن دخل الجنة :

قال الله تعالى : ﴿ قَد أَفلَحَ المُؤمِنُونَ * الَّذِينَ هُم فِي صَلَاتِهِم خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَغوِ مُعرِضُون * وَالَّذِينَ هُم لِلزَّكَاةِ فَاعِلُون * وَالَّذِينَ هُم لِفُرُوجِهِم حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزوَاجِهِم أَو مَامَلَكَت أَيمَانُهُم فَإِنَّهُم غَيرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ العَادُونَ * وَالَّذِينَ هُم لِأَمَانَاتِهِم وَعَهدِهِم رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُم عَلَىٰ صَلَوَاتِهِم يُحَافِظُونَ * أُولَـٰئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِردَوسَ هُم فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(المؤمنون : ١ — ١١)

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال : كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل ، فلبثنا ساعة ، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وأرضنا ، ثم قال : لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة » ثم قرأ : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى ختم العشر[1] . وقال النسائي

(٣) أخرجه الإمام أحمد والترمذي والنسائي .

فى تفسيره عن يزيد بن بابنوس ، قال : قلنا لعائشة أم المؤمنين : كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن ، فقرأت : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ – حتى انتهت إلى – ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون** ﴾ قالت : هكذا كان خلق رسول الله ﷺ وعن أنس رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زبرجدة خضراء ، ملاطها المسك ، وحصباؤها اللؤلؤ ، وحشيشها الزعفران ، ثم قال لها : انطقى ، قالت : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ ، فقال الله : « وعزتى وجلالى لا يجاورنى فيك بخيل » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ أى قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف [إلى أن وصل رحمه الله إلى تفسير قوله تعالى] : ﴿ **أولئك هم الوارثون ....** ﴾ .

المؤمن يبنى بيته الذى فى الجنة ويهدم بيته الذى فى النار :

﴿ **أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوسَ هم فيها خالدون** ﴾ ، وثبت فى الصحيحين : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس. فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن » وقال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل فى النار ، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : ﴿ **أولئك هم الوارثون** ﴾[١] . وقال مجاهد : ما من عبد إلا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل في النار ، فأما المؤمن فيبنى بيته الذى في الجنة ، ويهدم بيته الذى فى النار ، وأما الكافر فيهدم بيته الذى فى الجنة ، ويبنى بيته الذى فى النار ، فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم أطاعوا ربهم عز وجل بل أبلغ من هذا أيضاً ، وهو ما ثبت فى صحيح مسلم عن النبى ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم

---

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا ورواه الحافظ البزار والطبرانى بنحوه .

يهودياً أو نصرانياً فيقال هذا فكاكك من النار » ، فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذى لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ بذلك قال : فحلف له[1] . قلت : وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقياً** ﴾ ، وكقوله : ﴿ **وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ وقد قال مجاهد : الجنة هى الفردوس ، وقال بعض السلف : لا يسمى البستان الفردوس إلا إذا كان فيه عنب . فالله أعلم .

(٢٧) الجنة خير مأوى :

قال الله تعالى : ﴿ **أَصحَابُ الجَنَّةِ يَومَئِذٍ خَيرٌ مُستَقَرًّا وَأَحسَنُ مَقِيلاً** ﴾[1] . أي يوم القيامة ﴿ **لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون** ﴾ وذلك أن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العالية . والغرفات الآمنات ، فهم فى مقام أمين حسن المنظر طيب المقام ﴿ **خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاما** ﴾ وأهل النار يصيرون إلى الدركات السافلات وأنواع العذاب والعقوبات ﴿ **إنها ساءت مستقراً ومقاماً** ﴾ أى بئس المنزل منظراً وبئس المقيل مقاماً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً** ﴾ أي بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا وصاروا إلى ما صاروا إليه بخلاف أهل النار فإنهم ليس لهم عمل واحد يقتضى دخول الجنة لهم والنجاة من النار ، فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء وأنه لا خير عندهم بالكلية فقال تعالى : ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً** ﴾ ، قال ابن عباس : إنما هى ساعة فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين ، وقال سعيد بن جبير : يفرغ الله من الحساب نصف النهار فيقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ، قال الله تعالى : ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً** ﴾ ، قال قتادة : أى مأوى ومنزلا وقال ابن جرير عن سعيد الصواف : أنه بلغه أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وأنهم يتقلبون

---

(١) الفرقان : ٢٤

فى رياض الجنة ، حتى يفرغ من الناس وذلك قوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا ﴾ .

(٢٨) من هم عباد الرحمن الذين يسكنون الجنان :

قال الله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۞ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِهِم سُجَّدًا وَقِيَاماً ۞ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصرِف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۞ إِنَّهَا سَاءَت مُستَقَرًّا وَمُقَامًا ۞ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَم يُسرِفُوا وَلَم يَقتُرُوا وَكَانَ بَينَ ذَٰلِكَ قَوامًا ﴾ (الفرقان : ٦٣ - ٦٧)

هذه صفات عباد الله المؤمنين : ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ أى بسكينة ووقار من غير تجبر ولا استكبار ، كقوله تعالى : ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا ﴾ الآية ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياءً . فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبب وكأنما الأرض تطوى له ، وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع ، حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشى رويداً فقال : ما بالك ! أأنت مريض ؟ قال : لا ياأمير المؤمنين، فعلاه بالدرة ، وأمره أن يمشى بقوة ، وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار ، كما قال رسول الله ﷺ : « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا » ، وقوله تعالى : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ أى إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيء لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان رسول الله .. لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلماً ، وكما قال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ الآية ، وقال مجاهد : ﴿ قالوا سلاما ﴾ ، يعنى قالوا سداداً وقال سعيد بن جبير : ردوا معروفا من القول ، وقال الحسن البصرى : قالوا سلام عليكم ، إن جهل عليهم حلموا يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل ، فقال تعالى : ﴿ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ﴾ أى فى طاعته وعبادته ، كما قال تعالى : ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم

يستغفرون ﴾ . وقوله : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ الآية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً . إنها ساءت مستقراً ومقاما ﴾ [تقدم الكلام عن تفسير هذه الآية في باب النار ، أعاذنا الله منها] .

وقوله تعالى : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ الآية أى ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون فى حقهم فلا يكفونهم ، بل عدلاً خياراً ، وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا ﴿ وكان بين ذلك قواماً ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ الآية . وفي الحديث : « من فقه الرجل قصده فى معيشته »(١) ، وعن عبد الله بن مسعود قال ، قال رسول الله ﷺ : « ما عال من اقتصد » ، وقال الحسن البصرى : ليس فى النفقة فى سبيل الله سرف . وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف ، وقال غيره : السرف النفقة في معصية الله عز وجل .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَل ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا ﴾ (الفرقان : ٦٨ – ٧١) .

عن عبد الله بن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله أنداداً وهو خلقك » ، قال : ثم أي ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » ، قال : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى حليلة جارك » ، قال

(١) أخرجه الإمام أحمد .

عبد الله وأنزل الله تصديق ذلك ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر** ﴾[1] الآية وعن سلمة بن قيس قال ، قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع : « ألا إنما هى أربع » فما أنا بأشح عليهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ : « لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا » وروى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « ما تقولون فى الزنا ؟ » قالوا : حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره » قال : « فما تقولون فى السرقة ؟ » قالوا : حرمها الله ورسوله فهى حرام ، قال : « لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره » . وعن الهيثم بن مالك الطائى عن النبى ﷺ قال : ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رحم لا يحل له »[2] ، وقال ابن عباس : إن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزلت : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر** ﴾ الآية ، ونزلت : ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ الآية .
وقوله تعالى : ﴿ **ومن يفعل ذلك يلق أثاماً** ﴾ ، روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : **أثاماً** : واد فى جهنم ، وقال عكرمة ﴿ **يلق أثاماً** ﴾ أودية فى جهنم يعذب فيها الزناة ، وقال قتادة ﴿ **يلق أثاماً** ﴾ ، نكالاً ، كنا نحدث أنه واد فى جهنم ، وقال السدى : ﴿ **يلق أثاما** ﴾ جزاء وهذا أشبه بظاهر الآية وبهذا فسره بما بعده مبدلاً منه ، وهو قوله تعالى : ﴿ **يضاعف له العذاب يوم القيامة** ؟ ، **أى يقرر عليه ويغلظ** ﴿ **ويخلد فيه مهاناً** ﴾ أى حقيراً ذليلاً ، وقوله تعالى : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً** ﴾ أى جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿ **إلا من تاب** ﴾ أى فى الدنيا إلى الله عز وجل من جميع ذلك فإن الله يتوب عليه ، وفى ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ، ولا تعارض بين هذه

---

(١) أخرجه النسائى والإمام أحمد ورواه البخارى ومسلم ولفظهما ...
(٢) أخرجه أبو بكر بن أبى الدنيا عن الهيثم بن مالك مرفوعاً .

وبين آية النساء ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً** ﴾ الآية ، فإن هذه وإن كانت مدنية ، إلا إنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب .

وقوله تعالى : ﴿ **فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ فى معنى قوله : ﴿ **يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ قولان : أحدهما أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات ، قال ابن عباس : هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات فرغب الله بهم عن السيئات فحولهم إلى الحسنات فأبدلهم مكان السيئات الحسنات . وقال سعيد بن جبير أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن ، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات ، وقال الحسن البصرى : أبدلهم الله بالعمل السيء العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً ، وأبدلهم بالفجور إحصاناً ، وبالكفر إسلاماً ، (والقول الثانى) : أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، كما ثبتت السنة بذلك وصحت به الآثار المروية عن السلف رضى الله عنهم . فعن أبى ذر رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « إنى لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار ، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة يؤتى برجل فيقول : نحوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها ، قال فيقال له : عملت يوم كذا ، وكذا ، وكذا ، وعملت يوم كذا ، كذا وكذا ، فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا ، فيقال : فإن لك بكل سيئة حسنة ، فيقول : يارب عملت أشياء لا أراها هنا » قال : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه »[(١)] . وعن أبى هريرة قال : ليأتين الله عز وجل بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات ، قيل : من هم ياأبا هريرة ؟ قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات[(٢)] ، وقال على بن الحسين زين العابدين ﴿ **يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ قال : فى الآخرة . وقال مكحول : يغفرها لهم فيجعلها حسنات ، قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو جابر أنه سمع مكحولا يحدث قال : جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه فقال : يارسول الله رجل غدر وفجر ولم يدع

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة .

حاجة ولا داجة إلا اقتطفها بيمينه ، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم . فهل له من توبة ؟ فقال النبى ﷺ : « أأسلمت ؟ » قال : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فقال النبى ﷺ : « فإن الله غافر لك ما كنت كذلك ومبدل سيئاتك حسنات » ، فقال : يارسول الله وغدراتى وفجراتى ؟ فقال : « وغدراتك وفجراتك » ، فولى الرجل يكبر ويهلل[1] ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أى ذنب كان جليلاً أو حقيراً كبيراً أو صغيراً ، فقال تعالى : ﴿ **ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً** ﴾ أى فإن الله يقبل توبته ، كما قال تعالى : ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده** ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله** ﴾ الآية : أى لمن تاب إليه .

﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِم لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾

وهذه أيضا من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور ، قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام ، وقيل : الكذب والفسق واللغو والباطل ، وقال محمد بن الحنفية : هو اللغو والغناء ، وقال عمرو بن قيس : هى المجالس السوء والخنا ، وقيل : المراد بقوله تعالى : ﴿ **لا يشهدون الزور** ﴾ أى شهادة الزور وهى الكذب متعمداً على غيره كما فى الصحيحين : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » ؟ ثلاثا ، قلنا : بلى يارسول الله ، قال : « الشرك بالله وعقوق الوالدين » ، وكان متكئاً فجلس ، فقال : « ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت[2] والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أى لا يحضرونه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وإذ مروا باللغو مروا كراماً** ﴾ أى لا يحضرون الزور ، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشىء ، ولهذا

---

(١) رواه ابن أبى حاتم وأخرجه الطبرانى بنحوه .

(٢) أخرجه الشيخان .

قال : ﴿ مروا كراما ﴾ ، وروى ابن أبي حاتم عن ميسرة قال : بلغني أن ابن مسعود مر بلهو معرضاً فلم يقف ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً » ثم تلا إبراهيم بن ميسرة : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾ وهذه أيضاً من صفات المؤمنين ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ بخلاف الكافر ، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ، ولا يتغير عما كان عليه ، بل يبقى مستمراً على كفره وطيغانه ، وجهله وضلاله ، كما قال تعالى : ﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ ، وقوله : ﴿ لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾ أي بخلاف الكافر الذى إذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيه فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى ، قال مجاهد قوله : ﴿ لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾ قال : لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئاً ، وقال الحسن البصري : كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم وأعمى ، وقال قتادة لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه ، فهم والله قوم عقلوا عن الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ يعنى الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له ، قال ابن عباس : يعنون من يعمل بطاعة الله فتقر به أعينهم فى الدنيا والآخرة ، قال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين . وسئل الحسن البصرى عن هذه الآية فقال : أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله ، لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً ، أو ولد ولد ، أو أخا ، أو حميماً مطيعاً لله عزَّ وجلَّ ، وقال ابن أسلم : يعنى يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام ، وقوله تعالى : ﴿ واجعلنا للمتقين إماما ﴾ قال ابن عباس والحسن والسدي : أئمة يقتدى بنا فى الخير ، وقال غيرهم : هداة مهتدين دعاة إلى الخير . ولهذا ثبت فى صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعده ، أو صدقة جارية » .

﴿ أُوْلَـٰئِكَ يُجزَونَ الغُرفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّونَ فِيهَا تَحِيةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَت مُستَقَرًّا وَمُقَامًا * قُل مَا يَعْبَؤُاْ بِكُم رَبِي لَولَا دُعَآؤُكُم فَقَد كَذَّبتُم فَسَوفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة ، والأقوال والأفعال الجليلة ، قال بعد ذلك كله : ﴿ **أولئك** ﴾ أي المتصفون بهذه ﴿ **يجزون** ﴾ يوم القيامة ﴿ **الغرفة** ﴾ وهي الجنة سميت بذلك لارتفاعها ، ﴿ **بما صبروا** ﴾ أى على القيام بذلك ، ﴿ **ويلقون فيها** ﴾ أي فى الجنة ﴿ **تحية وسلاماً** ﴾ أى يبتدرون فيها بالتحية والإكرام ، ويلقون التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴿ **سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أى مقيمين لا يظعنون ولا يحولون ولا يموتون ، ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولا ، كما قال تعالى : ﴿ **وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض** ﴾ الآية. وقوله تعالى : ﴿ **حسنت مستقراً ومقاماً** ﴾ أي حسنت منظراً وطابت مقيلا ومنزلاً ، ثم قال تعالى : ﴿ **قل ما يعبأ بكم ربى** ﴾ أى لا يبالى ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه ، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلاً .

قال ابن عباس : لولا دعاؤكم : أى لولا إيمانكم ، وأخبر تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين . وقوله تعالى : ﴿ **فقد كذبتم** ﴾ أيها الكافرون ﴿ **فسوف يكون لزاماً** ﴾ أى فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم ، يعنى مقتضياً لعذابكم وهلاككم ودماركم فى الدنيا والآخرة .

(٢٩) القلب السليم فى جنات النعيم :

قال الله تعالى : ﴿ رَبِ هَب لِي حُكمًا وَأَلحِقنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجعَل لِي لِسَانَ صِدقٍ فِي الآخِرِينَ * وَاجعَلنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغفِر لِأَبِيَ إِنَّهُ

كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ * وَلَا تُخزنِي يَومَ يُبعَثُونَ * يَومَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَن أَتَى اللَّهَ بِقَلبٍ سَلِيمٍ * وَأُزلِفَتِ الجَنَّةُ لِلمُتَّقِينَ ﴾

(الشعراء : ٨٣ - ٩٠)

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه ربه حكماً ، قال ابن عباس : وهو العلم ، وقال عكرمة : هو اللب ، وقال مجاهد : هو القرآن ، وقال السدى هو النبوة ، وقوله : ﴿ **وألحقنى بالصالحين** ﴾ أى اجعلنى مع الصالحين فى الدنيا والآخرة كما قال النبى ﷺ عند الاحتضار : اللهم فى الرفيق الأعلى » ، قالها ثلاثاً . وفى الحديث : « اللهم أحينا مسلمين ، وأمتنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مبدلين » ، وقوله : ﴿ **واجعل لى لسان صدق فى الآخرين** ﴾ أى واجعل لى ذكراً جميلاً بعدى أذكر به ويقتدى بى فى الخير ، كما قال تعالى : ﴿ **وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم . كذلك نجزى المحسنين** ﴾ . قال مجاهد وقتادة : يعنى الثناء الحسن ، قال ليث بن أبى سليم . كل ملة تحبه وتتولاه ، وقوله تعالى : ﴿ **واجعلني من ورثة جنة النعيم** ﴾ أى أنعم على فى الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي ، وفى الآخرة بأن تجعلنى من ورثة جنة النعيم ، وقوله : ﴿ **واغفر لأبى** ﴾ الآية ، وكقوله : ﴿ **ربنا اغفر لى ولوالدى** ﴾ وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ **وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدها إياه - إلى قوله - إن إبراهيم لأواه حليم** ﴾ ، وقوله : ﴿ **ولا تخزنى يوم يبعثون** ﴾ أى أجرنى من الخزى يوم القيامة ، ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **يلقى إبراهيم يوم القيامة أباه عليه الغبرة والقترة** » .

وفى رواية أخرى : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم : **ألم أقل لك لا تعصنى ، فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك** ، فيقول إبراهيم : يارب إنك وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون فأي خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إنى حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقول : يا إبراهيم انظر تحت رجلك فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه

فيلقى فى النار »[1] . وقوله : ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون** ﴾ أى لا يقى المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿ **ولا بنون** ﴾ أى ولو افتدى بمن على الأرض جميعاً ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله ، وإخلاص الدين له ، ولهذا قال : ﴿ **إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ أى سالم من الدنس والشرك ، وقال ابن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وقال ابن عباس : القلب السليم أن يشهد أن إله إلا الله ، وقال مجاهد والحسن : ﴿ **بقلب سليم** ﴾ يعنى من الشرك ، وقال سعيد ابن المسيب : القلب السليم هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض ، قال الله تعالى : ﴿ **فى قلوبهم مرض** ﴾ قال أبو عثمان النيسابورى : هو القلب السالم من البدعة المطمئن إلى السنة ﴿ **وأزلفت الجنة** ﴾ أى قربت وأدنيت من أهلها مزخرفة مزينة لناظريها وهم المتقون الذين — رغبوا فيها وعملوا لها فى الدنيا .

(٣٠) أهل الجنة أخفوا أعمالهم فأخفى الله لهم ما لم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر :

قال الله تعالى : ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (السجدة : ١٧)

وقوله تعالى : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين** ﴾ أى فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم فى الجنات ، من النعيم المقيم ، واللذات التى لم يطلع على مثلها أحد ، لما أخفوا أعمالهم ، كذلك أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقاً ، فإن الجزاء من جنس العمل ، قال الحسن البصري : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر ، قال البخاري : قوله تعالى : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين** ﴾ الآية ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « قال الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » قال أبو هريرة اقرأوا

---

(١) أخرجه البخارى .... قال ابن كثير : والذبح هو الذكر من الضياع .

إن شئتم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ [1] . وفى الحديث : « من يدخل الجنة ينعم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »[2] وروى مسلم عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى النبى ﷺ قال : سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل ما أدنى أهل الجنة منزله ؟ قال : هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : أي رب كيف وقد أخذ الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب ، فيقول له أترضى أن يكون لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله، فقال فى الخامسة: رضيت رب، فيقول رضيت رب، قال رب فأعلاه منزلة ، قال : أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر . قال : ومصداقه من كتاب الله عز وجل : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ الآية[3] .

(٣١) أقسام أمة النبى ﷺ :

قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصطَفَينَا مِن عِبَادِنَا فَمِنهُم ظَالِمٌ لِنَفسِهِ وَمِنهُم مُقتَصِدٌ وَمِنهُم سَابِقٌ بالخَيرَاتِ بِإِذنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَضلُ الكَبِيرُ ﴾ (فاطر : ٣٢) .

يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم ، المصدق لما بين يديه من الكتب ﴿ الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ وهم هذه الأمة ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع فقال تعالى : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ وهو المفرط فى فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات ﴿ ومنهم مقتصد ﴾ وهو المؤدى للواجبات التارك للمحرمات وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات ، ﴿ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) أخرجه مسلم .
(٣) أخرجه مسلم .

للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات . قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ قال : هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله تعالى كل كتاب أنزله ، فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب ، وروى الطبرانى عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » قال ابن عباس : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ ، وكذا روى عن غير واحد من السلف ، أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج وتقصير ، وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ولا من المصطفين الوارثين للكتاب ، وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ قال : هو الكافر ، وقال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ قال : أهم أصحاب المشأمة ، وقال الحسن وقتادة : هو المنافق ، ثم قد قال ابن عباس والحسن وقتادة وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام المذكورة فى أول سورة الواقعة وآخرها . والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، وهذا اختيار ابن جرير ، كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً ، ونحن إن شاء الله تعالى نورد منها ما تيسر :

الحديث الأول : قال الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : فى هذه الآية : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله** ﴾ قال : « هؤلاء بمنزلة واحدة وكلهم فى الجنة »[1] ، ومعنى قوله بمنزلة واحدة : أى فى أنهم من هذه الأمة وأنهم من أهل الجنة ، وإن كان بينهم فرق فى المنازل فى الجنة .

---

(١) الحديث غريب من هذا الوجه وفى إسناده من لم يسم ، ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير من طريق أخرى يتقوى بها هذا الحديث .

الحديث الثاني : قال الإمام أحمد عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله** ﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً ، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون فى طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته ، فهم الذين يقولون : ﴿ **الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب** ﴾ ، **الحديث الثالث** : قال الحافظ الطبرانى عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما : ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله** ﴾ الآية ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كلهم من هذه الأمة » .

(أثر عن ابن مسعود رضى الله عنه)

قال ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : إن هذه الأمة ثلاثة أثلاث يقوم القيامة ، ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول الله عز وجل ما هؤلاء ؟ وهو أعلم تبارك وتعالى وتقول الملائكة : هؤلاء جاءوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئاً ، فيقول الرب عز وجل : أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتى ، وتلا عبد الله رضى الله عنه هذه الآية : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ الآية . أثر آخر : قال أبو داود الطيالسى ، عن عقبة بن صهبان الهنائى قال : سألت عائشة رضى الله عنه عن قول الله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ الآية ، فقالت لى : « يا بنى » هؤلاء فى الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق ، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم ، قال : فجعلت نفسها رضى الله عنها معنا » ، وهذا منها رضى الله عنها من باب الهضم والتواضع ، وإلا فهى من أكبر السابقين بالخيرات لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام وقال عوف الأعرابى ، عن كعب الأحبار رحمه الله قال : إن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، والمقتصد ، والسابق بالخيرات كلهم فى الجنة ، ألم تر أن الله تعالى قال : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير . جنات عدن يدخلونها – إلى قوله عز وجل – والذين كفروا لهم نار جهنم** ﴾ قال : فهؤلاء أهل النار)[1] ، وعن محمد بن الحنفية رضى الله عنه قال : إنها أمة مرحومة ،

---

(١) رواه ابن جرير من طرق عن عوف عن كعب الأحبار .

الظالم مغفور له ، والمقتصد فى الجنان عند الله ، والسابق بالخيرات فى الدرجات عند الله فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام ، وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة فى جميع الأقسام الثلاثة فى هذه الأمة ، والعلماء أغبط الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة ، فإنهم كما روى الإمام أحمد رحمه الله عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من أهل المدينة إلى أبى الدرداء رضى الله عنه وهو بدمشق ، فقال ، ما أقدمك أى أخى ؟ قال : حديث بلغنى أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ ، قال : أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا ، قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا : قال : أما قدمت إلا فى طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم ، قال رضى الله عنه ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يطلب فيها علماً سلك الله تعالى به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم ، وإنه ليستغفر للعالم من فى السماوات والأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر »[1] وقد تقدم فى أول (سورة طه) حديث ثعلبة بن الحكم عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء إنى لم أضع علمى وحكمتى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالى » [رواه الحافظ الطبرانى وقال ابن كثير : إسناده جيد].

الجنة ليس فيها تكاليف :

قال الله تعالى : ﴿ **جَنَّاتُ عَدنٍ يَدخُلُونَهَا يُحَلَّونَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤلُؤاً وَلِبَاسُهُم فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُواْ الحَمدُ لله الَّذِىٓ أَذهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِن فَضلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ** ﴾ (فاطر : ٣٣ - ٣٤)

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه الترمذى وأبو داود وابن ماجه .

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ، مأواهم جنات عدن أى جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله عز وجل ﴿ **يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً** ﴾ كما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » ﴿ **ولباسهم فيها حرير** ﴾ ولهذا كان محظوراً عليهم فى الدنيا فأباحه الله تعالى لهم فى الآخرة ، وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة »[1] . وقال : « هى لهم في الدنيا ولكم فى الآخرة » وقال ابن أبى حاتم ، عن أبى أمامة رضى الله عنه حدث أن رسول الله ﷺ ذكر حلي أهل الجنة فقال : « مسورون بالذهب والفضة مكللة بالدر ، وعليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة ، وعليهم تاج كتاج الملوك ، شباب جرد مرد مكحولون » ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن** ﴾ وهو الخوف من المحذور أزاحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة ، عن ابن عمر رضى اللهعنهما قال ، قال رسول الله ﷺ : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا نشورهم ، وكأنى بأهل (لا إله إلا الله) ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن »[2] وروى الطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى الموت ولا فى القبور ولا فى النشور وكأنى أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » ، قال ابن عباس : غفر لهم الكثير من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات ﴿ **الذى أحلنا دار المقامة من فضله** ﴾ يقولون : الذى أعطانا هذه المنزلة ، وهذا المقام من فضله ومنه ورحمته ، لم تكن أعمالنا تساوى ذلك ، كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله تعالى برحمة منه وفضل »

● (١) ذكر ابن كثير أيضا رحمه الله تعالى فى تفسير الآية ٢٣ من سورة الحج : (وقال عبد الله بن الزبير : من لم يلبس الحرير فى الآخرة لم يدخل الجنة) .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عمر مرفوعاً .

﴿ لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ أى لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء والنصب واللغوب. كل منهما يستعمل فى التعب ، وكأن المراد بنفى هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم والله أعلم ، فمن ذلك أنهم كانوا يدئبون أنفسهم فى العبادة فى الدنيا ، فسقط عنهم التكليف بدخولها ، وصاروا فى راحة دائمة مستمرة ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ .

(٣٢) أهل الجنة لا يشغلهم عذاب أهل النار :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَصحَابَ الجَنَّةِ اليَومَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُم وَأَزوَاجُهُم فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَآئِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُم فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّايَدَّعُونَ * سَلَامٌ قَولًا مِن رَّبٍ رَّحِيمٍ ﴾ (يس : ٥٥ – ٥٨)

يخبر تعالى عن أهل الجنة : أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فنزلوا فى روضات الجنات ، أنهم فى شغل عن غيرهم ، بما هم فيه من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، قال الحسن البصري فى شغل عما فيه أهل النار من العذاب ، وقال مجاهد : ﴿ فى شغل فاكهون ﴾ أى فى نعيم معجبون به ، وقال ابن عباس : ﴿ فاكهون ﴾ أى فرحون قال ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ﴾ قالوا : شغلهم افتضاض الأبكار ، وقال ابن عباس فى رواية عنه : ﴿ فى شغل فاكهون ﴾ أى بسماع الأوتار[1] . وقوله عز وجل : ﴿ هم وأزواجهم ﴾ قال مجاهد : وحلائلهم ﴿ فى ظلال ﴾ أى فى ظلال الأشجار ﴿ على الأرائك متكئون ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ﴿ الآرائك ﴾ هى السرر تحت الحجال . وقوله عز وجل : ﴿ لهم فيها فاكهة ﴾ أى من جميع أنواعها ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ أى مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ : « ألا هل مشمر إلى الجنة ! فإن الجنة لا خطر لها ، هى ورب الكعبة نور كلها يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ،

(١) قال أبو حاتم : لعله غلط من المستمع وإنما هو افتضاض الأبكار .

وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة . وحلل كثيرة ، ومقام فى أبد فى دار سلامة ، وفاكهة خضرة ، وخير ونعمة فى محلة عالية بهية » . قالوا : نعم يارسول الله نحن المشمرون لها ، قال ﷺ : « قالوا إن شاء الله » ، فقال القوم : إن شاء الله »[1] وقوله تعالى : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ قال ابن عباس : فإن الله تعالى نفسه سلام على أهل الجنة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ... ﴾ .

(٣٣) أهل الجنة لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّكُم لَذَآئِقُواْ الْعَذَابِ الأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَونَ إِلَّا مَا كُنتُم تَعمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخلَصِينَ * أُولَـٰئِكَ لَهُم رِزقٌ مَّعلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُم مُّكرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيهِم بِكَأسٍ مِن مَّعِينٍ * بَيضَآءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُم عَنهَا يُنزَفُونَ * وَعِندَهُم قَاصِرَاتُ الطَّرفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيضٌ مَّكنُونٌ** ﴾

(الصافات : ٣٨ - ٤٩)

يقول تعالى مخاطباً للناس : ﴿ **إنكم لذائقوا العذاب الأليم ، وما تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين ، كما قال تعالى : ﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضياً . ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين** ﴾ ، ولهذا قال جل وعلا هنا ﴿ **إلا عباد الله المخلصين** ﴾ أى ليسوا يذوقون العذاب الأليم ، ولا يناقشون فى الحساب ، بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات ، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، وقوله جل وعلا ﴿ **أولئك لهم رزق معلوم** ﴾ قال السدي : يعني الجنة ، ثم فسره بقوله تعالى : ﴿ **فواكه** ﴾ أى متنوعة ﴿ **وهم مكرمون** ﴾ أى يخدمون ويرفهون وينعمون ﴿ **فى جنات النعيم . على سرر متقابلين** ﴾ ، قال مجاهد : لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض ، وقوله تعالى :

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه ابن ماجه فى كتاب الزهد من سننه .

﴿ **يطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين ، لا فيها غول ، ولا هم عنها ينزفون** .

كما قال تعالى : ﴿ **لا يصدعون عنها ولا ينزفون** ﴾ نزه الله سبحانه وتعالى خمر الجنة عن الآفات التى فى خمر الدنيا من صداع الرأس ، ووجع البطن وهو (الغول) وذهابها بالعقل جملة فقال-تعالى : ﴿ **يطاف عليهم بكأس من معين** ﴾ أى بخمر من أنهار جارية ، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها ، قال زيد بن أسلم : خمر جارية بيضاء ، أى لونها مشرق حسن بهى ، لا كخمر الدنيا فى منظرها البشع الردىء من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم ، وقوله عز وجل : ﴿ **لذة للشاربين** ﴾ أى طعمها طيب كلونها وطيب الطعم دليل على طيب الريح ، بخلاف خمر الدنيا فى جميع ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ **لا فيها غول** ﴾ يعنى وجع البطن[1] كما تفعله خمر الدنيا ، وقيل : المراد بالغول هنا صداع الرأس ، وروى عن ابن عباس ، وقال قتادة : هو صداع الرأس ووجع البطن ، وقال السدى : لا تغتال عقولهم ، كما قال الشاعر :

فما زالت الكأس تغتالنـــا . وتذهـــب بالأول الأول

وقال سعيد بن جبير : لا مكروه فيها ولا أذى ، والصحيح قول مجاهد : أنه وجع البطن ، وقوله تعالى : ﴿ **ولا هم عنها ينزفون** ﴾ قال مجاهد : لا تذهب عقولهم[2] ، وقال ابن عباس : فى الخمر أربع خصال : (السكر ، والصداع ، والقيء والبول) ، فذكر الله تعالى خمر الجنة ، فنزهها عن هذه الخصال ، وقوله تعالى : ﴿ **وعندهم قاصرات الطرف** ﴾ أى عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن ، كما قال ابن عباس ومجاهد ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **عين** ﴾ أى حسان الأعين ، وقيل : ضخام الأعين ، وهى النجلاء العيناء فوصف عيونهن بالحسن والعفة ، كقول زليخا فى يوسف عليه السلام : ﴿ **ولقد راودته عن**

---

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد .

(٢) وكذا قال ابن عباس والحسن وعطاء والسدى .

نفسه **فاستعصم** ﴾ أى هو مع هذا الجمال عفيف تقى نقى ، وهكذا الحور العين ﴿ **خيرات حسان** ﴾ ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ **وعندهم قاصرات الطرف عين** ﴾ وقوله جل جلاله : ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾ وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان ، قال ابن عباس : ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾ يقول : اللؤلؤ المكنون ، وأنشد قول الشاعر :

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغـوا　　ص ميزت من جوهر مكنـــون

وقال الحسن : ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾ يعنى مصون لم تسمه الأيدى ، وقال سعيد بن جبير : ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾ يعنى بطن البيض ، وقال السدى : ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾ يقول : بياض البيض حين ينزع قصره ، واختاره ابن جرير لقوله : ﴿ **مكنون** ﴾ قال : والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش ، وتنالها الأيدى بخلاف داخلها وفى الحديث عن أنس رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا حزنوا ، وأنا شفيعهم إذا حبسوا ، لواء الحمد يومئذ بيدى ، وأنا أكرم ولد آدم على الله عز وجل ولا فخر ، يطوف على ألف خادم كأنهن البيض المكنون – أو اللؤلؤ المكنون – »[1] .

مؤمن فى الجنة يحكى عن قرين له فى الدنيا دخل النار :

قال الله تعالى : ﴿ **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ** ﴾ (الصافات : ٥١–٦١)

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم وروى بعضه الترمذى .

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه ﴿ أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ أى عن أحوالهم وكيف كانوا فى الدنيا ، وماذا كانوا يعانون فيها ، وذلك من حديثهم على شرابهم واجتماعهم فى تنادمهم ومعاشرتهم فى مجالسهم وهم جلوس على السرر ، والخدم بين أيديهم ، يسعون ويجيئون بكل خير عظيم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ﴿ قال قائل منهم إنى كان لى قرين ﴾ قال مجاهد : يعنى شيطاناً ، وقال ابن عباس : هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان فى الدنيا ، ولا تنافى بين كلام مجاهد وابن عباس رضى الله عنهما ، فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس فى النفس ، ويكون من الإنس فيقول كلاما تسمعه الأذنان ، وكلاهما يتعاونان ، قال الله تعالى : ﴿ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ وكل منهما يوسوس ، كما قال الله عز وجل : ﴿ من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ﴾ ولهذا : ﴿ قال قائل منهم إنى كان لى قرين . يقول أئنك لمن المصدقين ﴾ أى أأنت تصدق بالبعث والنشور ، والحساب والجزاء ؟ يعنى يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد والكفر والعناد ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون ﴾ ؟ قال مجاهد والسدى : لمحاسبون ، وقال ابن عباس : لمجزيون بأعمالنا ، قال تعالى : ﴿ قال هل أنتم مطلعون ﴾ أى مشرفون ، يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة ﴿ فاطلع فرأه فى سواء الجحيم ﴾ قال ابن عباس والسدي : يعنى فى وسط الجحيم ، وقال الحسن البصري : فى وسط الجحيم كأنه شهاب يتقدم ، وقال قتادة : ذكر أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلى ، وقال كعب الأحبار : فى الجنة كوى ، إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه فى النار اطلع فيها فازداد شكراً لله ، ﴿ قال تالله إن كدت لتردين ﴾ يقول المؤمن مخاطباً للكافر : والله إن كدت لتهلكنى لو أطلعتك ، ﴿ ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ﴾ أى ولولا فضل الله علىَّ لكنت مثلك فى سواء الجحيم ، محضر معك فى العذاب ولكنه رحمنى فهدانى للإيمان ، وأرشدنى إلى توحيده ﴿ وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴾ ؟ هذا من كلام المؤمن ، مغتبطاً نفسه بما أعطاه الله تعالى ، من الخلد فى الجنة والإقامة فى دار الكرامة ، بلا موت فيها

ولا عذاب ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ **إن هذا لهو الفوز العظيم** ﴾ قال الحسن البصري : علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه ، فقالوا : ﴿ **أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين** ﴾ ؟ قيل : لا قالوا : ﴿ **إن هذا لهو الفوز العظيم** ﴾ وقوله جل جلاله : ﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ قال قتادة هذا من كلام أهل الجنة . وقال ابن جرير : هو من كلام الله تعالى ، ومعناه : لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون فى الدنيا ليصيروا إليه فى الآخرة .

قال السدي : كان شريكان فى بنى إسرائيل ، أحدهما مؤمن والآخر كافر ، فافترقا على ستة آلاف دينار ، لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار ، ثم افترقا فمكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا ، ثم التقيا ، فقال الكافر للمؤمن : ما صنعت فى مالك ؟ أضربت به شيئاً ، أتجرت به فى شيء ؟ قال له المؤمن : لا ، فما صنعت أنت ؟ فقال اشتريت به أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً بألف دينار - قال - فقال له المؤمن : أو فعلت ؟ قال : نعم ، قال : فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلى ، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه ، ثم قال : اللهم إن فلاناً - يعنى شريكه الكافر - اشترى أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً فى الجنة ، قال : ثم أصبح فقسمها فى المساكين ، قال : ثم مكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا ، ثم التقيا ، فقال الكافر للمؤمن : ما صنعت فى مالك أضربت به فى شيء ؟ أتجرت به فى شيء ؟ قال : لا ، قال : فما صنعت أنت ؟ قال : كانت ضيعتي قد اشتد على مؤنتها ، فاشتريت رقيقاً بألف دينار ، يقومون لى فيها ويعملون لى فيها ، فقال له المؤمن : أو فعلت ؟ قال : نعم ، قال : فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلى ، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه ثم قال : اللهم إن فلاناً - يعنى شريكه الكافر - اشترى رقيقاً من رقيق الدنيا بألف دينار يموت غداً فيتركهم أو يموتون فيتركونه ، اللهم إنى اشتريت منك بهذه الألف دينارا رقيقا فى الجنة . قال : ثم أصبح ، فقسمها فى المساكين قال : ثم مكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا ، ثم التقيا ، فقال الكافر للمؤمن : ما صنعت فى مالك أضربت به فى شيء . أتجرت به فى شيء ؟ قال : لا ، فما صنعت أنت ؟ قال : كان أمرى كله قد تم إلا شيئاً واحداً ، فلانة قد

مات عنها زوجها فأصدقتها ألف دينار ، فجاءتني بها ومثلها معها ، فقال له المؤمن : أو فعلت ؟ قال : نعم ، قال ، فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلى ، فلما انصرف أخذ الألف دينار الباقية فوضعها بين يديه ، وقال : اللهم إن فلاناً – يعنى شريكه الكافر – تزوج زوجة من أزواج الدنيا بألف دينار ، فيموت غداً فيتركها أو تموت غداً فتتركه ، اللهم وإنى أخطب إليك بهذه الألف دينار حوراء عيناء فى الجنة – قال – ثم أصبح فقسمها بين المساكين – قال – فبقى المؤمن ليس عنده شيء ، فخرج شريكه الكافر وهو راكب ، فلما رآه عرفه ، فوقف عليه وسلم عليه وصافحه ، ثم قال له : ألم تأخذ من المال مثل ما أخذت ؟ قال : بلى ، قال : وهذه حالى وهذه حالك ؟ قال : أخبرنى ما صنعت فى مالك ؟ قال : أقرضته ، قال : من ؟ قال : الملىء الوفى ، قال : من ؟ قال : الله ربى ، قال ، فانتزع يده من يده ، ثم قال : ﴿ **أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون** ﴾ ؟ قال السدي : محاسبون ، قال : فانطلق الكافر وتركه ، فلما رآه المؤمن وليس يلوى عليه رجع وتركه وجعل يعيش المؤمن فى شدة من الزمان ، ويعيش الكافر فى رخاء من الزمان قال : فإذا كان يوم القيامة وأدخل الله تعالى المؤمن الجنة ، يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمار وأنهار فيقول : لمن هذا ؟ فيقال : هذا لك ، فيقول : ياسبحان الله ، أو بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا ؟ قال ، ثم يمر ، فإذا هو برقيق لا تحصى عدتهم ، فيقول : لمن هذا ؟ فيقال : هؤلاء لك ، فيقول : ياسبحان الله أو بلغ من فضل عملى أنا أثاب بمثل هذا ؟ قال : ثم يمر ، فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة فيها حوراء عيناء ، فيقول : لمن هذه ؟ فيقال : هذه لك ، فيقول : ياسبحان الله أو بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا ؟! قال : ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر ، فيقول : ﴿ **إنى كان لى قرين ، يقول أئنك لمن المصدقين . أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أءنا لمدينون** ﴾ ، قال ، فالجنة عالية ، والنار هاوية ، قال : فيريه الله تعالى شريكه فى وسط الجحيم من بين أهل النار ، فإذا رآه المؤمن عرفه ، فيقول : ﴿ **تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين . أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين . إن هذا لهو الفوز العظيم ، لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ بمثل ما قد مُنَّ عليه ، قال : فيتذكر المؤمن ما مر

عليه فى الدنيا من شدة ، فلا يذكر مما مر عليه فى الدنيا من الشدة أشد عليه من الموت) أخرجه ابن أبى حاتم .

(٣٤) أهل الجنة يساقون إليها كل جماعة تناسب بعضها بعضاً :

قال الله تعالى : ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوهَا وفُتِحَت أبوَابُهَا وَقَالَ لَهُم خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيكُم طِبتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُواْ الحَمْدُ للهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعدَهُ وَأَورَثَنَا الأَرضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيثُ نَشَآءُ فَنِعمَ أَجرُ العَامِلِينَ** ﴾ (الزمر : ٧٣ - ٧٤)

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين ، حين يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة ، ﴿ **زمراً** ﴾ أى جماعة بعد جماعة : المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع من يناسبهم : الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أشكالهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف ، وكل زمرة تناسب بعضها بعضا ، ﴿ **حتى إذا جاءوها** ﴾ أى وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط ، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا ، أذن لهم فى دخول الجنة ، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « أنا أول شفيع فى الجنة » وفى لفظ : « وأنا أول من يقرع باب الجنة »[(١)] . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : (آتى باب الجنة يوم القيامة ، فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد - قال - فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك »[(٢)] وقال رسول الله ﷺ : « أول

---

(١) أخرجه مسلم ...
(٢) أخرجه أحمد ومسلم بنحوه .

زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون فيها ولا يتفلون فيها ، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألوة ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله تعالى بكرة وعشياً »[1] . وروى الحافظ أبو يعلى ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب درى فى السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ومجامرة الألوة[2] . وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا السماء » .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ لم يذكر الجواب هنا ، وتقديره : إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم ، وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب فى الرجاء والأمل ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله تعالى دعي من أبواب الجنة وللجنة أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان » ، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : يارسول الله : ما على أحد من ضرورة دعى من أيها دعى ، فهل يدعى منها كلها أحد يارسول الله ؟ قال ﷺ : « نعم وأرجو أن تكون منهم[3] وفى صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ،

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد .

(٢) الألوّة : العود الذى يتبخر به .

(٣) أخرجه أحمد ورواه البخارى ومسلم من حديث الزهرى بنحوه .

قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » ، وعن معاذ رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « مفتاح الجنة لا إله إلا الله » أخرجه مسلم فى صحيحه .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه فى حديث الشفاعة الطويل ، « فيقول الله تعالى : يامحمد أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن ، وهم شركاء الناس فى الأبواب الأخر ، والذى نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ما بين عضادتى الباب لكما بين مكة أو هجر - وهجر مكة - وفى رواية بين مكة وبصرى[1] ، وفى صحيح مسلم عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها ، ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام[2] . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم** ﴾ أى طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم وجزاؤكم ، وقوله : ﴿ **فادخلوها خالدين** ﴾ أى ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً ، ﴿ **وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده** ﴾ أى يقول المؤمنون إذا عاينوا فى الجنة ذلك الثواب الوافر ، والعطاء العظيم ، والنعيم المقيم والملك الكبير يقولون عند ذلك : ﴿ **الحمد لله الذى صدقنا وعده** ﴾ أى الذى كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام كما دعوا فى الدنيا ﴿ **ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد** ﴾ ، ﴿ **وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب** ﴾ ، وقوله : ﴿ **وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين** ﴾ .

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة مرفوعاً .

(٢) أخرجه مسلم .

قال أبو العالية وقتادة والسدى : أى أرض الجنة ، فهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون** ﴾ ، ولهذا قالوا : ﴿ **نتبوأ من الجنة حيث نشاء** ﴾ أى أين شئنا حللنا فنعم الأجر أجرنا على عملنا . وفى الصحيحين عن أنس رضى الله عنه فى قصة المعراج قال النبى ﷺ : « أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ[1] اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك » ، وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : إن ابن صائد سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة فقال : « درمكة بيضاء مسك خالص »[2] .

وروى ابن أبى حاتم ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً** ﴾ قال : سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة ، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحتها ساقها عينان ، فعمدوا إلى إحداهما فتطهروا منها ، فجرت عليها نضرة النعيم ، فلم تغير أبشارهم بعدها أبداً ، ولم تشعث أشعارهم بعدها أبداً ، فإنما دهنوا بالدهان ثم عمدوا إلى الآخرى ، كأنما أمروا بها فشربوا منها فأذهب ما كان فى بطونهم من أذى أو قذى ، وتلقتهم الملائكة على أبواب الجنة : ﴿ **سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ ، وتلقى كل غلمان صاحبهم يطوقون به فعل الولدان بالحميم جاء من الغيبة ، أبشر قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا ، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا ، قال : وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين ، فيقول : هذا فلان باسمه فى الدنيا ، فيقلن : أنت رأيته ، فيقول : نعم ، فيستخفهن الفرح حتى تخرج إلى أسكفة الباب ، قال : فيجىء فإذا هو بنمارق مصفوفة وأكواب موضوعة وزرابى مبثوثة ، قال ، ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه ، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض ، ومن كل لون ، ثم يرفع طرفه إلى سقفه ، فلولا أن الله تعالى قدره له لألم أن يذهب ببصره

---

(١) الجنابذ ما ارتفع من الأرض وغيرها والمراد عقود اللؤلؤ .

(٢) أخرجه مسلم وعبد بن حميد ، الدرمك : التراب الناعم .

إنه لمثل البرق ، ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين ، ثم يتكىء إلى أريكة من أرائكه ثم يقول : ﴿ **الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله** ﴾ .

﴿وترى المَلَائِكَةَ حَآفِينَ مِن حَوْلِ العَرشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمدِ رَبِّهِم وقُضِىَ بَينَهُم بِالحَقِ وَقِيلَ الحَمْدُ للهِ رَبِ العَالَمِينَ﴾ (الزمر : ٧٥)

لما ذكر تعالى حكمه فى أهل الجنة والنار ، وأنه نزَّل كلا فى المحل الذى يليق به ويصلح ، وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور ، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد ، يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه ، ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور ، وقد فصل القضية وقضى الأمر وحكم بالعدل ، ولهذا قال عزّ وجل : ﴿ **وقضى بينهم** ﴾ أى بين الخلائق ، ثم قال : ﴿ **وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ أى نطق الكون أجمعه ، ناطقه وبهيمه ، لله رب العالمين بالحمد فى حكمه وعدله ، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه ، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد ، قال قتادة : افتتح الخلق بالحمد فى قوله : ﴿ **الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض** ﴾ ، واختتم بالحمد فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ **وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ .

(٢٥) المؤمن ينجو من النار بعفو الله ويدخل الجنة برحمة الله ويصعد فى درجاتها بحسب عمله الصالح :

قال الله تعالى : ﴿ **يَاعِبَادِ لَا خَوفٌ عَلَيكُمُ اليَومَ وَلَا أَنتُم تَحزَنُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُواْ بِأَيَاتِنَا وَكَانُواْ مُسلِمِينَ * ادخُلُواْ الجَنَّةَ أَنتُم وَأَزوَاجُكُم تُحبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيهِم بِصِحَافٍ مِن ذَهَبٍ وَأَكوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعيُنُ**

وَأَنتُم فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلكَ الجَنَّةُ الَّتِىٓ أُورِثتُمُوهَا بِمَا كُنتُم تَعمَلُونَ * لَكُم فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنهَا تَأكُلُونَ ﴾ (الزخرف : ٦٨ - ٧٣)

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون** ﴾ ثم بشرهم فقال : ﴿ **الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين** ﴾ أى آمنت قلوبهم وبواطنهم ، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم ، قال المعتمر بن سليمان عن أبيه : إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع فينادى مناد ﴿ **ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون** ﴾ فيرجوها الناس كلهم . فيتبعها : ﴿ **الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين** ﴾ قال : فييأس الناس منها غير المؤمنين ﴿ **ادخلوا الجنة** ﴾ أى يقال لهم ادخلوا الجنة ﴿ **أنتم وأزواجكم** ﴾ أى نظراؤكم ﴿ **تحبرون** ﴾ أى تنعمون وتسعدون ، وقد تقدم تفسيرها فى سورة الروم . ﴿ **يطاف عليهم بصحاف من ذهب** ﴾ أى زبادى آنية الطعام ﴿ **وأكواب** ﴾ وهى آنية الشراب من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى ﴿ **وفيها ما تشتهيه الأنفس** ﴾ ، وقرأ بعضهم تشتهى الأنفس : ﴿ **وتلذ الأعين** ﴾ أى طيب الطعم والريح وحسن المنظر ، روى عبد الرازق عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لرجل لا يدخل الجنة بعده أحد يفسح له فى بصره مسيرة مائة عام ، فى قصور من ذهب وخيام من لؤلؤ ، ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صحفة من ذهب ليس فيها صحفة إلا فيها لون ليس فى الأخرى مثله . شهوته فى آخرها كشهوته فى أولها ، لو أنزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى لا ينقص ذلك مما أوتى شيئا[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **وأنتم فيها** ﴾ أى فى الجنة ﴿ **خالدون** ﴾ أى لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا ، ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان : ﴿ **وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ أى أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إياكم ، فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة ولكن برحمة الله وفضله ،

---

(١) أخرجه عبد الرازق عن ابن عباس مرفوعا .

وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات ، وروى ابن أبى حاتم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أهل النار يرى منزله من الجنة فيكون له حسرة : فيقول : ﴿ **لو أن الله هدانى لكنت من المتقين** ﴾ ، وكل أهل الجنة يرى منزله فى النار فيقول : ﴿ **وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله** ﴾ فيكون له شكرا » قال : وما من أحد إلا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار والكافر يرث المؤمن منزله من النار والمؤمن يرث الكافر منزله فى الجنة وذلك قوله تعالى : ﴿ **وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿ **لكم فيها فاكهة كثيرة** ﴾ أى من جميع الأنواع ﴿ **منها تأكلون** ﴾ أى مهما اخترتم وأردتم ، ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة والله تعالى أعلم .

(٣٦) أنهار الجنة :

قال الله تعالى : ﴿ **مَّثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ مِن مَّآءٍ غَيرِ ءَاسِنٍ وَأَنهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّم يَتَغَيَّرْ طَعمُهُ وَأَنهَارٌ مِن خَمرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنهَارٌ مِن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُم فِيهَا مِن كُلِ الثَّمَرَاتِ وَمَغفِرَةٌ مِن رَّبِهِم كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمعَآءَهُم** ﴾ (محمد : ١٥)

﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون** ﴾ قال عكرمه ﴿ **مثل الجنة** ﴾ أى نعتها ، ﴿ **فيها أنهار من ماء غير آسن** ﴾ يعنى غير متغير ، والعرب تقول : أسِنَ الماء إذا تغير ريحه ، وفى حديث مرفوع : ﴿ **غير آسن** ﴾ يعنى الصاف الذى لا كدر فيه ، وقال عبد الله رضى الله عنه : أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك ﴿ **وأنهار من لبن لم يتغير طعمه** ﴾ بل فى غاية البياض والحلاوة والدسومة ، وفى حديث مرفوع : « لم يخرج من ضروع الماشية » ، ﴿ **وأنهار من خمر لذة للشاربين** ﴾ أى ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا ، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة ، ﴿ **لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون** ﴾ ﴿ **لا يصدعون عنها**

---

(٢)أخرجه ابن أبى حاتم عن ابى هريرة مرفوعا .

ولا ينزفون ﴾ ، وفى حديث مرفوع : « لم يعصرها الرجال بأقدامهم » ﴿ وأنهار من عسل مصفى ﴾ أى وهو فى غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح ، وفى حديث مرفوع : « لم يخرج من بطون النحل ». روى الإمام أحمد عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « فى الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار منها بعد »[١] . وفى الصحيح : « إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن » ، وقال الحافظ الطبرانى عن عاصم أن لقيط بن عامر خرج وافدا إلى رسول الله ﷺ ، قلت : يارسول الله فعلى ما نطلع من الجنة ؟ قال ﷺ : « على أنهار من عسل مصفى ، وأنهار من خمر ما بها صداع ولا ندامة ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وماء غير آسن ، وفاكهة لعمر إلٰهك ما تعلمون ، وخير من مثله ، وأزواج مطهرة » ، قلت : يارسول الله أو لنا فيها أزواج مصلحات ؟ قال : « الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم فى الدنيا ويلذونكم غير أن لا توالد » . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجرى فى أخدود فى الأرض ، والله إنها لتجرى سائحة على وجه الأرض حافاتها قباب اللؤلؤ ، وطينها المسك الأذفر[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ ولهم فيها من كل الثمرات ﴾ كقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ومغفرة من ربهم ﴾ أى مع ذلك كله ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ كمن هو خالد فى النار ﴾ أى هؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة ، كمن هو خالد فى النار ؟ ليس هؤلاء كهؤلاء ، وليس من هو فى الدرجات كمن هو فى الدركات ، ﴿ وسقوا ماء حميماً ﴾ أى حاراً شديد الحر لا يستطاع ، ﴿ فقطع أمعاءهم ﴾ أى قطع ما فى بطونهم من الأمعاء والأحشاء عياذاً بالله تعالى من ذلك .

---

(١) أخرجه أحمد ، ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح .
(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا موقوفاً . ورواه ابن مردوده مرفوعاً .

(٣٧) من خاف الله فى سره دخل الجنة :

قال الله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾
(ق : ٣١-٣٥)

وقوله تعالى : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد** ﴾ قال قتادة والسدى : ﴿ **وأزلفت** ﴾ أدنيت وقربت من المتقين ، ﴿ **غير بعيد** ﴾ وذلك يوم القيامة وليس ببعيد لأنه واقع لا محالة وكل ما هو آت قريب ، ﴿ **هذا ما توعدون لكل أواب** ﴾ أى رجاع تائب فيقوم حتى يستغفر الله عزّ وجلّ ، ﴿ **من خشى الرحمن بالغيب** ﴾ أى من خاف فى سره حيث لا يراه أحد إلا الله عزّ وجلّ كقوله ﷺ : « ورجل ذكر الله تعالى خاليا ففاضت عيناه »[1] ﴿ **وجاء بقلب منيب** ﴾ أى ولقى الله عزّ وجلّ يوم القيامة بقلب منيب سليم إليه خاضع لديه . ﴿ **إدخلوها** ﴾ أى الجنة ﴿ **بسلام** ﴾ قال قتادة : سَلِموا من عذاب الله عز وجل ، وسلم عليهم ملائكة الله ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **ذلك يوم الخلود** ﴾ أى يخلدون فى الجنة فلا يموتون أبداً ولا يظعنون عنها حولاً ، وقوله جلت عظمته : ﴿ **لهم ما يشاءون فيها** ﴾ أى مهما اختاروا وجدوا من أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم ، عن كثير بن مرة قال : « من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول : ماذا تريدون فأمطره لكم ؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم » . وفى الحديث عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال له » : « إنك لتشتهى الطير فى الجنة فيخر بين يديك مشويا »[2] . وروى الإمام أحمد ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « إذا اشتهى المؤمن الولد فى الجنة كان حمله ووضعه وسنه فى ساعة واحدة »[3] . وقوله تعالى : ﴿ **ولدينا مزيد** ﴾ كقوله عز

---

(١) هو صنف بن السبعة الذين يظلمهم الله فى ظله يوم القيامة ، والحديث أخرجه الشيخان .
(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن مسعود مرفوعاً ..
(٣) رواه أحمد وابن ماجه والترمذى : وزاد الترمذى : كما اشتهى .

وجل : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ ، وقد تقدم فى صحيح مسلم عن صهيب بن سنان الرومى أنها النظر إلى وجه الله الكريم ، وقد روى البزار ، عن أنس بن مالك فى قوله عزّ وجلّ : ﴿ ولدينا مزيد ﴾ قال : « يظهر لهم الرب عز وجل فى كل جمعة »[1] . وروى الإمام أحمد ، عن أبى سعيد رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن الرجل فى الجنة ليتكىء فى الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول ، ثم تأتيه امرأة تضرب على منكبية فينظر وجهه فى خدها أصفى من المرآة ، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضىء ما بين المشرق والمغرب فتسلم عليه فيرد السلام ، فيسألها من أنت ؟ فتقول : أنا من المزيد ، وإنها ليكون عليها سبعون حلة أدناها مثل النعمان من طوبى ، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقيها من وراء ذلك ، وإن عليها من التيجان ، إن أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب[2] .

من صلى بالليل والناس نيام دخل الجنة بسلام :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَاهُم رَبُّهُم إِنَّهُم كَانُواْ قَبلَ ذَلِكَ مُحسِنِينَ * كَانُواْ قَلِيلًا مِنَ الَّيلِ مَا يَهجَعُونَ * وَبِالأَسحَارِ هُم يَستَغفِرُونَ * وَفِيٓ أَموَالِهِم حَقٌّ لِلسَّآئِلِ وَالمَحرُومِ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المتقين لله عز وجل ، أنهم يوم معادهم يكونون فى جنات وعيون ، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال ، وقوله تعالى : ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ ، قال ابن جرير : أى عاملين بما آتاهم الله من الفرائض، ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾ فى الأعمال أيضاً ، والذى فسر ابن جرير فيه نظر ، لأن قوله تبارك وتعالى : ﴿ آخذين ﴾ حاله من قوله : ﴿فى جنات وعيون﴾ فالمتقون فى حال كونهم فى الجنان والعيون آخذين ما آتاهم ربهم ، أى من النعيم والسرور والغبطة ، وقوله عز وجل : ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك ﴾ أى فى دار الدنيا ، ﴿ محسنين ﴾ كقوله

---

(١) أخرجه البزار وابن أبى حاتم موقوفاً ورواه الشافعى مرفوعا فى مسنده .

(٢) أخرجه الإمام أحمد .

تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ ، ثم إنه تعالى بين إحسانهم فى العمل فقال جل وعلا ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ . اختلف المفسرون فى ذلك على قولين : أحدهما : أن (ما) نافية تقديره : كانوا قليلاً من الليل ما يهجعونه . قال ابن عباس : لم تكن تمضى عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئاً ، وقال قتادة : قلّ ليلة تأتى عليهم إلا يصلون فيها لله عز وجل ، إما من أولها أو من وسطها ، وقال مجاهد : قل ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون ، والقول الثانى : أن (ما) مصدرية تقديره : كانوا قليلا من الليل هجوعهم ونومهم ، واختاره ابن جرير ، وقال الحسن البصرى : ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ﴾ ، كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله ، ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر ، وقال الأحنف بن قيس : ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ﴾ كانوا لا ينامون إلا قليلاً ، ثم يقول : لست من أهل هذه الآية ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : قال رجل من بنى تميم لأبى : ياأبا أسامة صفة لا أجدها فينا ذكر الله تعالى قوماً فقال : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم ، فقال له أبى : « طوبى لمن رقد إذا نعس ، واتقى الله إذا استيقظ » . وقال عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيت وجهه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فكان أول ما سمعته ﷺ يقول : « ياأيها الناس أطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وأفشوا السلام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » . روى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها » فقال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه : لمن هى يارسول الله ؟ قال ﷺ : « لمن ألان الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات لله قائماً والناس نيام » أخرجه الإمام أحمد .

وقوله عزّ وجلّ : ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ ، قال مجاهد : يصلون ، وقال آخرون : قاموا الليل وأخروا الاستغفار إلى الأسحار ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ ، وقد ثبت فى الصحاح ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين

يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له هل من سائل فيعطى سؤله ؟ حتى يطلع الفجر » ؛ وقوله تعالى : ﴿ وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ لما وصفهم بالصلاة ، ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة ، فقال : ﴿ وفى أموالهم حق ﴾ أى جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم ، أما السائل فمعروف وهو الذى يبتدىء بالسؤال وله حق ، كما قال رسول الله ﷺ : « للسائل حق وإن جاء على فرس »[1] . وأما المحروم فقال ابن عباس ومجاهد : هو المحارب الذى ليس له فى الإسلام سهم ، يعنى لا سهم له فى بيت المال ولا كسب له ولا حرفة يتقوت منها ، وقالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : هو المحارب الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه ، وقال الضحاك : هو الذى لا يكون له مال إلا ذهب ، قضى الله تعالى له ذلك ، وقال ابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء : المحروم المحارف ، وقال قتادة والزهرى : المحروم الذى لا يسأل الناس شيئاً ، وقد قال رسول الله ﷺ : « ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه »[2] . وقال سعيد بن جبير : هو الذى يجىء وقد قسم المغنم فيرضخ له ، وقال الشعبى : أعيانى أن أعلم ما المحروم ، واختار ابن جرير أن المحروم الذى لا مال له بأى سبب كان وقد ذهب ماله ، سواء كان لا يقدر على الكسب ، أو قد هلك ماله بآفة أو نحوها .

(٣٩) إن المتقين فى جنات ونعيم :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَآ ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُواْ وَاشْرَبُوا هَنِيٓـئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ * وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ** ﴾ .

(الطور : ١٧ – ٢٠)

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود

(٢) هذا الحديث أسنده الشيخان من وجه آخر

أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال : ﴿ **إن المتقين فى جنات ونعيم** ﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال ، ﴿ **فاكهين بما آتاهم ربهم** ﴾ أى يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم ، من أصناف الملاذ من مآكل ومشارب ، وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك ، ﴿ **ووقاهم ربهم عذاب الجحيم** ﴾ أى وقد نجاهم من عذاب النار ، وتلك نعمة مستقلة بذاتها ، مع ما أضيف إليها من دخول الجنة ، التى فيها من السرور ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وقوله تعالى : ﴿ **كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية** ﴾ أى هذا بذاك تفضلا منه وإحساناً ، وقوله تعالى : ﴿ **متكئين على سرر مصفوفة** ﴾ قال ابن عباس : السرر فى الحجال ، وفى الحديث : « إن الرجل ليتكىء المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يمله يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه »(١) .

وعن ثابت قال : « بلغنا أن الرجل ليتكىء فى الجنة سبعين سنة عنده من أزواجه وخدمه ، وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم ، فإذا حانت منه نظرة ، فإذا أزواج له لم يكن رآهن قبل ذلك فيقلن : قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيباً »(٢) ومعنى ﴿ **مصفوفة** ﴾ أى وجوه بعضهم إلى بعض كقوله : ﴿ **على سرر متقابلين** ﴾ ، ﴿ **وزوجناهم بحور عين** ﴾ أى وجعلنا لهم قرينات صالحات ، وزوجات حساناً من الحور العين ، وقال مجاهد ﴿ **وزوجناهم** ﴾ أنكحناهم بحور عين ، وقد تقدم وصفهم فى غير موضع بما أغنى عن إعادته هنا .

- **أهل المؤمن فى الجنة يرفعونه إلى درجة أعلى من درجته إذا كانوا أعلى منه :**

قال الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاتَّبَعَتهُم ذُرِيَّتُهُم بِإِيمانٍ أَلحَقنَا بِهِم ذُرِيَّتَهُم وَمَآ أَلَتنَاهُم مِن عَمَلِهِم مِن شَىءٍ كُلُّ امرى بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** »

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن هيثم بن ماللك الطائى مرفوعاً .
(٢) أخرجه ابن أبى حاتم أيضاً عن ثابت البناقى موقوفاً .

وَأَمدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحمٍ مِمَّا يَشتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغوٌ فِيهَا وَلَا تَأثِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيهِم غِلمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُم لُؤلُؤٌ مَّكنُونٌ * وَأَقبَلَ بَعضُهُم عَلَىٰ بَعضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبلُ فِيٓ أَهلِنَا مُشفِقِينَ * فَمَنَّ اللهُ عَلَينَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبلُ نَدعُوهُ إِنَّهُ هُوَ البَرُّ الرَّحِيمُ ﴾

(الطور : ٢١ - ٢٨)

يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه ، ولطفه بخلقه وإحسانه ، أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم فى الإيمان ، يلحقهم بآبائهم فى المنزلة ، وإن لم يبلغوا عملهم لتقر أعين الآباء بالأبناء ، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته للتساوى بينه وبين ذلك ، ولهذا قال : ﴿ **ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء** ﴾ ، قال ابن عباس : إن الله ليرفع ذرية المؤمن فى درجته وإن كانوا دونه فى العمل لتقربه عينه ، ثم قرأ : ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء** ﴾[1] . وروى ابن أبى حاتم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقناهم بهم ذريتهم** ﴾ ، قال : هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان . فإذا كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ولم ينقصوا من أعمالهم التى عملوها شيئاً ، وروى الحافظ الطبرانى عن ابن عباس أظنه عن النبى ﷺ قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبوية وزوجته وولده فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك ، فيقول : يارب قد عملت لى ولهم ، فيؤمر بإلحاقهم به ، وقرأ ابن عباس : ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان** ﴾ الآية ، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء ، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء ، فقد قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة فيقول : يارب أنى لى هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك »[2] . وعن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ : « إذا

---

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس موقوفاً ورواه البزار عنه مرفوعاً .

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أبى هريرة ، قال ابن كثير : إسناده صحيح .

مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **كل امرىء بما كسب رهين** ﴾ لما أخبر عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضى ذلك ، أخبر عن مقام العدل ، وهو أن لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد ، فقال تعالى : ﴿ **كل امرىء بما كسب رهين** ﴾ أى مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس ، سواء كان أباً أو ابناً ، كما قال تعالى : ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون عن المجرمين** ﴾ ، وقوله : ﴿ **وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون** ﴾ أى وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويشتهى ، وقوله : ﴿ **يتنازعون فيها كأساً** ﴾ أى يتعاطون فيها كأسا أى من الخمر ، قال الضحاك : ﴿ **لا لغو فيها ولا تأثيم** ﴾ أى لا يتكلمون فيها بكلام لاغ ، أى هذيان ، ولا إثم ، أى فحش كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا ، قال ابن عباس : اللغو الباطل ، والتأثيم الكذب ، وقال مجاهد : لا يستبون ولا يؤثمون ؛ وقال قتادة كان ذلك فى الدنيا مع الشيطان ، فنزه الله خمر الآخر عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها ، فنفى عنها صداع الرأس ووجع البطن وإزالة العقل بالكلية ، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيىء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذيانا وفحشاً ، وأخبر بحسن منظرها وطيب طعمها ومخبرها فقال : ﴿ **بيضاء لذة للشاربين * لا فيها لغو ولا هم عنها ينزفون** ﴾ وقال : ﴿ **لا يصدعون عنها ولا ينزفون** ﴾ ، وقال هنا : ﴿ **يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون** ﴾ إخبار عن خدمهم وحشمهم فى الجنة ، كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون ، فى حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم ، كما قال تعالى : ﴿ **يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾ أى أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم

---

(١) أخرجه مسلم عن أبى هريرة .

فى الدنيا ، كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم ، ﴿ **قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين** ﴾ أى كنا فى الدار الدنيا ونحن بين أهلينا خائفين من ربنا ، مشفقين من عذابة وعقابه ﴿ **فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم** ﴾ أى فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف ، ﴿ **إنا كنا من قبل ندعوه** ﴾ أى نتضرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤالنا ﴿ **إنه هو البر الرحيم** ﴾ ، عن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان فيجيء سرير هذا حتى يحاذى سرير هذا ، فيتحدثان ، فيتكيء هذا ويتكيء هذا فيتحدثان بما كان فى الدنيا ، فيقول أحدهما لصاحبه : يافلان تدرى أى يوم غفر الله لنا ؟ يوم كنا فى موضع كذا وكذا فدعونا الله عزّ وجلّ فغفر لنا »[1] .

وعن مسروق عن عائشة أنها قرأت هذه الآية : ﴿ **فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم** ﴾ ، فقالت : اللهم منّ علينا ، وقنا عذاب السموم ، إنك أنت البر الرحيم : قيل للأعمش : فى الصلاة ؟ قال : نعم[2] .

(٤٠) الجن المؤمن يدخل الجنة :

قال الله تعالى : ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ (الرحمن : ٤٦ — ٥٣)

قال عطاء الخراسانى : نزلت هذه الآية ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ فى أبى بكر الصديق ، وقال عطية بن قيس : نزلت فى الذى قال : أحرقونى بالنار لعلى أضل الله ، قال تاب يوماً وليلة ، بعد أن تكلم بهذا فقبل الله منه وأدخله الجنة[3] ، والصحيح أن هذه الآية عامة كما قال ابن عباس وغيره ، يقول الله

---

(١) أخرجه الحافظ البزار عن أنس وقال : لا نعرفه إلا بهذا الإسناد .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم .

(٣) رواه ابن أبى حاتم .

تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه ﴾ بين يدى الله عزّ وجلّ يوم القيامة ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ ولم يطع ولا آثر الحياة الدنيا ، وعلم أن الآخرة خير وأبقى ، فأدى فرائض الله واجتنب محارمه ، فله يوم القيامة عند ربه جنتان ، كما روى البخارى رحمه الله : عن عبد الله بن قيس ، أن رسول الله ﷺ قال : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن »[1] ، قال حماد : ولا أعلمه إلا قد رفعه فى قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ ، وفى قوله : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ ، جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين . وقال عطاء بن يسار ، أخبرنى أبو الدرداء أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق؟ فقال : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت : إن زنا وإن سرق؟ فقال : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت : وإن زنا وإن سرق يا رسول الله؟ فقال : « وإن ... رغم أنف أبى الدرداء »[2]. وهذه الآية عامة فى الإنس والجن ، فهى من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا ، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان * فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ ثم نعت هاتين الجنتين فقال : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ أى أغصان نضرة حسنة ، تحمل من كل ثمرة نضيجة ، ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ ؟ هكذا قال عطاء وجماعة : أن الأفنان أغصان الشجر يمس بعضها بعضاً ، وقال عكرمة : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ يقول : ظل الأغصان على الحيطان ، ألم تسمع قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هديل حمامة تدعو على فنن الغصون حماما

وعن ابن عباس ﴿ ذواتا أفنان ﴾ : ذواتا ألوان ، ومضى هذا القول أن فيهما فنونا من الملاذ واختاره ابن جرير ، وقال عطاء : كل غصن يجمع فنونا من الفاكهة . وقال الربيع ابن أنس : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ واسعتا الفناء وكل هذه

---

(١) أخرجه البخارى وبقية الجماعة إلا أبا داود .

(٢) رواه النسائى مرفوعاً وموقوفاً .

الأقوال صحيحة ولا منافاة بينها والله أعلم ، عن أسماء بنت أبي بكر قالت : سمعت رسول الله ﷺ وذكر سدرى المنتهى فقال : « يسير فى ظل الفنن منها الراكب مائة سنة - أو قال يستظل فى ظل الفنن مائة راكب - فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال »[1] ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ أى تسرحان لسقى تلك الأشجار والأغصان ، فتثمر من جميع الألوان قال الحسن البصرى : إحداهما يقال لها تسنيم والأخرى السلسبيل ، وقال عطية : إحداهما من ماء غير آسن ، والأخرى من خمرة لذة للشاربين ، ولهذا قال بعد هذا : ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ أى من جميع أنواع الثمار ، مما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ قال ابن عباس : ما فى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي فى الجنة ، وليس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الأسماء ، يعنى أن بين ذلك بوناً عظيماً وفرقاً بيناً فى التفاضل .

• **قاصرات الطرف للمقربين :**

قال الله تعالى : ﴿ **مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِن إِستَبرَقٍ وَجَنَى الجَنَّتَينِ دَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرفِ لَم يَطمِثهُنَّ إِنسٌ قَبلَهُم وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالآءِ ربِكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ وَالمَرجَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَل جَزَآءُ الإِحسَانِ إِلَّا الإِحسَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ (الرحمن : ٥٤ - ٦١)

يقول تعالى : ﴿ **متكئين** ﴾ ، يعنى أهل الجنة ، والمراد بالاتكاء ههنا الاضطجاع ، ويقال : الجلوس على صفة التربيع ﴿ **على فرش بطائنها من إستبرق** ﴾ وهو ما غلظ من الديباج ، وقيل : هو الديباج المزيّن بالذهب ، فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة ، فهذا من التنبية بالأدنى على الأعلى ، قال ابن مسعود : هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر ؟ قال مالك بن دينار : بطائنها من إستبرق ، وظواهرها ، من نور ، وقال الثورى : بطائنها من إستبرق وظواهرها من

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه .

الرحمة ﴿ وجنى الجنتين دان ﴾ أى ثمرها قريب إليهم متى شاءوا تناولوه ، على أى صفة كانوا كما قال تعالى : ﴿ قطوفها دانية ﴾ ، وقال : ﴿ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ أى لا تمتنع ممن تناولها بل تنحط إليه من أغصانها ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك ﴿ فيهن ﴾ أى فى الفرش ﴿ قاصرات الطرف ﴾ أى غضيضات عن غير أزواجهن ، فلا يرين شيئاً فى الجنة أحسن من أزواجهن ، وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها : والله ما أرى فى الجنة شيئاً أحسن منك ، ولا فى الجنة شيئاً أحب إلىّ منك ، فالحمد لله الذى جعلك لى وجعلنى لك ، ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ أى بل هن أبكار عرب أتراب ، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن ، وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمنى الجن الجنة ، سئل ضمرة بن حبيب هل يدخل الجن الجنة ؟ قال : نعم ، وينكحون للجن جنيات وللإنس إنسيات ، وذلك قوله : ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان * فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ ثم قال ينعتهن للخطاب ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال مجاهد والحسن : فى صفاء الياقوت وبياض المرجان ، فجعلوا المرجان هنا اللؤلؤ ، عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال : « إن المرأة من نساء الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير حتى يرى مخها » وذلك قوله تعالى : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه »[(١)] . وروى الإمام أحمد ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين ، على كل واحدة سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الثياب »[(٢)] وعن محمد بن سيرين قال : إما تفاخروا وإما تذاكروا ، الرجال أكثر فى الجنة أم النساء ، فقال أبو هريرة : أو لم يقل أبو القاسم ﷺ : « إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتى تليها على ضوء كوكب يرى فى السماء ،

---

(١) رواه الترمذى مرفوعاً وموقوفاً ، والموقوف أصح .

(٢) تفرد به الإمام أحمد .

لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم وما فى الجنة أعزب ؟ »[1] . وروى الإمام أحمد ، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قده - يعنى سوطه - من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحاً ولطاب ما بينهما ، ولنصيفها على رأسه خير من الدنيا وما فيها »[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ أى ليس لمن أحسن العمل فى الدنيا إلا الإحسان إليه فى الآخرة كما قال تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ .

روى البغوى ، عن أنس بن مالك قال ، قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ وقال : « هل تدرون ما قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة »[3] ؟ ولما كان فى الذى ذكر نعم عظيمة لا يقاومها عمل ، بل مجرد تفضل وامتنان قال بعد ذلك كله : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ ؟

الحور العين لأصحاب اليمين :

قال الله تعالى : ﴿ **وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدۡهَآمَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ فِي ٱلۡخِيَامِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٌ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ**

---

(١) الحديث مخرج فى الصحيحين .
(٢) أخرجه أحمد ورواه البخارى بنحوه .
(٣) ذكره البغوي من حديث أنس بن مالك .

ءَالَآءِ رِبُكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضرٍ وَعَبقَرِيٍ حِسَانٍ * فَبِأَيِ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ اسمُ رَبِّكَ ذِى الجَلَالِ وَالإِكرَامِ ﴾
(الرحمن : ٦٢ - ٧٨)

هاتان الجنتان دون التى قبلهما ، فى المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن قال الله تعالى : ﴿ **ومن دونهما جنتان** ﴾ وقد تقدم فى الحديث : « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما » . فالأوليان . للمقربين ، والأخريان لأصحاب اليمين . وقال أبو موسى : جنتان من ذهب للمقرين ، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين ، وقال ابن عباس ﴿ **ومن دونهما جنتان** ﴾ من دونهما فى الدرجة . وقال ابن زيد : من دونهما فى الفضل ؛ ﴿ **مدهامتان** ﴾ أى سوداوان من شدة الرى من الماء ، قال ابن عباس : ﴿ **مدهامتان** ﴾ قد اسودتا من الخضرة من شدة الرى من الماء ، وعنه ﴿ **مدهامتان** ﴾ قال : خضروان . وقال محمد بن كعب : ممتلئتان من الخضرة ، وقال قتادة : خضروان من الرى ناعمتان ، ولاشك فى نضارة الأغصان على الأشجار المشتبكة بعضها فى بعض ، وقال هناك : ﴿ **فيهما عينان تجريان** ﴾ وقال هنا : ﴿ **نضاختان** ﴾ قال ابن عباس : أى فياضتان والجرى أقوى من النضخ ، وقال الضحاك : ﴿ **نضاختان** ﴾ أى ممتلئتان ولا تنقطعان ، وقال هناك : ﴿ **فيهما من كل فاكهة زوجان** ﴾ وقال هنا : ﴿ **فيهما فاكهة ونخل ورمان** ﴾ ، ولاشك أن الأولى أعم وأكثر فى الأفراد والتنويع على ﴿ **فاكهة** ﴾ وهى نكرة فى سياق الإثبات لا تعم ؛ ولهذا ليس قوله : ﴿ **نخل ورمان** ﴾ ، من باب عطف الخاص على العام ، كما قرره البخارى وغيره ، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما ، عن عمر بن الخطاب قال : جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يامحمد أفى الجنة فاكهة ؟ قال : « نعم فيها فاكهة ونخل ورمان » ، قالوا : أفيأكلون كما يأكلون فى الدنيا ؟ قال : « نعم ، وأضعاف» ، قالوا : فيقضون الحوائج ، قال : « لا ولكنهم يعرقون ويرشحون فيذهب ما فى

بطونهم من أذى »[1] . وروى ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس قال : « نخل الجنة سعفها كسوة لأهل الجنة ، منها مقطعاتهم ومنها حللهم ، وورقها ذهب أحمر ، وجذوعها زمرد أخضر ، وثمرها أحلى من العسل وألين من الزبد وليس له عجم » . وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كالبعير المقتب »[2] ، ثم قال : ﴿ **فيهن خيرات حسان** ﴾ قيل : المراد خيرات كثيرة حسنة فى الجنة قاله قتادة ، وقيل : ﴿ **خيرات** ﴾ جمع خيرة وهى المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه قاله الجمهور ، وفى الحديث الآخر الذى سنورده فى سورة الواقعة إن شاء الله أن الحور العين يغنين : « نحن الخيرات الحسان خلقن لأزواج كرام » ولهذا قرأ بعضهم : ﴿ **فيهن خيرات** ﴾ بالتشديد ﴿ **حسان فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ ، ثم قال : ﴿ **حور مقصورات فى الخيام** ﴾ ، وهناك قال : ﴿ **فيهن قاصرات الطرف**﴾ ولاشك أن التى قد قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قصرت وإن كان الجميع مخدرات ، قال ابن أبى حاتم ، عن عبد الله بن مسعود قال : إن لكل مسلم خيرة ولكل خيرة خيمة ولكل خيمة أربعة أبواب ، تدخل عليه كل يوم تحفة وكرامة وهدية ، لم تكن قبل ذلك لا مرحات ولا طمحات ، ولا بخرات ، ولا زفرات ، حور عين كأنهن بيض مكنون .

وقوله تعالى : ﴿ **فى الخيام** ﴾ قال البخارى ، عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً فى كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون » ، ورواه مسلم بلفظ : « إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً للمؤمن فيها أهل يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً » . وقال ابن أبى حاتم ، عن أبى الدرداء قال : لؤلؤة واحدة فيها سبعون باباً من در[3] . وعن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **حور مقصورات فى الخيام** ﴾ قال : خيام اللؤلؤ ، وفى الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة واحدة أربع فراسخ فى أربع فراسخ عليها أربعة

---

(١) أخرجه عبد بن حميد فى مسنده . (٢) أخرجهما ابن أبى حاتم .
(٣) أخرجه ابن أبى حاتم .

آلاف مصراع من ذهب[1] وقال عبد الله بن وهب ، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « أدنى أهل الجنة منزلة الذى له ثمانون ألف خادم واثنتان وسبعون زوجة وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء »[2] .
وقوله تعالى : ﴿ **لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان** ﴾ قد تقدم مثله سواء إلا أنه زاد فى وصف الأوائل بقوله : ﴿ **كانهن الياقوت والمرجان * فبأىءآلاء ربكما تكذبان** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان** ﴾ قال ابن عباس : الرفرف المحابس ، وكذا قال مجاهد وعكرمة هى المحابس ، وقال عاصم الجحدرى : ﴿ **متكئين على رفرف خضر** ﴾ يعنى الوسائد وهو قول الحسن البصرى ، وقال سعيد بن جبير : الرفرف رياض الجنة ، وقوله تعالى : ﴿ **وعبقرى حسان** ﴾ قال ابن عباس والسدى : العبقرى الزرابى ، وقال سعيد ابن جبير : هى عتاق يعنى جيادها ، وقال مجاهد : العبقرى الديباج .
وسئل الحسن البصرى عن قوله تعالى : ﴿ **وعبقرى حسان** ﴾ فقال : هى بسط أهل الجنة لا أباً لكم فاطلبوها ، وقال أبو العافية : العبقرى الطنافس المحملة إلى الرقة ما هى ، وقال القيس : كل ثوب موشى عند العرب عبقرى ، وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأولين أرفع وأعلى من هذه الصفة ، فإنه قد قال هناك : ﴿ **متكئين على فرش بَطَائِنُها من إستبرق** ﴾ ، فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها اكتفاء بما مدح به البطائن وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ ؟ فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهايات كما فى حديث جبريل لما سأل عن الإسلام ، ثم الإيمان ، ثم الإحسان ، فهذه وجوه عديدة فى تفضيل الجنتين الأولين على هاتين الأخريتين ، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأولين . ثم قال : ﴿ **تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام** ﴾ أى هو أهل أن يجل فلا يعصى ، وأن يكرم فيعبد ، ويشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ، وقال ابن عباس ﴿ **ذى الجلال والإكرام** ﴾ : ذى العظمة والكبرياء . « **أجلوا الله يغفر**

نكم »[1] . وفى الحديث الآخر : « ألظّوا بيا ذا الجلال والإكرام »[2] . وفى رواية : ألظّوا بذى الجلال والإكرام »[3] . وقال الجوهرى : ألظ فلان بفلان إذا لزمه ، وقول ابن مسعود : ألظوا بياذا الجلال والإكرام : أى الزموا ، يقال : الإلظاظ هو الإلحاح ، وفى صحيح مسلم ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد يعنى بعد الصلاة إلا بقدر ما يقول : « اللهم أنت السلام ومنك السلام تبارك ياذا الجلال والإكرام »[4] .

(٤٤) المقربون وأصحاب اليمين فى جنات النعيم :

قال الله تعالى : ﴿ **وَكُنتُم أَزْوَاجًا ثَلاثَةً ۞ فَأَصحَابُ المَيمَنَةِ مَآ أَصحَابُ المَيمَنَةِ ۞ وَأَصحَابُ المَشئَمَةِ مَآ أَصحَابُ المَشئَمَةِ ۞ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۞ أُولَـٰئِكَ المُقَرَّبُونَ ۞ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ** ﴾ (الواقعة : ٧ - ١٢)

وقوله تعالى : ﴿ **وكنتم أزواجاً ثلاثة** ﴾ أى ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف : قوم عن يمين العرش ، وهم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وهم جمهور أهل الجنة ، وآخرون عن يسار العرش ، وهم الذين يؤتون كتبهم بشمالهم ويؤخذ بهم ذات الشمال وهم عامة أهل النار ، وطائفة سابقون بين يديه عزّ وجلّ وهم أحظى وأقرب من أصحاب اليمين ، فهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء ، وهم أقل عددا من أصحاب اليمين ، لهذا قال تعالى : ﴿ **فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة والسابقون السابقون** ﴾ ، وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة فى آخر السورة وقت احتضارهم ، وهكذا ذكرهم فى قوله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذى اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله** ﴾ الآية وذلك على أحد القولين فى الظالم لنفسه كما تقدم بيانه ، قال ابن

(١) أخرجه الإمام أحمد .

(٢) رواه الترمذى .

(٣) رواه النسائى وأحمد .

(٤) أخرجه مسلم وأصحاب السنن .

عباس : ﴿ **وكنتم أزواجا ثلاثة** ﴾ قال : هى التى فى سورة الملائكة : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ الآية . وقال يزيد الرقاشى : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ **كنتم أزواجا ثلاثة** ﴾ قال : أصنافا وثلاثة ، وقال مجاهد : ﴿ **والسابقون السابقون** ﴾ هم الأنبياء عليهم السلام ، وقال السدى : هم أهل عليين ، وقال ابن سيرين ﴿ **والسابقون السابقون** ﴾ الذى صلوا إلى القبلتين ، وقال الحسن وقتادة : ﴿ **والسابقون السابقون** ﴾ أى من كل أمة ، وقال الأوزاعى ، عن عثمان بن أبى سودة ، أنه قرأ هذه الآية ﴿ **والسابقون السابقون أولئك المقربون** ﴾ ثم قال : أولهم رواحا إلى المسجد ، وأولهم خروجا فى سبيل الله ، وهذا الأقوال كلها صحيحة فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات ، كما أمروا ، كما قال تعالى : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض** ﴾ ، فمن سابق فى هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان فى الآخرة من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزاء من جنس العمل وكما تدين تدان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **أولئك المقربون فى جنات النعيم** ﴾ ، وقال ابن أبى حاتم ، قالت الملائكة : يارب جعلت لبنى آدم الدنيا فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون ، فاجعل لنا الآخرة ، فقال : لا أفعل ، فراجعوا ثلاثاً ، فقال : لا أجعل من خلقت بيدى ، كمن قلت له كن فكان ؛ ثم قرأ عبد الله : ﴿ **والسابقون السابقـون أولئك المقربون فى جنات النعيم** ﴾[1] .

نعيم المقـــربين :

قال الله تعالى : ﴿ **ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الأَخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيهِم ولدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنَها وَلَا يُنزفُونَ * وَفَاكِهَةٍ**

(١) رواه ابن أبى حاتم عن عبد الله بن عمرو موقوفاً .

مَمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحمِ طَيرٍ مِّمَّا يَشتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمثَالِ اللُّؤلُؤِ المَكنُونِ * جَزَآءَ بِمَا كَانُوا يَعمَلُونَ * لَا يَسمَعُونَ فِيهَا لَغوًا وَلَا تَأثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ (الواقعة : ١٣ - ٢٦)

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ﴿ ثلة ﴾ أى جماعة من الأولين ، وقليل من الآخرين : وقد اختلفوا فى المراد بقوله الأولين والآخرين فقيل : المراد بالأولين الأمم الماضية ، وبالآخرين هذه الأمة ، وهو اختيار ابن جرير ، واستأنس بقوله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » ، ولم يحك غيره ، ومما يستأنس به لهذا القول ما رواه ابن أبى حاتم ، عن أبى هريرة قال : لما نزلت : ﴿ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ شق ذلك على أصحاب النبى ﷺ فنزلت : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ فقال النبى ﷺ : « إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثلث أهل الجنة ، بل أنتم نصف أهل الجنة ، أو شطر أهل الجنة وتقاسمونهم النصف الثانى »[1] . وهذا الذى اختاره ابن جرير فيه نظر بل هو قول ضعيف ، لأن هذه الأمة هى خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون فى غيرها أكثر منها ، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة ، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم والله أعلم ، فالقول الثانى فى هذا المقام هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ ثلة من الأولين ﴾ أى من صدر هذه الأمة ، ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ أى من هذه الأمة ، قال ابن أبى حاتم ، عن عبد الله بن بكر المزنى : سمعت الحسن أتى على هذه الآية ﴿ والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ﴾ فقال : أما السابقون فقد مضوا ، ولكن اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين . ثم قرأ الحسن : ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم ، ثلة من الأولين ﴾ قال : ثلة ممن مضى من هذه الأمة . وعن محمد بن سيرين أنه قال فى هذه الآية ﴿ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ قال : كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأمة ، فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه

(١) أخرجه ابن أبى حاتم والإمام أحمد .

الأمة . ولاشك أن أول كل أمة خير من آخرها ، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم كل أمة بحسبها ، ولهذا ثبت فى الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »[1] الحديث بتمامه . فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد ، عن عمار بن ياسر قال ، قال رسول الله ﷺ : « مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره »[2] فهذا الحديث محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة فى إبلاغه كذلك هو محتاج إلى القائمين به فى أواخرها ، والفضل للمتقدم ، وكذلك الزرع هو محتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثانى ، ولكن العمدة الكبرى على الأول ، واحتياج الزرع إليه آكد ، فإنه لولاه ما نبت فى الأرض ولا تعلق أساسه فيها ، ولهذا قال عليه السلام : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة »[3] .

وفى لفظ حتى يأتى أمر الله تعالى وهم كذلك ، والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم ، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة لشرف دينها وعظم نبيها ، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن فى هذه الأمة سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ، وفى لفظ : « مع كل ألف سبعون ألفاً - وفى آخر - مع كل واحد سبعون ألفاً » ، وقد روى الحافظ والطبرانى ، عن أبى مالك قال ، قال رسول الله ﷺ : « أما والذى نفسى بيده ليبعثن منكم يوم القيامة مثل الليل الأسود زمرة جميعها يحيطون الأرض تقول الملائكة لما جاء مع محمد ﷺ أكثر مما جاء مع الأنبياء عليهم السلام »[4] . وقوله تعالى : ﴿ **على سرر موضونة** ﴾ قال ابن عباس : أى مرمولة بالذهب يعنى منسوجة به[5] . وقال السدى : مرمولة بالذهب واللؤلؤ ، وقال عكرمة : مشبكة بالدر والياقوت ، وقال ابن جرير : ومنه يسمى وضين الناقة الذى تحت بطنها وهو فعيل بمعنى مفعول لأنه مضفور وكذلك السرر فى الجنة مضفورة بالذهب واللآلىء .

---

(١) أخرجه الشيخان .
(٢) أخرجه الإمام أحمد .
(٣) أخرجاه فى الصحيحين .
(٤) أخرجه الحافظ الطبرانى .
(٥) وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك .

وقوله تعالى : ﴿ متكئين عليها متقابلين ﴾ أى وجوه بعضهم إلى بعض ليس أحد وراء أحد ، ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ أى مخلدون على صفة واحدة لا يشيبون ولا يتغيرون ، ﴿ بأكواب وأباريق وكأس مّن معين ﴾ أما الأكواب فهى الكيزان التى لا خراطيم لها ولا آذان ، والأباريق التى جمعت الوصفين ، والكؤوس الهنابات والجميع من خمر من عين جارية معين ، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ بل من عيون سارحة ، وقوله تعالى : ﴿ لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾ أى لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم ، بل هى ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة ، وروى ابن عباس أنه قال : فى الخمر أربع خصال : « السكر ، والصداع والقيء ، والبول » فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال ، وقال مجاهد وعكرمة : ﴿ لا يصدعون عنها ﴾ يقول : ليس لهم فيها صداع رأس ، وقالوا فى قوله : ﴿ ولا ينزفون ﴾ أى لا تذهب بعقولهم ، وقوله تعالى : ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون ﴾ أى ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار ، وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها ، روى الطبرانى عن ثوبان قال ، قال رسول الله ﷺ : ﴿ إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ ولحم طير مما يشتهون ﴾ عن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن طير الجنة كأمثال البخت يرعى فى شجر الجنة » ، فقال أبو بكر : يارسول الله ، إن هذه لطير ناعمة ، فقال : « أكلها أنعم منها – قالها ثلاثا – وإنى لأرجو أن تكون ممن يأكل منها »[2] . وقال قتادة فى قوله تعالى : ﴿ ولحم طير مما يشتهون ﴾ وذكر لنا أن أبا بكر قال : يارسول الله ! إنى لأرى طيرها ناعماً كأهلها ناعمون ، قال : « ومن يأكلها والله ياأبا بكر أنعم منها وإنها لأمثال البخت وإنى لأحتسب على الله أن تأكل منها ياأبا بكر » . وروى أبو بكر بن أبى الدنيا ، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال : « نهر أعطانية ربى عز وجل فى الجنة أشد بياضا من اللبن ، وأحلى

---

(١) أخرجه الحافظ الطبرانى .
(٢) أخرجه الإمام أحمد .

من العسل ، فيه طيور أعناقها يعنى كأعناق الجزر » فقال عمر : إنها لناعمة ؟ قال رسول الله ﷺ : « آكلها أنعم منها »[1] . وعن عبد الله بن مسعود قال ، قال لى رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً »[2] . وقوله تعالى : ﴿ وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ بالرفع وتقديره : ولهم فيها حور عين ، وقوله تعالى : ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ أى كأنهن اللؤلؤ الرطب فى بياضه وصفائه كما تقدم ، ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أى هذا الذى أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل .

● **نعيم أصحاب اليمين :**

قال الله تعالى : ﴿ **وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ** ﴾

لما ذكر تعالى مآل السابقين وهم المقربون ، عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين وهم الأبرار ، كما قال ميمون بن مهران : أصحاب اليمين منزلتهم دون المقربين ، فقال ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾ أى ما حالهم وكيف مآلهم ؟ ثم فسر ذلك فقال تعالى : ﴿ فى سدر مخضود ﴾ قال ابن عباس وعكرمة : هو الذى لا شوك فيه ، وعن ابن عباس : هو الموقر بالثمر ، وقال قتادة : كنا نحدث أنه الموقر الذى لا شوك فيه ، والظاهر أن المراد هذا وهذا ، فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر ، وفى الآخرة على العكس من هذا لا شوك فيه ، وفيه الثمر الكثير الذى قد أثقل أصله ، كما روى الحافظ أبو بكر

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا ، ورواه الترمذى .
(٢) رواه ابن أبى حاتم .

النجار ، عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم ، قال : أقبل أعرابى يوماً فقال : يارسول الله ذكر الله فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ، فقال رسول الله ﷺ : « وما هى » ؟ قال : السدر ، فإن له شوكا مؤذياً ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله تعالى يقول : ﴿ فى سدر مخضود ﴾ خضد الله شوكه ، فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها لتنبت ثمراً .

تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من طعام ما فيها لون يشبه الآخر وقوله : ﴿ وطلح منضود ﴾ الطلح : شجر عظام يكون بأرض الحجار ، من شجر العضاه وأخذته طلحة ، وهو شجر كثير الشوك ، وأنشد ابن جرير لبعض الحداة :

بشرها دليلها وقالا غدا ترين الطلح والجبباة

قال مجاهد : (منضود) أى متراكم الثمر ، يذكر بذلك قريشا لأنهم كانوا يعضون منه وظلاله من طلح وسدر ، قال ابن عباس : يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل ، قال الجوهرى : والطلح لغة فى الطلع ، (قلت) وقد روى أن عليا يقول هذا الحرف فى (طلح منضود) قال : طلع منضود ، فعلى هذا يكون من صفة السدر ، فكأنه وصفه بأنه منضود وهو الذى لا شوك له ، وأن طلعه منضود ، وهو كثرة ثمرة والله أعلم . وعن أبى سعيد (وطلح منضود) قال : الموز[1] ، وأهل اليمن يسمون الموز الطلح ، ولم يحك ابن جرير غير هذا القول ، وقوله تعالى : ﴿ وظل ممدود ﴾ ، روى البخارى ، عن أبى هريرة يبلغ به النبى ﷺ قال : إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرأوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾[1] وقال الإمام أحمد ، عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ . إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام ، اقرأوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾[2] . وقد أخرج البخارى ومسلم

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) أخرجه أحمد ورواه الشيخان .

من حديث أبى سعيد وسهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها »[1] فهذا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد لتعدد طرقه وقوة أسانيده وثقة رجاله . وقال الترمذى ، عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « ما فى الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب »[2] . وقال الضحاك والسدى فى قوله تعالى : ﴿ **وظل ممدود** ﴾ لا ينقطع ليس فيها شمس ولا حر مثل قبل طلوع الفجر ، وقال ابن مسعود : الجنة سَجْسَج[3] كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، وقد تقدمت الآيات كقوله تعالى : ﴿ **وندخلهم ظلا ظليلاً** ﴾ قوله : ﴿ **أكلها دائم وظلها** ﴾ ، وقوله : ﴿ **فى ظلال وعيون** ﴾ إلى غير ذلك من الآيات . وقوله تعالى : ﴿ **ماء مسكوب** ﴾ قال الثورى : يجرى فى غير أخدود ، وقد تقدم الكلام عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **فيها أنهار من ماء غير آسن** ﴾ الآية ، بما أغنى عن إعادته هنا .

وقوله تعالى : ﴿**وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة** ﴾ أى وعندهم من الفواكة الكثيرة المتنوعة فى الألوان ، مما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كما قال تعالى : ﴿ **كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً** ﴾ أى يشبه الشكل الشكل ولكن الطعم غير الطعم وفى الصحيحين فى ذكر سدرة المنتهى ، فإذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها مثل قلال هجر ، وروى الحافظ أبو يعلى ، عن جابر قال : بينا نحن فى صلاة الظهر إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا معه ، ثم تناول شيئا ليأخذه ثم تأخر ، فلما قضى الصلاة ، قال له أبى بن كعب : يارسول الله صنعت اليوم فى الصلاة شيئاً ما كنت تصنعه ، قال : « إنه عرضت علىَّ الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة ، فتناولت منها قطفا من عنب لآتيكم به فحيل بينى وبينه ،

---

(١) أخرجه الشيخان .

(٢) أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب .

(٣) سَجْسَج : أى لا حر ولا برد .

ولو آتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقص منه »[١] . وقوله تعالى : ﴿ **لا مقطوعة ولا ممنوعة** ﴾ أى لا تنقطع شتاء ولا صيفا ، بل أكلها دائم مستمر أبداً ، مهما طلبوا وجدوا لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء ، وقال قتادة : لا يمنعهم من تناولها عود ولا شوك ولا بعد ، وقد تقدم فى الحديث : « إذا تناول الرجل الثمرة عادت مكانها أخرى » .

وقوله تعالى : ﴿ **وفرش مرفوعة** ﴾ أى عالية وطيئة ناعمة ، روى النسائى عن أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ **وفرش مرفوعة** ﴾ قال : ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام »[٢] . وعن الحسن : ﴿ **وفرش مرفوعة** ﴾ قال : ارتفاع فراش الرجل من أهل الجنة مسيرة ثمانين سنة[٣] ، وقوله تعالى : لما دل السياق وهو ذكر الفراش على النساء اللاتى يضاجعن فيها اكتفي بذلك عن ذكرهن وعاد الضمير عليهم ، قال الأخفش فى قوله تعالى : ﴿ **إنا أنشأهن** ﴾ أضمرهن ولم يذكرن قبل ذلك ، وقال أبو عبيدة ذكرن فى قوله تعالى : ﴿ **وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون** ﴾ ، فقوله تعالى : ﴿ **إنا أنشأناهن** ﴾ أى أعدناهن فى النشأة الأولى . بعد ما كن عجائز رمصاً ، صرن ﴿ **أبكاراً عرباً** ﴾ أى بعد الثيبوبة عدن أبكاراً عرباً ، متحببات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة ، وقال بعضهم : ﴿ **عرباً** ﴾ أى غنجات ، عن أنس بن مالك قال ، قال رسول الله ﷺ : « إنا أنشأناهن إنشاء قال : نساء عجائز كن فى الدنيا عمشاً رمصاً »[٤] ، وعن سلمة بن يزيد قال : سمعت رسول الله ﷺ : « إنا أنشأناهن إنشاء قال : نساء عجائز كن فى الدنيا عمشا رمصاً »[٤] . وعن سلمة بن يزيد قال : سمعت رسول الله يقول فى قوله تعالى : ﴿ **إنا أنشأناهن إنشاء** ﴾ يعنى الثيب والأبكار اللاتى كن فى الدنيا ، وقال عبد بن حميد قال : أتت أعجوز . فقالت : يارسول الله ادع الله

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى وأخرجه مسلم بنحوه .
(٢) أخرجه النسائى والترمذى وقال : حسن غريب .
(٣) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى موقوفاً .
(٤) أخرجه الترمذى وابن أبى حاتم وقال الترمذى : غريب .

تعالى أن يدخلنى الجنة فقال : « أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز » قال : فولت تبكى ، قال : أخبروها إنها لا تدخلها ، وهى عجوز ، إن الله تعالى يقول : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً ﴾[1] .

وعن أم سلمة قالت : قلت : يارسول الله أخبرنى عن قول الله تعالى : ﴿ حور عين ﴾ قال : « حور » بيض « عين » ضخام العيون ، شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر ، قلت : أخبرنى عن قوله تعالى : ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ قال : « صفاؤهن صفاء الدر الذى فى الأصداف الذى لم تمسه الأيدى » قلت : أخبرنى عن قوله : ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ قال : « خيرات الأخلاق حسان الوجوه » ، قلت أخبرنى عن قوله : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ قال : « رقتهن كرقة الجلد الذى رأيت فى داخل البيضة مما يلى القشر وهو الغرق » قلت : يارسول الله أخبرنى عن قوله : ﴿ عرباً أتراباً ﴾ قال : « هن اللواتى قبضن فى الدار الدنيا عجائز رمصاً شمطاً خلقهن الله بعد الكبر ، فجعلهن عذارى عرباً متعشقات محببات أتراباً على ميلاد واحد » قلت ، يارسول الله نساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال : « بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة » ، قلت : يارسول الله وبم ذاك ؟ قال : « بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله وجل ، ألبس الله وجوههن النور ، وأجسادهن الحرير ، بيض الألوان خضر الثياب ، صفر الحلى ، مجامرهن الدر ، وأمشاطهن الذهب ، يقلن : نحن الخالدات فلا نموت أبداً ، ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً ، طوبى لمن كنا له وكان لنا ، قلت : يارسول الله ! المرأة منا تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة ، ثم تموت فتدخل الجنة ، ويدخلون معها من يكون زوجها ؟ قال : « يا أم سلمة إنها تخير فتختار أحسنهم خلقاً ، فتقول : يارب إن هذا كان أحسن خلقاً معى فزوجنيه ، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة »[2] . وفى الحديث : « إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً »[3] . وعن أبى هريرة قال ،

---

(١) أخرجه الترمذى فى الشمائل عن عبد بن حميد .

(٢) رواه أبو القاسم الطبرانى .

(٣) أخرجه الطبرانى من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعاً .

قيل : يارسول الله هل نصل إلى نسائنا فى الجنة ؟ قال : « إن الرجل ليصل فى اليوم إلى مائة عذراء »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ عربا ﴾ قال ابن عباس : يعنى متحببات إلى أزواجهن ، ألم تر إلى الناقة الضبعة هى كذلك ، وقال الضحاك عنه : العرب العواشق لأزواجهن ، وأزواجهن لهن عاشقون ، وقال عكرمة : سئل ابن عباس عن قوله : ﴿ عرباً ﴾ قال : هى الملقة لزوجها ، وقال عكرمة هى الغنجة ، وعنه : هى الشكلة ، وقال عبد الله بن بريدة فى قوله : ﴿ عرباً ﴾ قال : الشكلة بلغة أهل مكة ، والغنجة بلغة أهل المدينة ، وقال تميم بن حذلم : هى حسن التبعل ، وقوله : ﴿ أتراباً ﴾ قال ابن عباس : يعنى فى سن واحد وثلاثين سنة ، وقال مجاهد : الأتراب : المستويات ، وفى رواية عنه : الأمثال ، وقال عطية : الأقران ، وقال السدى : ﴿ أتراباً ﴾ أى فى الأخلاق والمتواخيات بينهن ، ليس بينهن تباغض ولا تحاسد ، يعنى لا كما كن ضرائر متعاديات ، وقال ابن أبى حاتم : عن الحسن ومحمد ﴿ عرباً أتراباً ﴾ قالا : المستويات الأسنان يأتلفن جميعاً ويلعبن جميعاً ، وقد روى الترمذى ، عن على رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة لمجتمعاً للحور العين يرفعن أصواتاً لم تسمع الخلائق بمثلها — قال — يقلن : « نحن الخالدات فلا نبيد . ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له »[2] . وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إن الحور العين ليغنين فى الجنة يقلن : نحن خيرات حسان خبئنا لأزواج كرام »[3] . وقوله تعالى : ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ أى خلقنا لأصحاب اليمين أو زوجن لأصحاب اليمين والأظهر أنه متعلق بقوله : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً ﴾ فتقديره أنشأناهن لأصحاب اليمين ، وهذا توجيه ابن جرير ، قلت : ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ متعلقاً بما قبله ، وهو قوله : ﴿ أتراباً لأصحاب اليمين ﴾ أى فى أسنانهم ، كما جاء

---

(١) رواه الطبرانى وقال الحافظ المقدسى : هو على شرط الصحيح .

(٢) أخرجه الترمذى وقال : حديث غريب .

(٣) أخرجه الحافظ أبو يعلى .

فى الحديث عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب درى فى السماء إضاءة ، ولا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ، ولا يتمخطون ؛ أمشاطهم الذهب وريحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا فى السماء[1] وعن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « يدخل أهل الجنة جرداً مرداً بيضاً جعاداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين وهم على خلق آدم ستون ذراعاً فى عرض سبعة أذرع »[2] ، وروى ابن وهب ، عن أبى سعيد قال ، قال رسول الله ﷺ : « من مات من أهل الدنيا من صغير أو كبير يردون بنى ثلاث وثلاثين فى الجنة لا يزيدون عليها أبداً وكذلك أهل النار » . وروى ابن أبى الدنيا ، عن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ : « يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم ستين ذراعا بذراع الملك ! على حسن يوسف وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة وعلى لسان محمد جرد مرد مكحلين » . وقال أبو بكر بن أبى داوود ، عن أنس بن مالك قال ، قال رسول الله ﷺ : « يبعث أهل الجنة على صورة آدم فى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين جرداً مرداً مكحلين ، ثم يذهب بهم إلى شجرة الجنة فيكسون منها لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم » . وقوله تعالى : ﴿ **ثلة من الأولين وثلة من الآخرين** ﴾ أى جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين .

وعن سعيد بن جبير : عن ابن عباس : قال ، قال رسول الله ﷺ : « هما جميعا من أمتى » أخرجه ابن جرير .

(٤٢) ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا :

قال الله تعالى : ﴿ **يَومَ تَرَى المُؤمِنِينَ وَالمُؤمِنَاتِ يَسعَىٰ نُورُهُم بَينَ أَيدِيهِم وَبِأَيمَانِهِم بُشرَاكُمُ اليَومَ جَنَّاتٌ تَجرِى مِن تَحتِهَا الأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيمُ** ﴾ (الحديد : ١٢)

---

(١) أخرجه الشيخان .

(٢) أخرجه الطبرانى ورواه الترمذى بنحوه .

يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين المتصدقين ، أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم بحسب أعمالهم ، كما قال عبد الله بن مسعود فى قوله تعالى : ﴿ **يسعى نورهم بين أيديهم** ﴾ قال : على قدر أعمالهم يمرون على الصراط .

منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره فى إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة[1] ، وقال الضحاك : ليس أحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طفىء نور المنافقين ، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفىء نور المنافقين ، فقالوا : ربنا أتمم لنا نورنا ، وقال الحسن : ﴿ **يسعى نورهم بين أيديهم** ﴾ : يعنى الصراط . وقد روى ابن أبى حاتم ، عن أبى الدرداء ، عن النبى ﷺ قال : « أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود ، وأول من يؤذن له برفع رأسه فأنظر من بين يدى ومن خلفي وعن يمينى وعن شمالى ، فأعرف أمتى من بين الأمم » ، فقال له رجل : يانبى الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم ؟ فقال : « أعرفهم ، محجلون من أثر الوضوء ، ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم ، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم بسيماهم فى وجوههم ، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم »[2] . قوله : ﴿ **وبأيمانهم** ﴾ ، قال الضحاك : أى يقال لهم : بشراكم اليوم جنات ، أى لكم البشارة بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أى ماكثين فيها أبداً ﴿ **ذلك الفوز العظيم** ﴾ .

توبوا إلى الله :

قال الله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوٓاْ إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُم أن يُكَفِرَ عَنكُم سَيِّئَاتِكُم وَيُدخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجرى مِن تَحتِهَا الأنهَارُ يَومَ لَا يُخزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ نُورُهُم يَسعَىٰ بَينَ أَيدِيهِم وَبِأَيمَانِهِم يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتمِم لَنَا نُورَنَا وَاغْفِر لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِ شَىءٍ قَدِيرٌ** ﴾

(التحريم : ٨)

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم وابن جرير .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم .

قال الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً** ﴾ أى توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات ، وتلم شعث التائب وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات ، قال عمر : (التوبة النصوح) أن يتوب من الذنب ، ثم لا يعود فيه أو لا يريد أن يعود فيه ، وقال أبو الأحوص : سئل عمر عن التوبة النصوح ، فقال : أن يتوب الرجل من العمل السيىء ثم لا يعود إليه أبداً ، وقال ابن مسعود : ﴿ **توبه نصوحاً** ﴾ قال : يتوب ثم لا يعود ، ولهذا قال العلماء : التوبة النصوح هو أن يقع عن الذنب فى الحاضر ، وينقدم على ما سلف منه فى الماضى ، ويعزم على ألا يفعل فى المستقبل ،، ثم إن كان الحق لآدمى رده إليه بطريقه ، وفى الحديث الصحيح : « الندم توبة »[1] ، وعن أبى كعب قال : قيل لنا أشياء تكون فى آخر هذه الأمة عند اقتراب الساعة : منها نكاح الرجل امرأته أو أمته فى دبرها ، وذلك مما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله ، ومنها نكاح الرجل الرجل ، وذلك مما حرم ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله ، ومنها نكاح المرأة المرأة ، وذلك مما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله ، وليس لهؤلاء صلاة ما أقاموا على هذا حتى يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً ، قال زر : فقلت لأبى بن كعب : فما التوبة النصوح ؟ فقال : سألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « هو الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر ثم لا تعود إليه أبداً »[2] . وقال الحسن : « التوبة النصوح أن تبغض الذنب كما أحببته ، وتستغفر منه إذا ذكرته » فأما إذا جزم بالتوبة وصمم عليها فإنها تجب ما قبلها من الخطيئات ، كما ثبت فى الصحيح : « الإسلام يجب ما قبله ، والتوبة تجب ما قبلها » وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات – كما تقدم فى الحديث وفى الأثر – ثم لا يعود فيه أبداً ، ويكفى العزم على ألا يعود فى تكفير الماضى بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضارا فى تكفير ما تقدم لعموم قوله عليه السلام :

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجة عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم .

« التوبة تجب ما قبلها » ؟ وللأول أن يحتج بما ثبت فى الصحيح أيضا : من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ فما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر ، فإذا كان هذا فى الإسلام الذى هو أقوى من التوبة ، فالتوبة بطريق الأولى ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ **عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ وعسى من الله موجبة ﴿ **يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه** ﴾ أى ولا يخزيهم معه يعنى يوم القيامة : ﴿ **نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم** ﴾ ، كما تقدم فى سورة الحديد : ﴿ **يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير** ﴾ قال مجاهد والضحاك : هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طفىء روى الإمام أحمد عن يحيى بن غسان عن رجل من بنى كنانة قال : صليت خلف رسول الله ﷺ عام الفتح فسمعته يقول : « اللهم لا تخزنى يوم القيامة » رواه الإمام أحمد .

(٤٣) آسية زوجة فرعون ومريم ابنت عمران من أزواج النبى ﷺ فى الجنة:

قال الله تعالى : ﴿ **وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ امرأتَ فِرعَونَ إذ قَالَت رَبِ ابنِ لى عِندَكَ بَيتًا فِى الجَنَّةِ وَنَجِنى مِن فِرعَونَ وَعَمَلِهِ وَنَجِنى مِنَ القَومِ الظَّالِمِينَ ۝ وَمَرَيَمَ ابنَتَ عِمرَانَ الَّتِى أحصَنَت فَرجَهَا فَنَفَخنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا وَصَدَّقَت بِكَلِمَاتِ رَبِهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَت مِنَ القَانِتِينَ** ﴾ (التحريم : ١١ – ١٢)

وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين ، أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ **إلا أن تتقوا منهم تقاة** ﴾ قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم ، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها ، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه . وروى ابن جرير ، عن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تعذب فى الشمس ، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها فى الجنة ، فقولها : ﴿ **رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة** ﴾ قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار ،

﴿ ونجنى من فرعون وعمله ﴾ أى خلصنى منه فإنى أبرأ إليك من عمله ﴿ ونجني من القوم الظالمين ﴾ وهذه المرأة هى (آسية بنت مزاحم) رضى الله عنها ، عذّبها فرعون فشدَّ يديها ورجليها بالأوتاد وهى صابرة ، فرأت بيتها فى الجنة فضحكت حين رأته ، فقال فرعون ألا تعجبون من جنونها ! إنا نعذّبها وهى تضحك ، فقبض الله روحها فى الجنة رضى الله عنها ، وقوله تعالى : ﴿ ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها ﴾ أى حفظته وصانته ، والإحصان هو العفاف والحرية ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ أى بواسطة الملك وهو (جبريل) فإن الله بعثه إليها فتمثل لها فى صورة بشر سوى ، وأمره الله تعالى أن ينفخ فيه بفيه فى جيب درعها ، فنزلت النفخة فولجت فى فرجها ، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام . ولهذا قال تعالى : ﴿ فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه ﴾ أى بقدره وشرعه ، ﴿ وكانت من القانتين ﴾ . وفى الصحيحين ، عن أبى موسى الأشعرى ، عن النبى ﷺ قال : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » . رواه الشيخان .

[فائدة : ذكر ابن كثير أيضاً رحمه الله فى تفسير قوله تعالى : ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ وعد الله[1] نبيه ﷺ فى هذه الآية أن يزوجه ، فالثيب آسية امرأة فرعون ، وبالأبكار مريم ابنت عمران] .

(٤٤) لا يدخل أحد الجنة إلا بجواز :

قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُواْ كِتَابِيَه * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَه * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾

(الحاقة : ١٩ — ٢٤)

---

(١) رواه الحافظ الطبرانى فى المعجم الكبير كما قال ابن كثير رحمه الله .
مختصر تفسير ابن كثير للصابونى جـ٢ ص ٥٥٢

يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه ، وفرحه بذلك وأنه من شدة فرحة يقول لكل من لقية : ﴿ هاؤم اقرأوا كتابيه ﴾ أى خذوا اقراءوا كتابيه ، لأنه يعلم أن الذى فيه خير وحسنات محضة ، لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات وعن عبد الله بن عبد الله بن حنظلة (غسيل الملائكة) قال : إن الله يوقف عبده يوم القيامة ، فيبدى أى يظهر سيئاته فى ظهر صحيفته ، فيقول له : أنت عملت هذا فيقول : نعم أى رب ، فيقول له : إنى لم أفضحك به وإنى قد غفرت لك ، فيقول عند ذلك : ﴿ هاؤم اقرأوا كتابيه ﴾ ، ﴿ إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ﴾ حين نجا من فضيحته يوم القيامة[1] ، وقد تقدم فى الصحيح حديث ابن عمر حين سئل عن النجوى فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يدنى الله العبد يوم القيامة فيقرره بذنوبه كلها ، حتى إذا رأى أنه قد هلك ، قال الله تعالى : « إنى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه ، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » وقوله تعالى : ﴿ إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ﴾ أى قد كنت موقنا فى الدنيا ، أن هذا اليوم كائن لا محالة ، كما قال تعالى : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾ ، قال تعالى : ﴿ فهو فى عيشة راضية ﴾ أى مرضية ، ﴿ فى جنة عالية ﴾ أى رفيعة قصورها ، حسان حورها ، نعيمة دورها ، دائم حبورها ، وروى ابن أبى حاتم ، عن أبى أمامة قال : سأل رجل رسول الله ﷺ : « هل يتزاور أهل الجنة ؟ قال : « نعم » إنه ليهبط أهل الدرجة العالية إلى أهل الدرجة السفلى فيحيونهم ويسلمونهم عليهم ولا يستطيع أهل الدرجة السفلى أن يصعدوا إلى عليين تقصر بهم أعمالهم »[2] ، وقد ثبت فى الصحيح : « أن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » . وقوله تعالى : « قطوفها دانية » قال البراء بن عازب : أى قريبة يتناولها أخدهم وهو نائم على سريره ، وكذا قال غير واحد ، روى الطبرانى ، عن سلمان الفارسى قال ، قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل أحد الجنة إلا بجواز : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله لفلان بن فلان أدخلوه جنة عالية

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم . (٢) رواه ابن أبى حاتم .

قطوفها دانية »[1] ، وفى رواية : « يعطى المؤمن جوازا على الصراط : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لفلان ، أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية »[2] ، وقوله تعالى : ﴿ **كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية** ﴾ أى يقال لهم ذلك تفضلاً عليهم وإمتناناً ، وإنعاماً وإحساناً ، وإلاّ فقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحدا منكم لن يدخله عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » .

(٤٥) فى الجنة شراب الكافور من العزيز الغفور :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً** ﴾ (الإنسان : ٥ - ٦)

قوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا** ﴾ وقد علم ما فى الكافور من التبريد والرائحة الطيبة ، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة فى الجنة ، قال الحسن : برد الكافور فى طيب الزنجبيل ، ولهذا قال : ﴿ **عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً** ﴾ أى هذا الذى مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور ، هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفا بلا مزج ويروون بها ، قال بعضهم ، هذا الشراب فى طيبه كالكافور ، وقال بعضهم : هو من عين كافورا ، وقوله تعالى : ﴿ **يفجرونها تفجيراً** ﴾ أى يتصرفون فيها حيث شاءوا وأينما شاءوا ، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم ، والتفجير هو الانباع ، كما قال تعالى : ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً** ﴾ ، وقال : ﴿ **وفجرنا خلالهما نهراً** ﴾ وقال مجاهد : ﴿ **يفجرونها تفجيراً** ﴾ يقودونها حيث شاءوا ، وقال الثورى : يصرفونها حيث شاءوا .

---

(١) رواه الطبرانى .

(٢) أخرجه الضياء فى صفة الجنة .

(٤٦) الجنة ليس فيها حر مزعج ولا برد مؤلم :

قال الله تعالى : ﴿ **مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكاً كَبِيراً * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُوراً * إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا** ﴾ (الإنسان : ١٤ - ٢٢)

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم ، وما أسبغ عليهم من الفضل العظيم فقال تعالى : ﴿ **متكئين فيها على الآرائك** ﴾ تقدم الكلام عن ذلك فى سورة الصافات ، وأن الآرائك هى السرر تحت الحجال ، وقوله تعالى : ﴿ **لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا** ﴾ أى ليس عندهم حر مزعج ، ولا برد مؤلم ، ﴿ **ودانية عليهم ظلالها** ﴾ أى قريبة إليهم أغصانها ، ﴿ **وذللت قطوفها تذليلا** ﴾ أى متى تعاطاه دنا القطف إليه ، تدلى من أعلى غصنه كأنه سامع طائع ، كما قال تعالى : ﴿ **قطوفها دانية** ﴾ قال مجاهد : إن قام ارتفعت معه بقدر ، وإن قعد تذللت له حتى ينالها ، وإن اضطجع تذللت له حتى ينالها فذلك قوله تعالى : ﴿ **تذليلاً** ﴾ ، وقال قتادة : لا يرد أيديهم عنها شوك ولا بعد ، وقوله جلت عظمته : ﴿ **ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب** ﴾ أى يطوف عليهم الخدم بأوانى الطعام ، وهى من فضة ، وأكواب الشراب وهى التى لا عرى لها ولا خراطيم ، وقوله : ﴿ **قواريراً من فضة** ﴾ فالأول منصوب بخبر كان ، أى كانت قوارير ، والثانى منصوب إما على البدلية أو تمييز ، قال ابن عباس : « بياض الفضة فى صفاء الزجاج ، والقوارير لا تكون إلا من زجاج ، فهذه الأكواب هى من فضة ، وهى مع هذا شفافة يرى ما فى باطنها من ظاهرها ، وهذا مما لا نظير له فى الدنيا . قال ابن عباس : ليس فى الجنة شىء إلا قد

أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **قدروها تقديراً** ﴾ أى على قدر ريّهم لا تزيد عنه ولا تنقص ، بل هى معدة لذلك مقدرة بحسب رى صاحبها ، وهذا أبلغ فى الاعتناء والشرف والكرامة ، وقال ابن عباس : ﴿ **قدروها تقديرا** ﴾ قدرت للكف ، وقال الضحاك : على قدر كف الخادم ؛ وهذا لا ينافى القول الأول ، فإنها مقدرة فى القدر والرى .

وقوله تعالى : ﴿ **ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلاً** ﴾ أى ويسقون – يعنى الأبرار أيضا – فى هذه الأكواب ﴿ **كأساً** ﴾ أى خمراً ، ﴿ **كان مزاجها زنجبيلاً** ﴾ فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد ، وتارة بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر ، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة ، وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً كما قاله قتادة وغير واحد . وقد تقدم قوله جل وعلا : ﴿ **عينا يشرب بها عباد الله** ﴾ . وقال هنا : ﴿ **عينا فيها تسمى سلسبيلاً** ﴾ أى الزنجبيل عين فى الجنة تسمى سلسبيلاً ، وقال عكرمة ، اسم عين فى الجنة ، وقال مجاهد : سميت بذلك لسلاسة مسيلها وحدة جريها ، وقوله تعالى : ﴿ **ويطوف عليهم ولدان مخلدون . إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا** ﴾ أى يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة ﴿ **مخلدون** ﴾ أى على حالة واحدة ، مخلدون عليها لا يتغيرون عنها لا تزيد أعمارهم عن تلك السن ، وقوله تعالى : ﴿ **إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا** ﴾ أى إذا رأيتهم فى صباحة وجوههم ، وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم ﴿ **حسبتهم لؤلؤاً منثورا** ﴾ ولا يكون فى التشبية أحسن من هذا ، ولا فى المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن ، قال قتادة : ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم على عمل ما عليه صاحبه ، وقوله جل وعلا : ﴿ **وإذا رأيت** ﴾ وإذا رأيت يامحمد ﴿ **ثم** ﴾ أى هناك يعنى فى الجنة ونعيمها ، وسعتها وارتفاعها ، وما فيها من الحبرة والسرور ﴿ **رأيت نعيماً وملكاً كبيراً** ﴾ أى مملكة لله هناك عظيمة ، وسلطانا باهراً ، وثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها ، وآخر أهل الجنة دخولاً إليها : « إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها » ، وفى الحديث عن ابن عمر مرفوعاً : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر فى ملكة مسيرة ألفى سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه » فإذا كان هذا عطاؤه تعالى

لأدنى من يكون فى الجنة ، فما ظنك بمن هو أعلى منزلة وأحظى عنده تعالى ؟

وقوله جلّ جلاله : ﴿ **عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق** ﴾ أى لباس أهل الجنة فيها الحرير (السندس) وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلى أبدانهم ، و(الإستبراق) وهو ما فيه بريق ولمعان وهو ما يلى الظاهر ، كما هو المعهود فى اللباس ، ﴿ **يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير** ﴾ ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلى قال بعده : ﴿ **وسقاهم ربهم شراباً طهوراً** ﴾ أى طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة كما روينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هنالك عينين فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما ، فأذهب الله ما فى بطونهم من أذى ، ثم اغتسلوا من الأخرى ، فجرت عليهم نضرة النعيم ، فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن ، وقوله تعالى : ﴿ **إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً** ﴾ أى يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم كما قال تعالى : ﴿ **كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية** ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعلمون** ﴾ ، وقوله تعالى . ﴿ **وكان سعيكم مشكوراً** ﴾ أى جزاكم الله تعالى على القليل بالكثير .

(٤٧) دار السلام :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً * وَكَأْسًا دِهَاقاً * لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّاباً * جَزَآءً مِن رَّبِكَ عَطَآءً حِسَابًا** ﴾ (النبأ : ٣١ — ٣٥)

يقول تعالى مخبراً عن السعداء ، وما أعد الله تعالى لهم من الكرامة والنعيم المقيم ، فقال تعالى : ﴿ **إن للمتقين مفازاً** ﴾ قال ابن عباس منتزهاً وقال مجاهد : فازوا فنجوا من النار ، والأظهر هنا قول ابن عباس لأنه قال بعده : ﴿ **حدائق** ﴾ والحدائق البساتين من النخيل وغيرها ﴿ **وأعناباً وكواعب أتراباً** ﴾ أى وحوراً كواعب ، قال ابن عباس ومجاهد ﴿ **كواعب** ﴾ أى

نواهد ، يعنون أن ثديهن نواهد لم يتدلين ، لأنهن أبكار (عرب أتراب) أى فى سن واحد ، كما تقدم بيانه فى سورة الواقعة ، روى ابن أبى حاتم ، عن ابن أبى القاسم الدمشقى ، عن أبى أمامة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إن قمص أهل الجنة لتبدو من رضوان الله ، وإن السحابة لتمر بهم فتناديهم ، يا أهل الجنة ماذا تريدون أن أمطركم ؟ حتى إنها لتمطرهم الكواكب الأتراب »[1] . وقوله تعالى : ﴿ وكأسا دهاقاً ﴾ قال ابن عباس مملوءة متتابعة ، وقال عكرمة : صافية ، وقال مجاهد والحسن ﴿ دهاقاً ﴾ الملأ المترعة ، وقال سعيد بن جبير ، هى المتتابعة ، وقوله تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ﴾ كقوله : ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ أى ليس فيها كلام لاغ عار عن الفائدة ولا إثم كذب بل هى دار السلام وكل ما فيها سالم من النقص ، وقوله : ﴿ جزاء من ربك عطاء حساباً ﴾ أى هذا الذى ذكرناه ، جازاهم الله به بفضله ومنه وإحسانه ﴿ عطاء حساباً ﴾ أى كافياً وافياً سالماً كثيراً ، ومنه حسبى الله ، أى الله كافىَّ .

(٤٨) وفى ذلك فليتنافس المتنافسون :

قال الله تعالى : ﴿ **كَلَّآ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَآ أَدرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرقُومٌ * يَشهَدُهُ المُقَرَّبُونَ * إِنَّ الأَبرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعرِفُ فِي وُجُوهِهِم نَضرَةَ النَّعِيمِ * يُسقَونَ مِن رَّحِيقٍ مَّختُومٍ * خِتَامُهُ مِسكٌ وَفِي ذَلِكَ فَليَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِن تَسنِيمٍ * عَيناً يَشرَبُ بِهَا المُقَرَّبُونَ** ﴾ (المطففين : ١٨ - ٢٨)

يقول تعالى : حقاً إن كتاب الأبرار - وهم بخلاف الفجار - ﴿ لفى عليين ﴾ أى مصيرهم إلى عليين وهو بخلاف سجين ، روى الأعمش عن هلال بن يساف قال : سأل ابن عباس كعباً - وأنا حاضر - عن سجين ؟ قال : هى الأرض السابعة وفيها أرواح الكفار ، وسأله عن عليين ؟ فقال : هي السماء السابعة وفيها أرواح المؤمنين[2] وقال ابن عباس : ﴿ لفى عليين ﴾ يعنى الجنة ،

---

(١) رواه ابن أبى حاتم .

(٢) وهكذا قال غير واحد من السلف إنها السماء السابعة .

وفى رواية عنه : أعمالهم فى السماء عند الله ، وقال قتادة : عليون ساق العرش اليمنى ، وقال غيره : عليون عند سدرة المنتهى ، والظاهر أن عليين مأخوذ من العلو ، وكلما علا الشيء وارتفع عظم واتسع ، ولهذا قال تعالى معظماً أمره ومفخماً شأنه : ﴿ **وما أدراك ما عليون** ﴾ ؟ ثم قال تعالى مؤكداً لما كتب لهم : ﴿ **كتاب مرقوم يشهده المقربون** ﴾ وهم الملائكة قاله قتادة ، وقال ابن عباس : يشهده من كل سماء مقربوها ، ثم قال تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفى نعيم** ﴾ أى يوم القيامة هم فى نعيم مقيم ، وجنات فيها فضل عميم ﴿ **على الآرائك** ﴾ وهى السرر تحت الحجال ﴿ **ينظرون** ﴾ قيل : معناه ينظرون فى ملكهم وما أعطاهم الله من الخير ، والفضل الذى لا ينقضى ولا يبيد ، وقيل : معناه ﴿ **على الآرائك ينظرون** ﴾ إلى الله عز وجل ، كما تقدم فى حديث ابن عمر : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر فى ملكه مسيرة ألفى سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه وإن أعلاهم لمن ينظر إلى الله عز وجل فى اليوم مرتين » وقوله تعالى : ﴿ **تعرف فى وجوههم نضرة النعيم** ﴾ أى تعرف إذا نظرت إليهم فى وجوههم ﴿ **نضرة النعيم** ﴾ أى صفة الترافة والسرور ، والدعة والرياسة ، مما هم فيه من النعيم العظيم . وقوله تعالى : ﴿ **يسقون من رحيق مختوم** ﴾ أى يسقون من خمر من الجنة ، والرحيق من أسماء الخمر[1] ، وفى الحديث : « أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة ماء على ظمأ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة : وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عرى كساه الله من خضر الجنة »[2] ، وقال ابن مسعود فى قوله : ﴿ **ختامه مسك** ﴾ أى خلطه مسك ، وقال ابن عباس : طيب الله لهم الخمر ، فكأن آخر شيء جعل فيها مسك ختم بمسك ، وقال الحسن : عاقبته مسك ، وقال ابن جرير ، عن أبى الدرداء : ﴿ **ختامه مسك** ﴾ قال : شراب أبيض مثل الفضة يختمون به شرابهم ، ولو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها ، لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها[3] ، وقال مجاهد ، ﴿ **ختامه مسك** ﴾ طيبه مسك ، وقوله تعالى : ﴿ وفى

---

(١) وهو قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة .

(٢) أخرجه أحمد عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً .

(٣) أخرجه ابن جرير .

ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ أى وفى مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون ، وليتباهى وليستبق إلى مثله المستبقون كقوله تعالى : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ أى مزاج هذا الرحيق الموصوف ﴿ من تسنيم ﴾ أى من شراب يقال له تسنيم ، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه ، ولهذا قال : ﴿ عينا يشرب بها المقربون ﴾ أى يشرب المقربون صرفاً ، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً[1] .

(٤٩) أهل الجنة تعرف فى وجوههم نضرة النعيم :

قال الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ (الغاشية : ٨ – ١٦)

لما ذكر حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء فقال : ﴿ وجوه يومئذ ﴾ أى يوم القيامة ، ﴿ ناعمة ﴾أى يعرف النعيم فيها ، وإنما حصل لها ذلك بسعيها ، ﴿ لسعيها راضية ﴾ قد رضيت عملها ، وقوله تعالى : ﴿ فى جنة عالية ﴾ أى رفيعة بهية فى الغرفات آمنون ، ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ أى لا تسمع فى الجنة التى هم فيها كلمة لغو ، كما قال تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ ، ﴿ فيها عين جارية ﴾ أى سارحة وليس المراد بها عيناً واحدة وإنما هذا جنس يعنى فيها عيون جاريات ، وعن أبى هريرة قال ، قال ، رسول الله ﷺ : أنهار الجنة تفجر من تحت تلال – أو من تحت جبال – المسك »[2] ، ﴿ فيها سُرُرٌ مرفوعة ﴾ أى عالية ناعمة ، كثيرة الفرش مرتفعة السمك ، عليها الحور العين ، فإذا أراد ولى الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له ، ﴿ وأكواب موضوعة ﴾ يعنى أوانى الشرب معدة مرصدة لمن أرادها ، ﴿ ونمارق مصفوفة ﴾ قال ابن عباس :

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم .

(٢) وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك والسدى وغيرهم .

النمارق الوسائد[1] وقوله تعالى : ﴿ **وزرابى مبثوثة** ﴾ قال ابن عباس : الزرابى البسط ، ومعنى مبثوثة : أى هنا وهنا لمن أراد الجلوس عليها ، عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل من مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها ، هي ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام فى أبد فى دار سليمة ، وفاكهة وخضرة ، وحبرة ونعمة ، فى محلة عالية بهية ! » ، قالوا : نعم يارسول الله نحن المشمرون لها ، قال : « قولوا : إن شاء الله » قال : القوم إن شاء »[1] .

آخر آية فى القرآن تتكلم عن الجنة : قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** ﴾ (الكوثر : ١)

روى مسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا فى المسجد إذا أغفى إغفاءه ، ثم رفع رأسه مبتسماً قلنا : ما أضحكك يارسول الله ؟ قال : « لقد أنزلت على آنفاً سورة » فقرأ : ﴿ **بسم الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر** ﴾ ، ثم قال : « أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه نهر فى الجنة وعدنيه ربى عز وجل عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد النجوم فى السماء فيختلج العبد منهم ، فأقول : رب إنه من أمتى ، فيقول : إنك لا ترى ما أحدث بعدك » أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى .... (إلى أن قال رحمه الله)

وقال البخارى ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى الكوثر : هو الخير الذى أعطاه الله إياه ، قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن ناساً

---

(١) أخرجه ابن ماجه .

يزعمون أنه نهر فى الجنة ، فقال سعيد : النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : الكوثر الخير الكثير ، وهذا التفسير يعم النهر وغيره ؛ لأن الكوثر من الكثرة وهو الخير الكثير ، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد ، حتى قال مجاهد : هو الخير الكثير فى الدنيا والآخرة ، وقال عكرمة : هو النبوة والقرآن وثواب الآخرة ، وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضاً فقال ابن جرير : عن ابن عباس قال : « الكوثر نهر فى الجنة حافتاه ذهب وفضة يجرى على الياقوت والدر ، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل .

خاتمــة :

اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم.

الحمد لله رب العالمين ، اللهم صلى على محمد ﷺ وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ، فى العالمين .
إنك حميد مجيد

اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد.

اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض ياذا الجلال والإكرام ياحى ياقيوم.

لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين .

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

لا إله إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يا أرحم الراحمين ، يا أرحم الراحمين ، يا أرحم الراحمين.
ياذا الجلال والإكرام .
يارب ، يارب ، يارب .

« يا من أظهر الجميل وستر القبيح ، يامن لا يؤاخذ بالجريرة[1] ، ولا يهتك الستر ، يا حسن التجاوز ، يا واسع المغفرة ، يا باسط اليدين بالرحمة ، يا صاحب كل نجوى ، يا منتهى كل شكوى ، يا كريم الصفح ، يا عظيم المن ،

---

(١) الجريرة : هى الذنب الكائن بسبب من الأسباب التى يتسبب بها إلى الذنوب (كذا فى تحفة الذاكرين) .

يامبتدىء النعم قبل استحقاقها ، ياربنا وياسيدنا ويامولانا وغاية رغبتنا ، نسألك يا الله ألا تشوى خلقنا بالنار . ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » « سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » وصل اللهم على محمد وآله وصحبه وسلم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أبو ذر القلمونى

عبدالمنعم بن حسين بن حنفى بن حسن بن الشاهد - مصر - الواحات الداخلة - القلمون . المقيم فى مصر - الجيزة - طريق البراجيل - عزبة خيزة.

تم بعون الله تعالى الانتهاء من هذا الكتاب فى عصر يوم الجمعة الحادى والعشرين من شهر شوال ١٤٠٦ هـ.

فهرس الكتاب

الموضـــوع | صفحة

مقدمـــة :

الباب الأول : الدنيـــا

الباب الثانى : النار

الباب الثالث : الجنـــة

